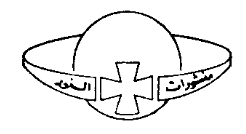

مدخل
إلى
العقيدة المسيحية
كوستي بندلي
و
مجموعة من المؤلفين


منشورات
النور

كوستي بندلي
و
مجموعة من المؤلفين

مدخل
إلى
العقيدة المسيحيّة

طبعة ثالثة معدّلة ومزادة

منشورات النور

للمؤلف

السبل الى الله	طبعة ثالثة	(منشورات النور)
مدخل الى القداس الالهي	طبعة ثالثة	(منشورات النور)
إله الإلحاد المعاصر	نفد	(منشورات النور)
الله والتطور	طبعة ثالثة	(منشورات النور)
الطائفية : رأي مسيحي		(منشورات النور)
ألوهة المسيح	طبعة ثانية	(منشورات النور)
الجنس ومعناه الانساني	طبعة ثانية	(منشورات النور)
مع تساؤلات الشباب	طبعة ثانية	(منشورات النور)
مجالس الرعايا والنهضة		(منشورات النور)
الانجيل في الحياة (بالفرنسية)		(منشورات النور)
مواقف الاباء ومشاكل البنين		(منشورات النور)
مجموعة «نحن واولادنا»		(منشورات النور)

فهرس

	الصفحة
مقدمة	٧
الفصل الأول: في دستور الايمان	١١
الفصل الثاني: الايمان بالله الخالق	٢١
١ - في الايمان	٢٣
٢ - الله يكشف نفسه لنا	٣٣
٣ - الايمان والحياة	٤٧
٤ - الايمان والعلم	٥٠
الفصل الثالث: الخلق والسقوط	٥٧
١ - الخلق والتطور	٥٩
٢ - خلق الانسان	٧٥
٣ - مقاصد الله نحو الانسان	٨١
٤ - السقوط	٨٨
٥ - نتائج السقوط	٩٢
٦ - صورة الله في الانسان بعد الخطيئة	٩٦
الفصل الرابع: ألوهة الابن	٩٩
١ - ألوهة الابن	١٠١
٢ - شهادات من الكتاب المقدس على ألوهة الابن	١٠٤
الفصل الخامس: التجسد	١١١
١ - غاية التجسد	١١٣
٢ - تهيئة التجسد	١١٦
٣ - دور العذراء مريم في التجسد	١٢٠
٤ - شخص يسوع المسيح	١٢٤
الفصل السادس: الفداء	١٣٤
١ - الصلب	١٣٧
٢ - القيامة	١٤٧
٣ - اشتراكنا في صليب الرب وقيامته	١٥٧

٤ ـ الفداء ومحبة القريب ١٦٥
٥ ـ الصعود ١٨١
٦ ـ المسيح الكوني ١٩٢
الفصل السابع : الثالوث القدوس ٢٠٣
الفصل الثامن :الكنيسة ٢١٧
ملحق : المناولة المتواصلة ٢٣٤
ملحق : مقتطفات من القانون الاساسي للكرسي الانطاكي........ ٢٤١
الفصل التاسع : المعمودية ٢٤٧
١ ـ الأسرار في الكنيسة ٢٤٩
٢ ـ سر المعمودية ٢٥١
ملحق : معمودية الاطفال ٢٦٠
الفصل العاشر : المجيىء الثاني والحياة الابدية ٢٧١
١ ـ المجيىء الثاني للمسيح ٢٧٣
٢ ـ نهاية العالم و «الارض الجديدة» ٢٧٦
٣ ـ الموت ٢٧٩
٤ ـ قيامة الموتى والحياة الابدية ٢٨٤
٥ ـ تجلي الجسد ٢٨٩
٦ ـ الدينونة ٣٠٥
٧ ـ الصلاة من اجل الاموات ٣٠٧
٨ ـ رقاد سيدتنا والدة الاله ٣١١
مراجع ٣١٥

مقدمـة

إنها الطبعة الثالثة لكتاب « مدخل الى العقيدة المسيحية » ، وقد نفدت طبعتاه الأولى والثانية . وقد شعرنا بلزوم إعادة طبعه للضرورة الملحة اليه المتجلية بالطلبات الكثيرة التي تلقيناها .

إن مقارنة سريعة لهذه الطبعة مع سابقتيها تظهر بجـلاء محاولـة تطوير هذا الكتـاب الى ما نعتقـده الأفضـل . فالطبعـة الثـانية مزيدة ومنقحة بالنسبة الى الطبعة الأولى ، وكذلك الطبعة الثالثة هذه . فقد أضيفت اليها فصول بكاملها تتناول المسيح الكوني والثالوث القدوس والكنيسة والمعمودية والمجيء الثاني والحياة الأبدية . إنها محاولة لجعل هذا الكتاب مدخلاً للعقيدة المسيحية ككل ، وليس لجانـب منهـا ، كما في الطبعتين الأولى والثانية .

كذلك أردنا بإدخال بعض الملحقات المتعلقة بالمناولـة المتواصلـة ومعمودية الأطفال والتعرض لبعض القوانـين المعمـول بهـا في كرسينـا الانطاكي ، أن نضفي على الكتاب الطابع التطبيقي الحياتي ، والابتعاد به عن الطابع العقائدي البحت . في اللاهوت الشرقي العقيدة ملتصقة بالحياة التصاقاً .

ويجدر التنويه بأن مضمون الفصول الجديدة : السابع والثامـن والتاسع ، وموضوع المسيح الكوني في الفصل السادس قد اقتبسوا من دروس ألقاهـا سيادة المطـران جورج خضر (متروبـوليت جبيل والبترون) ، في دير سيدة البلمنـد ، صيف ١٩٧٢ ، على فئـة من

الشباب جمعتهم حلقة تدريبية أقامتها حركة الشبيبة الأرثوذكسية . أما الفصل العاشر فقد أُعتمد في كتابته على ما ورد في الفصل السابع من كتاب « الله حي » الذي أعدّه فريق من اللاهوتيين الأرثوذكسيين في فرنسا . والفصل العاشر هذا كتبه أحد العلمانيين الأرثوذكسيين وهو نفسه كاتب الفصل الأول من الطبعة الثانية لهذا الكتاب. وكذلك تجدر الاشارة ان الاب بولس طرزي كان قد اعاد النظر بالقسمين الرابع (السقوط) والسادس (صورة الله في الانسان بعد الخطيئة) من الفصل الثالث، وذلك بمناسبة صدور الطبعة الثانية للكتاب.

ولا يسعنا في مستهل الطبعة الثالثة هذه إلا التنويه بالتعليمات التي ثبتها الاستاذ كوستي بندلي في مقدمة الطبعة الأولى للكتاب إذ قال :

« غاية الأسئلة الواردة في آخر كل فصل أو باب أن تكون مادة لحوار بين المدرّس والطلاب ـ ونزيد: بين الأهل والأولاد ـ يتدرج هؤلاء من خلاله الى اكتشاف المعلومات التي تقدم لهم . لذا ينبغي أن يسبق هذا الحوارُ عرضَ الموضوع ، فيأتي العرض منسّقاً ومكمِّلاً الأفكار التي تمّ الوصول اليها بمجهود مشترك . وغني عن الاشارة أن صيغة الأسئلة ليست نهائية بل يُترك تعديلها أو غضّ النظر عن بعضها أو إضافة اسئلة اليها حسب الحاجة .

«والكثير من الأسئلة يعود بالطلاب الى الكتاب المقدس والطقوس ، ذلك أن العقيدة إذا لم تردّ دوماً الى مصدرها الحي ، وهو كلمة الله المكتشفة في الكتاب المقدس والمعاشة في الليتورجيا ، تتعرض للجفاف والتحول الى رياضة عقلية جوفاء. لذا يستحسن أن يصطحب كل تلميذ الى الصف نسخة من العهد الجديد . وبتعويد التلاميذ على

تفتيش الكتاب المقدس بحثاً عن مقطع إنجيلي أو آية ما ، تتكوّن إلفة بينهم وبينه . أما العهد القديم ونصوص الطقوس فتكون نسخة منهما ، على الأقل ، مع المدرّس كي يتداولهما التلاميذ بالتناوب للتفتيش عن آية أو مقطع وتلاوته . وقد ألحقت بمعظم الفصول نصوص ووثائق يمكن أن تكون موضوع تأمل وحوار » .

الناشر



الفصل الأوّل

في دستور الايمان

دستور الإيمان النيقاوي القسطنطيني

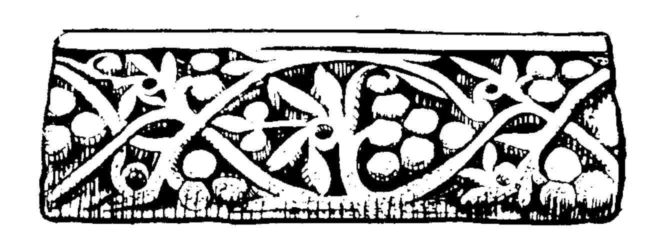
الايمان	**أومن**
الله الآب	**بإله واحد** ، **آب** ، ضابط الكل ،
الخلق	**خالق** السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ،
يسوع المسيح	**وبرب واحد يسوع المسيح** ، إبن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ للآب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء ، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ،
التجسد	**وتجسَّد** من الروح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنّس ،
الفداء	**وصلب عنَّا** على عهد بيلاطس البنطي ، **وتألّم** ، **وقُبِر** ، **وقام** في اليوم الثالث على ما في الكتب ، **وصعد إلى السماء** وجلس عن يمين الآب ،
الدينونة	**وأيضاً يأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات** ، الذي لا فناء لملكه ،

الروح القدس	**وبالروح القدس، الرب المحيي ، المنبثق من الآب ،**
الثالوث القدوس	الـذي هو مع الآب والابـن مسجـود له وممجـد ، الناطـق بالأنبياء ،
الكنيسة	**وبكنيسة واحدة ، مقدسة ، جامعة ، رسولية ،**
المعمودية	**واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ،**
القيامة في اليوم الأخير	**وأترجى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي .**



هذا الدستور للايمان وُضع على مراحل حسب ظهور الهرطقات واضطرار الكنيسة للدفاع عن إيمانها .

وقد سمّي بالنيقاوي القسطنطيني لأنّ قسماً منه وضع في المجمع المسكوني الأوّل الذي انعقـد السنـة الـ **٣٢٥** في نيقية ، ثم أكمـل في المجمع المسكوني الثاني الذي انعقد السنة الـ ٣٨١ في القسطنطينية .



منذ العهد الرسولي تضمنت العبادة المسيحية الاعتراف العلني ببعض عناصر مقومات الايمان وخاصة عند الاستعداد لسر المعمودية وإقامته .

وفي شرقنا المسيحي دخل دستور الايمان النيقاوي القسطنطيني خدمة القداس الإلهي كجزء رئيس منه في القرن الرابع ، وتصدّر الكلام الجوهري .

يُستهل دستور الايمان بكلمة « أؤمن » وليس « نؤمن » ليظهر للشعب المسيحي قيمة الالتزام الشخصي لكل عضو في الكنيسة . لذلك يجب أن لا نتلو دستور الايمان تلاوة هامشية أو أن نوكل ذلك الى أي كان دون اشتراكنا الفعلي بذلك إذ المطلوب من كل مؤمن قبل اشتراكه في تناول القدسات أن يتبنى إيمان الكنيسة وان يلتزمه شخصياً . « أؤمن » هذا يعني أني أنا فلاناً الحاضر في هذه الكنيسة أؤمن أي أتبنى لا بشفتيّ فقط ولكن بكل كياني هذه الكلمات التي وضعها آباء الكنيسة وسكبوا فيها الحقيقة المعلن عنها ، جاعلينها بعملهم هذا في متناول كل عقل مستنير بالايمان بيسوع .

ولقد قال المطران فيلاريتوس ، مطران موسكو في القرن الماضي ، في هذا الصدد : « ما دام إيمانكم محفوظاً في الكتاب المقدس وفي دستور الايمان فهو ملك لله وأنبيائه ورسله وآباء الكنيسة ، إنه ليس

لكم ولن تبدؤوا في اكتسابه إلا عندما يتملك على أفكاركم وذاكرتكم . . . » .

ومن أجل الوصول الى حالة كهذه علينا ان نسعى جهدنا لفهم الحقائق المعبّر عنها في دستور الايمان ونسمح لها بالتغلغل فينا فتؤثر الكلمات التي نرددها ونسمعها في القداس الإلهي فينا عميقاً وتحولنا إلى أعضاء راشدين واعين لكنيسة المسيح .

وهذا ما هدفنا اليه في الكتاب الذي بين أيديكم .

ولكن لا بد لنا قبل الغوص في ثنايا الكتاب من إبداء بعض الملاحظات التي نعتبرها هامة لفهم صحيح للعقائد المسيحية ولدستور الايمان .

أولاً : ان تلاوة دستور الايمان جزء لا يتجزأ من القداس الالهي . هي تعبير عن قبول الجماعة للكلمة الالهية واعلان ايمانها بهذه الكلمة التي سمعوها عبر الرسالة والانجيل في القسم الأول من القداس (قداس الموعوظين) . وهي كذلك تأكيد لارادة الجماعة في أن تصبح جسداً واحداً بتناولها الكلمة الالهية في سر الشكر .

إذن فتلاوة دستور الايمان عمل ليتورجي ، نشيد من أناشيد التسبيح في الحياة الطقسية .

العقيدة والتسبيح مشدودان الى بعضهما بعرى لا تنفصم : « من يصلي فهو لاهوتي ، واللاهوتي هو الذي يصلي » قال الآباء قديماً . إذاً لا يمكننا أن نتعرف على الحقيقة الكامنة في عقيدة ما بالتحليل العقلاني الصرف ـ فالعقل لا يمكنه أن يحصر الألوهة وأسرارها . ولكن يمكننا ذلك بالتسبيح والتأمل ، بالرجاء الكلي في رحمة الله وهو يكشف لنا حينئذ

ذاته ويساعدنا على فهم سر محبته . يقول أحد الآباء : « ليس المهم أن نتكلم عن الله أو عن حقيقة الله ، بل المهم الأهم هو أن ندع ذواتنا تتطهر بالله فتمتلىء منه ومن حقيقته » .

اللاهوتي الحق ، في المفهوم الشرقي ، هو القديس ، لأن القديس قد حقق شركته مع الله .

السعي الى الله أساس الدين المسيحي . ودراسة دستور الايمان ليست دراسة ما ورائية Métaphysique بل هي سعي صامت محب ودؤوب يعبق بالتسبيح ، سعي الى الحقيقة المعلنة من الله والمعبّر عنها بالمسيح يسوع ابنه والمحيية لنا في الكنيسة بروحه القدوس .

ثانياً : دستور الايمان يؤكد ان وحدة الكنيسة هي ، في الأساس ، وحدة في الايمان ، والجماعة التي يشدها إيمان واحد إنما تعبر عن إيمانها جماعياً مما يؤدي الى صون وحدتها وإعلانها للملء .

وهنا تجدر الاشارة الى ان المؤمنين في القرون الثلاثة الأولى لم يكونوا في حاجة الى التعبير عن إيمانهم بواسطة دساتير للايمان . ولكن دفعهم الى ذلك ظهور الهرطقات . يقول هيلاريوس (القرن الرابع) : « إن شر الهراطقة والمجدفين يدفعنا الى القول بالمحرمات ، كأن نتسلق القمم التي لا تطال ونتكلم في أمور لا ينطق بها ونلجأ الى تفاسير ممنوعة . كان علينا الاكتفاء بأن نتمم بالايمان وحده ما أمرنا به السيد : أن نسجد للآب ونكرم الابن معه وان نمتلأ من الروح القدس . ويا للأسف فنحن الآن مضطرون لوصف الأسرار الفائقة الوصف . ان خطيئة الآخرين تسقطنا نحن في هذه الخطيئة : أن نعرض الأسرار الى متناقضات « قصور » لغة بشرية بينما هي وجدت لنخدمها في سكون

قلوبنا » .

هذا يعني أن تشويه الهراطقة للحقيقة المسلمة الى الرسل فرض على الكنيسة وضع معتقداتها في قوالب بشرية مع إدراكها تمام الإدراك ان الكلمات عاجزة كل العجز عن احتواء الحقيقة كلها والتعبير عنها كلياً .

هذا الوضع جعل العقائد المسيحية تحوي - حسب الظاهر - تناقضات لا حصر لها . فمثلاً نقول بأن الله واحد وإنه في الوقت ذاته مثلث الأقانيم . ونعترف بأن الله لا يدنى منه وندعو في الآن ذاته الى حياة الشركة مع الله . ونقرّ بأن المسيح إله وإنسان في آن . ونقول عن الكنيسة انها منظورة وغير منظورة كذلك الخ . . .

كل هذه التناقضات - ظاهرياً - تعبّر مجتمعة عن الحقيقة . ولكن الجمع بينها لا يتم على المستوى العقلي بل على مستوى الخبرة الروحية وهذا هو معنى السر في المسيحية . انه ليس نظرية صعبة الفهم والادراك ولكنه حياة نحن مدعوون لاختبارها في جماعة المؤمنين الواحدة أعني بها الكنيسة . وكلما ازداد اختبارنا لحياة الكنيسة وجدناها أكثر عمقاً .

ثالثاً : وحدتنا في الايمان ملتصقة بالمحبة وملازمة لها . وهذه الوحدة تؤهلنا للوصول الى وحدة الحياة الحقة في اشتراكنا بالمسيح في سرّ الشكر .

وهذا واضح في القداس الإلهي إذ يأتي دستور الايمان مباشرة بعد دعوة الكاهن جميع المؤمنين لممارسة المحبة قائلاً : « لنحب بعضنا بعضاً لكي ، بعزم واحد ، نعترف مقرين بآب وابن وروح قدس ثالوثاً متساوي الجوهر وغير منفصل » . وهذا يعني أن جماعة المسيحيين

المتحدة بالمحبة على صورة الثالوث القدوس هي وحدها مؤهلة ومدعوة لاعلان الايمان الواحد .

المحبة والحقيقة توأمان لا ينفصلان . لا حقيقة معاشة دون المحبة وخارجها ولا محبة حقة خارج الحقيقة .

رابعاً : اخيراً يذكرنا الالتزام الشخصي المنوه عنه في كلمة « أؤمن » بدعوة دستور الايمان لنا الى الالتصاق بهذا التدبير الالهي الذي يسرد أحداثه والى تغيير ذواتنا لكي نصبح سفراء للمسيح وشهوداً له في هذا العالم . وبذلك تصبح الكنيسة الجامعة خادمة للعالم الحاضر كما كان سيدها وهذا جليّ في تسلسل القداس الالهي :

- وحدتنا في المحبة تؤهلنا لأن نعبّر عن إيماننا الواحد .

- تعبيرنا عن إيماننا الواحد يؤهلنا للاشتراك في الكأس الواحدة .

- اشتراكنا في الكأس الواحدة وسكنى المسيح في قلوبنا يؤهلاننا للتفتيش عن المسيح وخدمته في كل مواضع سكنه ، أي أيضاً في الانسان الآخر وفي العالم ، مؤكدين بذلك ان سر الشكر لا يكتمل فعله فينا إلا إذا أوصلنا الى المناولة في « سر القريب » كما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم .



الفصل الثاني

الإيمان بالله الخالق

«اؤمن بإله واحد . . .»



١ - في الإيمان

* تحديد الايمان

عندما يتحدث الناس عما يؤمنون به ، فكثيراً ما يقصدون أفكاراً اعتنقوها أو مبادىء تبنوهـا أو معتقـدات انتمـوا اليهـا . لذا فالسؤال المطروح غالباً هو : بماذا تؤمن ؟ أما الايمان بمعناه المسيحي الأصيل ، فليس ، في الأساس ، تصديقاً لأفكار أو اعتناقاً لمبادىء ، إنما ارتباط صميمي بشخص حي ، هو الله . في منظار كهـذا ، لم يعد السؤال اللائق هو : بماذا تؤمن ؟ بل : بمن تؤمن ؟ ليس الايمان ، في الأساس ، تصديق امور عن الله ، **بل الانتماء الى الله كالى مصدر كياننا ومرتكزه ومرجعه** . إنه إدراك حي ، كياني ، لوجود الله ، لا كما تدرك حقيقة رياضية أو طبيعية أو تاريخية ، بل كما يدرك وجود كائن نحن مرتبطون به في الصميم ، ومنه نستمد وجودنا في كل لحظة ، واليه تصبو ، في آخر المطاف ، كل أمانينا . حتى اذا أدركنا وجود هذا الكائن ، ألفنا وياثنا ، جعلنا ثقتنا به وألقينا عليه رجاءنا . عبارة « آمن » ، في العربية ، قريبة من « أمن » . آمن به تعني أمن له . **أن نؤمن بالله يعني أن نأمن له ، أن نثق به ، أن نجعل منه معتمدنا ونسلم اليه ذواتنا مطمئنين اليه أعمق اطمئنان .**

* الايمان يختلف عن المعرفة العقلية البحتة

الايمان معرفة لله . وهذه المعرفة ، ككل معرفة ، تفترض مساهمة العقل . ولكن الايمان لا يرد الى المعرفة العقلية البحتة . الله لا يعرف بالعقل المجرد كما تعرف حقائق الرياضيات أو نواميس الطبيعة . شأن الله في ذلك شأن حقائق بالغة الأهمية في وجود الانسان ، حقائق قد يكرس لها المرء حياته أو يموت في سبيلها ولكنه لا يستطيع ان يقدم عنها براهين منطقية قاطعة . فمن أدرك روعة الموسيقى أو سمو التضحية ، من اعتنق مبدأ العدالة والحرية والاخاء بين البشر ، من وثق بصديقه الى أبعد حد ، من أدرك أن محبوبه شخص فريد ، وان كان هناك من هو أجمل منه وأذكى ، كل هؤلاء مقتنعون بصواب مواقفهم وقد يحاولون تعليلها عقلياً لاقناع الآخرين بها ، ولكنهم يعرفون أنهم لا يستطيعون تقديم البرهان العقلي القاطع عن صحتها وان لا سبيل لهم لتثبيتها على طريقة ٢ + ٢ = ٤ ، وان من لم يختبر بنفسه ما اختبروه هم غير قادر على مشاركتهم قناعتهم ولو قدموا له أفضل ما لديهم من براهين . ولكن ما هو صحيح بشأن تلك الحقائق الانسانية صحيح بشكل أخص فيما يتعلق بالله :

أ ـ لأن الله لا يحويه العقل

يقول الكتاب : « الله لم يره أحد قط » (يوحنا ١ : ١٨) . والمقصود بذلك ليس ان الله لا يدرك بالحواس وحسب ، بل أنه لا يدرك بالعقل أيضاً ولا يمكن أن يصبح بداهة عقلية على طريقة حقائق الرياضيات .

هذا أمر طبيعي اذا تذكرنا أن الله هو الكائن اللامحدود . فكيف

للعقل المحدود أن يدركه ؟ ذلك انه لو ادركه لاستوعبه وحواه وامتلكه ، ولكن أنى للمحدود أن يسع غير المحدود ، انى لنقطة الماء أن تستوعب البحر ؟ كيف للعقل ، الذي هو من الكون ، والذي من الكون يستمد أفكاره وعلى نموذج أشياء الكون يبني تصوراته ، كيف لهذا العقل أن يدرك من هو متعالٍ عن الكون ؟

ثم أنى للعقل أن يحوي الله ويمتلكه ، طالما الله هو مصدر العقل نفسه ، هو قاعدته وأساسه ؟ مفاهيم العقل البشري أبداً محصورة . لذا فتاريخ الفكر البشري كله ، على كل الأصعدة ، من علمي وفلسفي واجتماعي وغير ذلك ، إنما هو تاريخ محاولة مستمرة يقوم بها العقل البشري لتخطي محدودية تصوراته نحو حقيقة اغنى وأكمل . انه بذلك التخطي المستمر لمكاسبه ومواقفه يشير الى الكائن اللامحدود الذي منه يستمد انطلاقته اللامتناهية . ولكن كيف له ، وهو الذي لا يملك أبداً سوى حقائق جزئية ، أن يحوي ذلك المطلق الذي يدفعه بلا هوادة الى تجاوز حقائقه الجزئية كلها وان لا يقف عند حد في حركته التي لا قرار لها ؟

الله لا يدركه العقل ، لا لأنه مبهم ، غامض بحد ذاته ، بل على العكس لأنه الحقيقة الساطعة التي يفوق ملؤها طاقة العقل على الاستيعاب . فكما ان العين عاجزة عن الشخوص الى الشمس ، لأن نور الشمس يبهرها ، هكذا العقل عاجز عن إدراك الله . هذا ما عبّر عنه الكتاب بقوله : « الله ساكن في النور الذي لا يدنى منه » (١ تيموثاوس ٦ : ١٦) . وكما ان العين ، وهي لا تستطيع أن تحدّق الى قرص الشمس ، تشاهد انعكاساتها على الكائنات ، هكذا العقل لا يدرك الله انما يستطيع أن يهتدي اليه - كما سوف نرى - إنطلاقاً من آثاره

في الكون ، ولكن دون أن يشكل هذا الاهتداء عملية من نوع البرهان الرياضي أو العلمي ، اذ ان ذلك يتنافى ، كما رأينا ، مع طبيعة الله .

تلك هي المفارقة التي عبّر عنها المفكر الشهير باسكال : لا شيء اكثر عقلانية من اعتراف العقل بعجزه عن إدراك الله . ذلك ان العقل ، لو استطاع إدراك الله ، لارتفع الى مستوى الله ، كما يشير مدلول كلمة « أدرك » . ولكن ، لو كان ذلك ممكناً ، لما كان الله إلهاً بل كائناً في مستوى العقل . لا يمكن لله أن يكون إلهاً إلا إذا كان فائقاً كل إدراك .

ب ـ لأن حقيقة الله لا تفرض ذاتها على الانسان ، شأن البداهات الحسية والعقلية ، بل تتطلب منه تقبلاً وانفتاحاً

ومن جهة أخرى ، إذا تأملنا في علاقة الانسان بالحقيقة ، نرى أن الحقائق التي تفرض ذواتها على حواس الانسان أو عقله قليلة نسبياً . فأكثر الحقائق لا تكتشف الا بجهد ، وبالتالي يتطلب اكتسابها ، لا رؤية العقل وحسب ، بل مجهود الارادة واستعداد النفس لتقبل حقيقة قد تصدم الأفكار المألوفة وقد تجرح الكبرياء وقد تتصدى لهذا أو ذاك من الأهواء . هذا صحيح حتى بالنسبة للحقائق العلمية . فقد أثبت التاريخ أن كثيراً من النظريات التي طورت العلم ودفعته شوطاً بعيداً الى الأمام ، كنظرية كوبرنيك في الفلك ، ونظرية لافوازييه في الكيمياء ، ونظرية باستور في علم الحياة ، ونظرية داروين في التطور ، ونظرية فرويد في علم النفس ، ونظرية انشتاين في النسبية ، حوربت بشدة من قبل الأوساط العلمية المعاصرة لها ، وذلك لأسباب لا تمت الى العلم بصلة ، كتمسك العلماء بعاداتهم في التفكير وتهربهم من الاعتراف بأن معلوماتهم كانت خاطئة أو ناقصة ، وما شابه ذلك من دوافع نفسية كانت تتخذ العلم ذريعة لها مع انها غريبة عنه تماماً . هكذا كان هؤلاء

العلماء يقاومون عباقرة عصرهم معتقدين انهم بذلك يدافعون عن العلم الصحيح ضد مزيفيه ، فيما كانوا ، من حيث لا يدرون ، يدافعون عن عاداتهم وكرامتهم التي كانت تحول دون رؤيتهم للحقيقة الكامنة في النظريات التي كانوا يناهضونها .هذا ما أقرّ به العالم الكيميائي بلاك عندما كتب للافوازييه سنة ١٧٩١ رسالة يقول له فيها : « لقد بقيت لمدة طويلة بعيداً جداً عن مذهبك الجديد لأنه كان ينعت باللامنطقية ما طالما اعتبرته مذهباً سليماً . . . ان هذا البعد لم يكن سوى نتيجة سلطة العادة » . هكذا فان الحقيقة العلمية ذاتها لا تنكشف الا لذلك الذي يعترف بتواضع ان معرفته ناقصة ومعرضة للخطأ ، وان طريقته في التفكير ، أياً كان رسوخها فيه ، قابلة للنقض واعادة النظر . فإذا كانت الاستعدادات الشخصية تلعب هذا الدور كله في رؤية الحقائق العلمية نفسها ، فكم بالحري يكون دورها بالنسبة لحقائق أكثر مساساً بالشخص الانساني وبسلوكه ، مثلاً بالنسبة للحقائق الخلقية . كيف السبيل مثلاً لاقناع انسان غارق في الأنانية بسمو التضحية في سبيل الآخرين ؟ وكيف يمكن لانسان تسكره غطرسة طبقية او عنصرية ان يؤمن بمبدأ الاخاء بين البشر ؟ وكيف يستطيع إنسان بنى حياته على الاحتيال ان يعترف بقيمة الصدق ؟ ان خبرة مريرة تعلمنا كل يوم بأن الانسان كثيراً ما يفلسف اهواءه ويبني لنفسه عقيدة تبرر انحرافات سلوكه .

هكذا فبقدر ما تمس حقيقة ما كيان الانسان وليس مجرد عقله ، بقدر ذلك يتأثر قبولها أو رفضها باستعدادات الانسان الكيانية ، بموافقة الشخصية العميقة . ولكن أية حقيقة تمس كيان الانسان كحقيقة وجود الله ؟ انها تعني الانسان في أعماق شخصيته ،إذ عليها يترتب، في آخر المطاف ، تحديد رؤيته لذاته ولمصيره، لمعنى حياته وموته ، ورؤيته

للآخرين ولعلاقته بهم ، ونظرته الى الكون والى مركزه فيه . وجود الله يعني انه لا يسعني ان اكتفي بذاتي ولا بهذا المجتمع البشري الذي أنتمي اليه ولا بهذا الكون الذي استمدّ منه عناصر أفكاري ومقومات حياتي .
وجود الله يعني أن ذاتي والمجتمع والكون ، كل ذلك ليس مغلقاً على ذاته ، مكتفياً بذاته ، له غايته في ذاته ، إنما أصله ومرجعه ، ألفه وياؤه ، ما يقيمه في الوجود ويرسم له غايته ويعطيه معناه ، هو كائن متعالٍ عنه وحاضر في صميمه بآن ، ألا وهو الله . وجود الله يعني انه باطل أن يتعبد الانسان لأفكاره وميوله ومشاريعه ، فردية كانت أو جماعية ، لأنه يبقى عند ذاك أسير الفراغ والضياع ، وانه ، بالتالي ، اذا شاء أن يحقق ذاته ، وجب عليه أن يتخذ من الله لا من ذاته محوراً لوجوده كله . ولكنه يصعب على الانسان أن يتخلى عن محورية ذاته . يقول لنا فرويد ان الدافع النفسي العميق الذي حمل البشر على مقاومة نظرية كوبرنيك هو كون هذه النظرية نقضت الاعتقاد بأن الأرض (وبالتالي البشر) هي مركزالكون ،وجعلت منها نقطة في الفضاء اللامتناهي ، وبالتالي طعنت الكبرياء البشري في الصميم . الايمان بالله يتطلب انسلاخاً اعظم من هذا بما لا يقاس ، لأنه يعني التخلي لا عن مركزية مكانية وحسب ، بل عن مركزية كيانية ، وهذا أعمق بكثير . من لم يكن مستعداً للتخلي عن محورية ذاته ، من لم يكن مستعداً لمجازفة تخطي الذات وتخطي المجتمع والكون اللذين تجد فيهما الذات استقرارها وطمأنينتها ، هذا لا يمكنه أن يعرف الله حقيقة ، ولو اعترف به لفظياً . الانسان المعتدّ بنفسه ، النشوان بأفكاره وانجازاته ومعلوماته وممتلكاته ، فردية كانت أو جماعية ، هذا لا يستطيع أن يؤمن حقيقة بالله ، كما ورد في انجيل يوحنا : «كيف يمكنكم أن تؤمنوا ، وأنتم تقبلون المجد بعضكم من بعض ، ولا تبتغون المجد الذي من لدن الأوحد؟»

(يوحنا ٥ : ٤٤). من تعبّد لأهوائه رفض الله ، بالفعل ان لم يكن بالكلام، لئلا يضطر الى الاعتراف بشره، كما ورد ايضاً في الانجيل نفسه: «ان النور قد جاء الى العالم، والناس آثروا الظلمة على النور، لأن اعمالهم كانت شريرة . لأن كل من يفعل الشر يبغض النور، ولا يقبل البتة الى النور لئلا تفضح اعماله، وأما من يعمل الحق، فانه يقبل الى النور لكي يتبين ان اعماله مصنوعة في الله» (يوحنا ٣ : ١٩ - ٢١) .

ج - لأن الله شخص والايمان اعتراف بهذا الوجود الشخصي واتصال به

أخيراً يختلف الايمان عن المعرفة العقلية البحتة ، لأن الله موضوعه ليس فكرة أو معادلة رياضية أو مبدأ خلقياً أو ناموساً فائقاً ، انما هو شخص . الايمان بالله هو أساساً اعتراف بشخص واتصال به ، وذلك ما يتعدى مجرد عملية عقلية ، لأنه يتطلب موقفاً شخصياً ، موقف انفتاح وتقبل . اذا كنت منهمكاً بذاتي ، فالبشر الآخرون حولي يكونون كأنهم غير موجودين بالنسبة إليّ . ذلك انني لا أرى فيهم سوى تلك الصفات التي تمكنني من تصنيفهم وفق مصالحي وحاجاتي : فهذا طيب المعشر ، وذاك ثقيل الظل ، هذا صادق في معاملاته وذاك كذاب ، ملتوٍ ، هذا جميل وذاك قبيح ، هذا خدوم وذاك أناني وهلمّ جرا . . . اما وجودهم الشخصي الفريد ، وجودهم بالنسبة لهم ، لا بالنسبة لي ولمشاريعي ، وجودهم كما يعيشونه من الداخل ، ماذا تعني بالنسبة لهم خصالهم وعيوبهم وما تعبر عنه مما يصبون اليه ومما يعانون منه ، كل ذلك يبقى غريباً عني ، وكأنه غير موجود بالنسبة إليّ . شخص الآخر لا يصبح حاضراً حقيقة في ذهني الا اذا قبلت بأن اتخطى انهماكي بذاتي لأصبح حاضراً لهذا الآخر ، منفتحاً اليه . عند ذاك اصبح بالحقيقة مدركاً لهذا

الوجود الفريد ومتصلاً به بآن ، عند ذاك تقوم بيني وبينه علاقة حقة أخرج بها من ذاتي لألاقيه كما هو ولأشارك وجوده كما يحياه هو .

ولكن ما هو ضروري بالنسبة لعلاقتي بشخص إنساني آخر ضروري بصورة أخص بالنسبة لعلاقتي بالله . فاذا كان تخطي انهماكي بذاتي أساسي لأكتشف حقيقة وجود الآخر البشري، فكم بالحري يصبح هذا التخطي ضرورياً لأكتشف وجود من هو آخر بالكلية ، من يفوق بما لا يقاس أفكاري وتصوراتي ومشاعري ورغائبي . فإذا كنت منهمكاً بذاتي ، وآمالي وأهوائي ، كيف يمكنني أن أتحسس وجود ذاك الذي يعلو على أفكاري ورغائبي كما تعلو السماء عن الأرض على حدّ تعبير أشعياء النبي؟ عند ذاك فقد لا أدرك وجود الله ، أو أعترف بهذا الوجود لفظياً دون أن يكون لهذا الاعتراف أي معنى لحياتي ، أو قد أرى في الله مجرد صورة لما اتمناه أو أرهبه ، أي انني اكوّن لنفسي اصناماً أقيمها عوض الله (مثلاً صورة إله « وظيفته » أن يضمن صحتي ونجاحي وسعادتي ويوفق اموري ويعطيني الغلبة على اعدائي . . .) . اما اذا كان لديّ من الانفتاح ما يمكنّني من التطلع الى خارج حدود ذاتي ، عند ذاك يسعني ان أدرك وجود ذلك الآخر بالكلية الذي هو مصدر وجودي ومرجعه ، عند ذاك يمكنني أن أتصل به وأشاركه وجوده وأدرك أنه ، وهو المتعالي عني كل التعالي ، أقرب إليّ من ذاتي ، لأني به ، وبه وحده ، أجد ذاتي على حقيقتها وأحقق معنى وجودي .

تخطي الذات للاتصال بالانسان الآخر ، تخطي الذات للاتصال بالله : ليس هناك مجرد تشابه بين هاتين العمليتين ، إنما يوجد إرتباط وثيق بينهما . فبقدر ما انفتح الى الآخر البشري، أصبح أكثر استعداداً للاتصال بالله . لذا ربط الرسول يوحنا بين محبة الله (أي الاتصال الصميمي بالله ، الذي لا إيمان حقيقي بدونه) وبين محبة البشر اخوتنا ،

قائلاً : « ان قال أحد : « إني أحب الله » ، وهو يبغض أخاه ، فهو كاذب : فمن لا يحب أخاه وهو يراه ، فلا يستطيع أن يحب الله وهو لا يراه » (١ يوحنا ٤ : ٢٠) . ولذا تدعونا خدمة القداس الالهي ان نحب بعضنا بعضاً لنستطيع الاعتراف بالله الثالوث : « لنحب بعضنا بعضاً لكي ، بعزم متفق ، نعترف مقرين بآب وابن وروح قدس ، ثالوث متساوٍ في الجوهر وغير منفصل » .

* الله يكشف ذاته لنا ، فيجعل الإيمان ممكناً

إذا كان الله ، موضوع الإيمان ، يفوق ، كما رأينا ، كل فكر وتصور وشعور ورغبة ، فهذا يعني أنه لا يمكنني أن أكتشفه من تلقاء ذاتي . ولكن الله يحبني ، ولذا أراد أن يكشف ذاته لي . ذلك أن المحبة تدفع المحب أن يكشف ذاته للمحبوب ، حسب قول الرب : « أنا أحبه وأظهر له ذاتي » (يوحنا ١٤ : ٢١).

لو لم يأخذ الله مبادرة كشف ذاته للإنسان ، لما كان الإيمان ممكناً ، ولكنه آخذ أبداً هذه المبادرة . إنه يخاطب الإنسان ، مظهراً له ذاته ، وداعيا إياه إلى مشاركته حياته ، وذلك بالوسائل التالية :

١ ـ من خلال آثاره في الخليقة وفي قلب الإنسان .

٢ ـ بالوحي الإلهي وتاريخ الخلاص الذي بلغ ذروته بتجسد إبن الله .

تلك هي الطرق التي يسلكها الله ليأتي اليّ ويقرع على باب نفسي ، حتى إذا سمعت صوته وفتحت له قلبي (و « القلب » في لغة الكتاب هو مركز الشخصية ، يلتقي فيه العقل والشعور والإرادة) ،

إختبرته بأعماق كياني حضوراً شخصياً يملأني ويملأ الكون قاطبة ، حضوراً يفوق كل تصوراتي ورغائبي ولكنه ينير العقل ويستقطب الشعور ، حضوراً لا أمتلكه ولكنني به ومنه وله أحيا . هذا هو الإيمان في آخر المطاف .

اسئلة

١ ـ هل الإيمان مجرد تصديق أفكار عن الله ، أم هو أبعد وأعمق من هذا ؟

٢ ـ هل يعقل أن يدرك العقل المحدود الله اللامحدود ؟ ماذا يقول الكتاب المقدس بهذا الصدد ؟ (راجع يوحنا ١ : ١٨ و١ تيموثاوس ٦ : ١٦) .

٣ ـ هل هناك حقائق لا تفرض ذاتها على الإنسان فرضاً ، بل تتطلب منه إنفتاحاً وتقبلاً لها ؟ أذكر بعض هذه الحقائق . لماذا يصح ذلك ، بنوع خاص ، بالنسبة لحقيقة الله ؟

٤ ـ ماذا يقول الإنجيل عن المواقف الشخصية التي تحول دون الإيمان بالله ؟ (راجع يوحنا ٣ : ١٩ ـ ٢١ ويوحنا ٥ : ٤٤)

٥ ـ هل الإعتراف بوجود الشخص الآخر والإتصال به عملية عقلية بحتة ، أم أنهما يتطلبان إتجاهاً إلى الآخر وتخطياً للذات ؟ كيف يصحّ ذلك ، بنوع خاص ، بالنسبة للإيمان بالله ؟

٦ ـ هل من علاقة بين الإنفتاح للبشر والإتصال بالله ؟(راجع ١ يوحنا ٤ : ٢٠)

٧ ـ إذا كان الله يفوق كل فكر وتصور ، فكيف أستطيع أن أؤمن به ؟

٨ ـ ما الذي يدفعني إلى كشف ذاتي لإنسان آخر ؟ لماذا وكيف يظهر الله ذاته لنا؟

٢ ـ الله يكشف نفسه لنا

* الله يكشف ذاته لنا من خلال الخليقة

لقد كتب الرسول بولس : « إن ما قد يُعرف عن الله واضح للناس ، إذ أن الله هو نفسه قد أوضحه لهم . فإن صفاته غير المنظورة ، ولا سيما قدرته الأزلية وألوهته ، تبصر منذ خلق العالم ، مدركة بمبروءاته » (رومية ١ : ١٩ و٢٠) . فالخليقة كلها تحمل أثر الله كما أن التمثال يحمل أثر النحات الذي صنعه . إنها كتاب نقرأ بين سطوره عظمة الله وحكمته وجماله . إنها تهجئة لله تحدثنا عنه وتشير إليه . لهذا انشدت المزامير : « السموات تذيع مجد الله والفلك يخبر بأعمال يديه » (مز ١٨ : ٢) . فلنستعرض بعض آثار الله في الكون وفي الإنسان .

أ ـ إرتباط كل ما في الكون بأسباب

كل ما في هذا الكون مرتبط بأسباب أوجدته . إذاً لا شيء في هذا الكون موجود بحد ذاته ، إذ لولا الأسباب التي أوجدته لما وجد . لا شيء إذاً في الكون موجود بالضرورة ، أو، كما تقول الفلسفة، واجب الوجود . كل ما في الكون ممكن الوجود ، لا يوجد إلاّ بفعل آخر . ولكن ما يصح في جزئيات الكون يصح أيضاً في الكون ككل . ذلك أنه لا يعقل أن يكون كل عنصر من عناصر الكون ممكن الوجود ، أما

مجموعة هذه العناصر فواجبة الوجود . الكون إذا ممكن الوجود لأنه مجموعة عناصر كلها ممكنة الوجود . وإذا كان ممكن الوجود ، فمعناه أنه ليس موجوداً بحد ذاته بل بفعل آخر . إذاً يستدعي الكون سبباً خارجاً عنه . وهذا السبب الخارج عن الكون ندعوه الله . ولنأخذ الآن مثلاً يوضح ما قلناه :

إذا أخذنا حيواناً وتساءلنا : لماذا هذا الحيوان حي ؟ ما سبب إستمراره في الوجود ؟ رأينا أن لذلك أسباباً متعددة منها المواد الغذائية التي تحويها الأطعمة . ولكن إذا تساءلنا من أين تأتي تلك المواد الغذائية التي هي سبب إستمرار الحيوان في الوجود رأينا أن لها بدورها أسباباً . فمثلاً المواد السكّرية ، وهي التي تحرك جسم الحيوان وتولد النشاط فيه ، لا يمكن أن تأتي في النهاية إلا من النباتات . وهنا نتابع تساؤلنا فنفتش عن سبب وجود هذه المواد السكّرية في النباتات ، فيتضح لنا أنها تتكون من إتحاد الكربون بالمواد الكيماوية التي تمتصها النباتات من الأرض بواسطة جذورها . وهنا نتساءل ما هو سبب وجود الكربون في النباتات . فيجيب العلم أنه يأتي من تحليل الحامض الكربوني أو ثاني أوكسيد الكربون الموجود في الهواء . ولكن ما هي علة هذا التحليل ؟ إنه يتم بفعل مادة الكلوروفيل الموجودة في النباتات . ولكن ما هو سبب فاعلية الكلوروفيل على ثاني أوكسيد الكربون ؟ هنا يظهر البحث العلمي أن فاعلية الكلوروفيل ناتجة عن الطاقة التي تستمدها من الشمس . فنتساءل : ما هي علة الطاقة الشمسية هذه ؟ فتجيبنا إحدى النظريات العلمية أنها ناتجة عن تفكيك ذرات الهيدروجين في الشمس . وهنا لا بد للعقل أن يتساءل عن السبب الذي يحدث هذا التفكيك وهذا السبب يستدعي بدوره سبباً آخراً وهلم جراً .

وهكذا حيثما انتقلنا في هذا الكون نجد سلاسل مرتبطة حلقاتها إرتباطاً متيناً . وكأن الكون آلة مركبة من دواليب كثيرة يحرك أحدها الآخر . فكل من هذه الدواليب يستمد حركته من دولاب آخر . غاية العلم أن يكتشف دوماً أسباباً جديدة أي دواليب جديدة وهكذا يفسر لنا الكون ولكن تفسيره ليس بنهائي . لأن السؤال النهائي ليس هو ما هي الدواليب وما هو عددها ولكن ما هو سبب حركة الآلة كلها . ذلك لأنه مهما كثر عدد الدواليب ، وحتى لو افترضنا أن هذا العدد غير متناه ، فهذا لا يمنع أن تكون حركة الآلة مستمدة في النهاية من محرك أول . فإذا ألغينا هذا المحرك الأول توقفت الآلة حتماً لأن الدواليب ، مهما تعددت ، تصبح بدونه عاجزة عن نقل أية حركة .

هذا المصدر الأول الذي تستمد منه كل الأسباب فاعليتها ، كما تستمد الدواليب كلها حركتها من المحرك الأول ، هو الله . وكما أن الآلة تستمد باستمرار وفي كل لحظة حركة دواليبها من المحرك الأول ، هكذا ليس صحيحاً أن الكون استمد وجوده في لحظة معينة من الله ثم أصبح موجوداً بذاته ، ولكنه لا يقوم إلا على الله ، أن وجوده مستمد في كل لحظة ممن هو وحده واجب الوجود .

ب ـ نظام الكون

في الكون نظام وترتيب يبدوان لنا إذا تأملنا مثلاً الفلك والجسم الإنساني أو غرائز الحيوانات . يشير هذا النظام إلى وجود حكمة فائقة تتجلى في الكون وتسيّره .

الفلك

فالنظام الشمسي مثلاً ، المكوّن من الشمس ومن السيارات التي

تدور حولها ، يسير بموجب قواعد رياضية دقيقة بيّنها الفلكي الشهير كيبلر . هذه النواميس لها من الدقة والثبات ما يخول علماء الفلك أن يعينوا بالتدقيق الزمن الذي سوف يحدث فيه خسوف وذلك قبل حصوله بألف سنة .

الجسم الإنساني

ولنأخذ مثلين عن النظام البديع الذي يسود الجسم الإنساني . أولهما إشراف الكبد على نسبة مادة الـ Glucose في الدم . هذه المادة الضرورية للحياة ترد إلى المجرى الدموي بغزارة عند تناول الطعام . ولكن الكبد واقف لها بالمرصاد يلتقطها عند خروجها من الأمعاء كأنه مركز جمركي .فيخزن منها كل ما يفيض عن حاجات الجسم الحاضرة، في خلاياه التي يبلغ عددها أكثر من ثلاثمائة وخمسين ملياراً . هذه الخلايا هي بمثابة مصانع كيماوية نشيطة تحوِّل الـ glucose إلى مادة قابلة للإستهلاك هي الـ glycogène وهذه المؤونة بدورها تحوَّل من جديد إلى glucose وفقاً لإحتياج الجسم وتفرز في المجرى الدموي ، حتى أن نسبة الـ glucose في الدم تبقى ثابتة (بمعدل غرام في الليتر الواحد) طيلة الحياة .

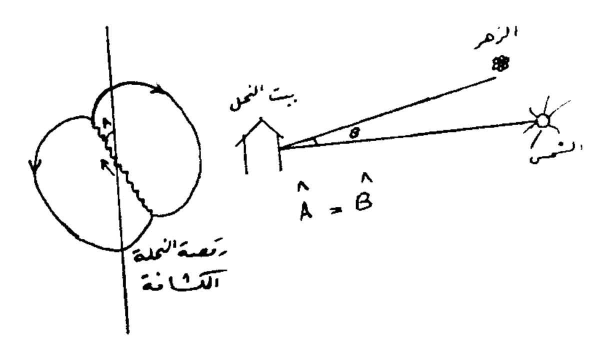
أما المثل الثاني فهو تكوين الجنين . المعلوم أن الجنين لا يبدأ إنساناً صغير الحجم ليس عليه إلا أن يتسع ليصبح ذا حجم أكبر . إنما الجنين يتكون إنطلاقاً من خلية واحدة . . الجسم الإنساني بتعدد أعضائه وأجهزته يخرج من تلك الخلية الواحدة التي لا أعضاء فيها ولا أجهزة . ذلك أن الخلية الأولى في تكاثرها لا توجد عدداً كبيراً من الخلايا وحسب ، إنما تلك الخلايا التي أوجدت تتخصص لتؤلف كل فئة منها

جهازاً من أجهزة الجسم . فالبعض تتخصص لتصبح عظاماً والبعض الآخر عضلات والبعض الآخر دماغاً وأعصاباً والبعض الآخر قلباً وشرايين وهلم جراً . ويرافق هذا التخصص تنسيق بديع بين الأجهزة حتى تؤلف جسماً متماسكاً منسجم الأجزاء ، وكأن العملية كلها موجهة بموجب تصميم رائع . في كتاب « الإنسان هذا المجهول » يقول لنا العالم الكبير الكسي كاريل أن هذا النمو مذهل كما لو رأينا بيتاً يتكون إنطلاقاً من حجر واحد يكوِّن حجارة أخرى عديدة تنتظم جدراناً وغرفاً دون إنتظار تصميم المهندس وتتحول بعضها زجاجاً للنوافذ والبعض الآخر قرميداً للسقف والبعض فحماً للتدفئة والبعض ماءً للمطبخ .

غرائز الحيوانات

غرائز الحيوانات مدهشة خاصة إذا نظرنا إلى الحشرات ورأينا عند تلك الكائنات البدائية تصرفات محكمة تفوق ذكاءها بما لا يقاس . فالنحل يصنع خلاياه من الشمع الذي تفرزه غدده ولكنه يتوصل بغريزته إلى حل مسألة حسابية دقيقة ، ألا وهي : ما هو الشكل الهندسي الذي يجب أن يعطى للخلايا ليتسنى إستغلال المجال والشمع على أكمل وجه ؟ حاول الرياضيون أن يحلّوا هذه المسألة ، فوجدوا أن ثلاثة أشكال هندسية تسمح بأن لا يبقى فراغ بين خلية وأخرى (مما يوفر المجال) وبأن تكون بالتالي أضلاع مشتركة بين الخلايا (مما يوفر المواد).هذه الأشكال الثلاثة هي المثلث والمربع والمسدس الأضلاع . ولكن شكل المسدس الأضلاع هو بين الأشكال الثلاثة الشكل الذي يؤمن المساحة نفسها مع أكبر توفير في المواد . وهكذا وجد النحل بالغريزة ما وجده الرياضيون بجهدهم العقلي . في الغريزة إذاً ترتيب بديع كذلك الترتيب الذي نجده في الفلك وفي جسم الإنسان .

وهناك ظاهرة غريزية بديعة عند النحل إكتشفها حديثاً العالـم الإلماني كارل فون فريتش . فقد لاحظ هذا العالـم أن النحلة الكشافة إذا اكتشفت زهراً أرشدت النحلات جامعات الغلة إلى مكانه بواسطة رقصة خاصة بشكل 8 تؤديها أمامها . وعندما درس تلك الرقصة عن كثب اتضح له أن إنحناء محورها بالنسبة للخط العمودي يعادل إنحناء إتجاه الزهر المكتشف بالنسبة إلى إتجاه الشمس بموجب الرسم التالي :



هكذا فإنحناء محور الرقصة يرشد إلى إتجاه الزهر . أما المسافة التي يبعد بها عن بيت النحل فترشد إليها سرعة الرقصة ، لأن هذه السرعة هي بنسبة معكوسة مع تلك المسافة .

هذا النظام الذي يبدو في مختلف مظاهر الكون ، كيف نفسره ؟ أنقول أنه من المادة ؟ ولكن المادة ـ كما يدرسها العلماء ـ هي مجموعة ذرات وطاقات . فالسؤال هو : ما الذي يوجد في تلك المجموعة نظاماً ، ما الذي يجعل منها كوناً مرتباً ذلك الترتيب المنطقي الذي لولاه لما استطاع العقل أن يفهم الكون ويبني علماً ؟ البيت مؤلف من حجارة ولكن المهم هو : ما الذي رصف الحجارة على شكل بيت ؟ الكتاب مؤلف من حروف ولكن المهم هو : ما الذي رتب الحروف لتؤدي معاني رواية أو

مسرحية أو بحث فلسفي ؟ إننا في رصف الحجارة نرى فكر المهندس وفي ترتيب الحروف نرى فكر المؤلف كذلك في ترتيب الكون نرى فكراً جباراً لا قياس بينه وبين الأفكار البشرية . لذا قال العالم الكبير المعاصر أنشتاين أن كل عالم رصين هو « في حالة ذهول وانخطاف أمام إنسجام نواميس الطبيعة الذي فيه يتجلى عقل فائق بهذا المقدار حتى أن كل أفكار البشر الماهرة وترتيباتها ليست ، إذا قيست به ، سوى إنعكاس تافه بالكلية . . . » (أنشتاين : كيف أرى الكون) . هذا الفكر الجبار هو فكر الله .

ج ـ عطش الإنسان إلى المطلق

ولكن أثر الله يبدو أيضاً في أعماق القلب البشري . إنه يتجلى مثلاً في عطش الإنسان إلى المطلق .

يمكن أن يعرَّف الإنسان بأنه « حيوان قلق » . هذه ميزة أساسية يختلف بها عن سائر الكائنات الحية . فللحيوان رغبات غريزية محدودة ، سهلة الإرضاء ، لذلك ليس في حياته مشاكل . أما الإنسان فكلما حاول إشباع رغباته اشتدت وقويت فيه هذه الرغبات ، وكأن هناك شيئاً في أعماق كيانه يحركه ويعذبه ويوجهه ويدفعه دون هوادة . في الإنسان تباين دائم ، تفاوت مستمر بين ما يرغبه وما يملكه ، بين إرادته ومقدرته ، بين ما يريد أن يكون وما هو عليه . لذلك يندفع دون هوادة لإزالة هذا التباين ولكنه لا يتوصل أبداً إلى هذه الغاية . فكلما حاول أن يقترب من مرغوبه ، ابتعد هذا عنه موقظاً في نفسه الخيبة والحسرة . هذا ما يبدو في الخبرة اليومية وعلى كل الأصعدة . نكتفي بذكر البعض منها :

ـ فالإنسان الساعي إلى مال أو مجد لا يكتفي بما حصل عليه . إنه كلما بلغ مأربه يطمع بالمزيد . ولذا لا يعرف قلبه راحة أو إستقراراً . « عين الإنسان لا تشبع » كما يقول المثل السائر .

ـ ولنأخذ السعي إلى الجمال . أمام منظر طبيعي بديع أو قطعة أدبية رائعة أو لوحة أخاذة أو موسيقى ساحرة ، يشعر الإنسان ، إلى جانب نشوته ، بشيء من الحزن ، ويزداد هذا الحزن بنسبة ما يكون جمال هذا المنظر أو هذا الإنتاج الفني أخاذاً . كيف يفسر هذا الحزن ؟ ذلك أن الجمال الذي أدركناه أيقظ فينا حنيناً لا قدرة لنا على إطفائه ومن هنا نشأ الألم . وما هو صحيح بالنسبة إلى التمتع بالجمال ينطبق أكثر على الفنان الذي ينتجه . فكم من الأدباء والفنانين الخلاقين أفضوا إلينا بالمرارة التي كانوا يشعرون بها عندما كانوا يبدعون تحفة فنية رائعة . عندما كانت تخرج تلك التحفة الرائعة حقاً ، من أيديهم ، كان الألم يحز في نفوسهم لشعورهم بالتفاوت بين ما كانوا يحلمون به وما استطاعوا أن يحققوه .

ـ ولننتقل الآن إلى خبرة الحب . فالحب ، كما هو معلوم ، ينزع إلى تأليه المحبوب . ألا يسمّي المحب الحبيب « معبوده » ؟ إنه إذاً يطلق عليه قيمة لامتناهية وينتظر منه سعادة مطلقة . ولكنه يمنى بالخيبة ، فالمحبوب ، مهما سمت صفاته ، بشر وليس إلهاً ، لذا لا يمكنه أن يقدم لمحبه السعادة الفردوسية التي يحلم بها . لذا دعا الشاعر الفرنسي كلوديل المرأة المحبوبة « وعداً لا يمكن أن يُبر به». وحتى إذا لم يؤله المحبوب ، فالحب يسعى إلى شركة بين الحبيبين تامة وخالدة ، ولكنه يصطدم بالسأم الذي تولده العادة وبالأنانية والموت .

مجمل الكلام أن للانسان المحدود أماني لا محدودة ، ولذلك يعيش في توتر دائم . ولكن ما هو سر هذا التفاوت الصارخ ؟ من أين للإنسان هذا السعي الى اللامتناهي والمطلق فيما لا تقدم له خبرته سوى ما هو محدود ونسبي؟ التفسير الوحيد المرضي لتلك الظاهرة الغريبة هو أن الإنسان المحدود يحمل في ذاته صورة كائن لامحدود ، ويكون هكذا سعيه إلى المطلق تعبيراً عن حنين تلك الصورة إلى أصلها ، وتكون خيباته المتكررة ناتجة عن كونه يخطىء المرمى فيفتش عن المطلق واللامتناهي بين المخلوقات فيما لا يستطيع سوى الله ان يروي عطش قلبه . فكما أن المد يفترض وجود القمر الذي يجتذب إليه مياه البحر ، ولو كان القمر مختفياً وراء السحب ، كذلك مد النفوس في سعيها المتواصل الى المطلق يستقطبه الله ولو احتجب الله عن نظرنا وإدراكنا : « يا رب لقد خلقتنا متجهين إليك ولذلك لن تجد قلوبنا راحة إلا إذا استقرت فيك » (أوغسطين المغبوط) .

* الله يكشف ذاته لنا بالوحي الإلهي

لكن الله شاء أن يكشف لنا ذاته بشكل أوضح وأكمل من تهجئة الخليقة له . لذلك شاء أن يحدثنا عن ذاته :

أ ـ بواسطة حوادث الخلاص التي ترويها لنا الكتب المقدسة الموحاة منه والتي يظهر لنا فيها كيف خلق الله الإنسان واعتنى به وكيف هيأ الله إفتداء الإنسان بتهيئته للشعب اليهودي وعنايته الخاصة به وتربيته له وكيف تمم الخلاص أخيراً بتجسده والحوادث التي تبعته من بشارة وموت وقيامة وصعود إلى السماء وإرسال الروح القدس .

ب ـ بواسطة رجال إختارهم ليحدثوا الناس عنه ، فكشف لهم

ذاته لكي ينبئوا الناس عنه وعن حبه و إرادته ، ولذا دعوا أنبياء ، ليس فقط لأنهم تنبأوا بما سوف يحدث وخاصة عن المخلص المنتظر ، ولكن خاصة لأنهم أنبأوا البشر بقوة وحرارة عن الله وما تنتظر محبته من الناس .

ج ـ وخاصة بواسطة الإبن المتجسد : « بعد أن كلم الله الآباء بالأنبياء كلمنا أخيراً بإبنه » (الرسالة إلى العبرانيين ١ : ١). أحبنا الله إلى حد أنه أراد أن يعيش بيننا ، كواحد منا ، وأن يجعل نفسه منظوراً وملموساً منا في الإبن المتجسد . وهكذا نلنا أعظم وأكمل إعلان عن الله لأن « لا أحد يعرف الآب إلا الابن » والإبن نفسه حدثنا عن الآب وعن نفسه وعن الروح وكشف لنا أن الله ثالوث وأدخلنا الى سر حياة الثالوث .

د ـ ومن خلال المسيح بواسطة الروح القدس في الكنيسة . كل هذا الوحي الإلهي حفظ في الكنيسة التي أسسها الرب يسوع لتنقل إلينا بأمانة ما أوحى الله به وتفسره حسب رأي الله بإلهام الروح القدس الساكن فيها لأن «كما أن لا أحد يعرف ما في الإنسان إلا روح الإنسان الساكنة فيه هكذا لا يعرف أحد الله إلا روح الله».



أسئلـــة

١ ـ كيف يكشف لنا الله نفسه في الطبيعة ؟

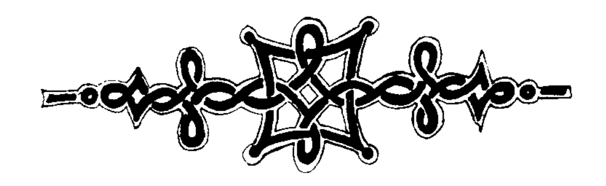
٢ ـ كيف يقودنا الى الله ، إرتباط كل ما في الكون بأسباب؟

٣ ـ هل تعرف مثلاً عن النظام الذي يسود في الكون : مأخوذاً من الفلك ؟ مأخوذاً من الجسم الإنساني ؟ مأخوذاً من غرائز الحيوانات ؟

٤ ـ كيف يقودنا هذا النظام الى الله ؟

٥ ـ هل تعرف معنى المثل الشعبي : « إن عين الإنسان لا تشبع »؟ هل هنالك أمثلة في حياتك أنت وحياة الناس عامة تثبت حقيقة هذا المثل ؟ إلى ماذا يشير هذا التفاوت بين محدودية الإنسان وأمانيه اللامحدودة ؟

٦ ـ كيف يكشف الله لنا ذاته في الكتاب المقدس ؟ في حوادث هذا الكتاب؟ في أقوال الأنبياء؟ في الرب يسوع؟ في الكنيسة؟



ملحق

حين يجد الإنسان نفسه على شفير الموت ، قد يشعر ، أكثر مما في أي وقت آخر ، بمحدودية كيانه ، وإن كيانه هذا ، وبالتالي كيان جميع المخلوقات ، إنما هو مستمد من آخر . في تلك اللحظات التي يحس فيها الإنسان أن الوجود يفلت منه ، قد يختبر بقوة أن هذا الوجـود ، وكل وجود ، ليس قائماً بذاته ، إنما هو قائم فقط بإرادة آخر . لذا فقد تكون هذه اللحظات مناسبة للتوجه إلى الله أو لتقـوية الصلـة به . وفيما يلي شهادتان على ذلك :

١ ـ النص الأول وجد ، في إحدى ساحات قتال الحرب الأخيرة ، على جثة أحد الجنود ، وقد كتبه في ليلة معركة لقي فيها حتفه . وكان النص موقعاً.Pv t. J.J.V.

« إسمع يا إلهي، إنني لم أكلمك قط قبل الآن،
ولكنني اليوم أريد أن أقول لك: «كيف حالك؟» .
لقد قيل لي أنك غير موجود،
وأنا عندئذ ، كأبله ، صدقت ذلك .

في الليلة الماضية ، من حفرة القنبلة التي كنت فيهـا ، كنـت أرى سماءك،
لذلك تحققت جيداً أنهم كذبوا عليّ.

لو كلفت نفسي أن أرى كل ما صنعت،
لكنت فهمت أنه لا يمكن أن ينكر وجودك .

أتساءل إن كنت تقبل أن تصافحني .
على كل أشعر أنك ستفهمني .
إنه لمؤسف أن أكون قد أتيت إلى هذا المكان الجهنمي
قبل أن يتيسر لي الوقت الكافي لأعرف وجهك .
لعمري ، أفكر أنه لم يبق لي شيء كثير أقوله،
لكنني سعيد لأنني صادفتك هذا المساء يا إلهي .
أعتقد أن الساعة ستأتي قريباً .
لكني لا أخشى منذ شعرت أنك قريب بهذا المقدار .

ها هي الإشارة ! يجب أن أذهب يا ألهي !
إنني أحبك كثيراً وأريد أن تعرف ذلك .
أنظر ، سوف تحدث معركة هائلة،
ومن يدري ، يمكن أن آتي إليك في هذه الليلة !
رغم أن علاقاتي السابقة معك لم تكن حسنة ،
أتساءل إن كنت ستنتظرني على عتبة بابك .
أنظر إنني أبكي ! غريب أن أذرف أنا دموعاً !
آه ليتني تعرفت إليك قبل الآن بكثير !

آه ، يجب أن أذهب الآن : الوداع . . .
أمر غريب ! منذ أن تعرفت إليك لم أعد أخاف الموت » .

٢ ـ أما النص الثاني فهو مقطع من رسالة كتبها الكاتب الروسي الشهير بوريس باسترناك، مؤلف كتاب: «الدكتور جيفاغو» والحاصل على جائزة نوبل، يصف فيها لأحد أصدقائه أول ليلة قضاها في

المستشفى إثر نوبة قلبية كادت تودي بحياته :

« في تلك اللحظة التي كانت تبدو لي آخر لحظات حياتي ، كنت أريد ، بأكثر قوة مما مضى ، أن أخاطب الله وأقول له : يا رب ، أشكرك لأنك جعلت حياتي وموتي على هذا المنوال ، لأن صوتك جليل بهذا المقدار ، لأنك جعلت مني فناناً مبدعاً تعلم في مدرستك أنت ، لأنك هيأتني طيلة حياتي لإستقبال هذه الليلة . لقد كنت سعيداً إلى حد أنني بكيت » .

بوريس باسترناك



٣ ـ الايمان والحياة

* الإستعدادات الضرورية لإقتبال كشف الله

كشف الله عن نفسه لي هو كشف شخص لشخص ، كشف شخص الله غير المحدود لشخصي المحدود ، وهذا الكشف لا يتم إلا في لقاء حبي بين الله وبيني . واللقاء يتطلب أن يسعى الشخصان أحدهما إلى الآخر . الله يسعى دوماً إليّ لأنه يحبني، ولكنه لا يكرهني على أن أسعى إليه لأنه يحترم حريتي . وكما أن الإنسان إذا أغلق قلبه دون إنسان آخر ، لا يستطيع أن يفهمه ولا يحس حقيقة بوجوده ، هكذا بالحري الإنسان الذي يعظم نفسه ويكتفي بذاته ، لا يمكنه أن يعرف الله .

إذاً لا يكفي ان يفتش الإنسان بعقله عن الله ليجده ، إنما يطلب منه أن يكون قلبه مستعداً للقاء الله . يقول الرب يسوع : « طوبى لأنقياء القلوب لأنهم يعاينون الله » (متى ٥ : ٨). والنقي القلب هو الذي لا غش فيه أي الإنسان المستقيم ، المخلص ، الذي يسعى إلى الحقيقة بكل جوارحه والمستعد إلى إقتبال الحقيقة ولو كانت تخالف كبرياءه وأهواءه . هذا الإنسان مستعد قلبه للقاء الله .

كثيرون يعتقدون بأنهم يعرفون الله لأنهم يرددون كلمات عنه . ليست هذه سوى معرفة سطحية لا قيمة لها. المعرفة الحقيقية لله لا تتم

إلاّ في لقاء حبي يكشف فيه الله ذاته لي . معرفة الله في الإنجيل تعني محبة الله . «اعرف الله» معناه أحبه ، لأن معرفة الله لا تتم خارج محبة الله : «إن أحبني أحد ، يحبه أبي وأنا أحبه وأكشف له ذاتي» (يو ١٤ : ٢١) . لذلك يقول آباء الكنيسة ان اللاهوتي هو الإنسان الذي يصلي . -إذاً أعلى شهادة في اللاهوت لا تكفي وحدها لمعرفة الله . المسيحي البسيط الذي يصلي حقيقة أي يناجي الله ويرفع إليه روحه يعرف الله أكثر من لاهوتي كبير لا يصلي بل يكتفي برصف كلام بديع عن الله . لذا كتب القديس غريغوريوس النزينزي : «الحديث عن الله عظيم ، ولكن الأفضل أن نطهر ذواتنا لله» .

* الإيمان لا يكتمل إلاّ بالحياة

كما أن معرفة الله لا تتم إلا بالاتصال الحياتي به ، هكذا الإيمان لا يكتمل إلاّ بالحياة . لا يعتبر مؤمنا ذاك الذي يعترف بوجود الله ولكنه يتصرف كأن الله غير موجود . المؤمن ليس ذلك الذي ينادي بفكرة الله ، إنما هو الذي يقبل الله إلهاً له أي محوراً لكيانه كله وموجهاً ومسيراً لحياته كلها . بهذا المعنى يقول الله عن الذين سوف يقبلونه « سأكون لهم إلهاً » (حزقيال ١١ : ٢٠). إنه موضوعياً إلههم منذ الأزل ، شاؤوا أم أبوا ، إنما يصبح حياتياً إلههم عندما يسلمون إليه حياتهم كلها . إبراهيم اعتبر أبا المؤمنين ليس لأنه اعتقد بالإله الواحد وسط شعب وثني وحسب بل لأنه أسلم حياته لله ، فقبل أن يتخلى عن أهله وعشيرته وبيئته ومصالحه وعوائده ، وأن يخرج متجهاً إلى مكان مجهول أعده الله له .

جوهر الإيمان إذاً أن يصبح الله إلهي أي المرجع المطلق لكل

أموري وأن أطيعه ليس فقط في تصرفاتي الخارجية بل وفي أفكاري ورغباتي .

هذا ما تعنيه كلمة « أرثوذكسية ». إنها تعني في آن واحد « الإعتقاد المستقيم » و « التمجيد المستقيم »، وبهذا تعلمنا أن الإعتقاد المستقيم لا يكتمل إلا بتمجيد مستقيم، تمجيد الله بحياتنا كلها. «إن أكلتم وإن شربتم ومهما عملتم فاعملوا كل شيء لمجد الله » (١ كو ١٠ : ٣١)، « مجدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله » (اكو ٦ : ٢٠) . بهذا المعنى أيضاً يقول فيلاريتوس مطران موسكو « لن يكون دِستور الإيمان لكم إلاّ إذا عشتموه ».



أسئلة

١ ـ ما هي الإستعدادات الضرورية لإقتبال كشف الله لنا ؟ (أنظر مثلاً متى ٥ : ٨).

٢ ـ هل يكتمل الإيمان بدون الحياة ؟ هل يعتبر مؤمناً ذاك الذي يعتقد بالله ولكنه يعيش كأن الله غير موجود ؟ هل اعتبر إبراهيم أباً للمؤمنين لأنه اعتقد بالله وحسب ؟

٤ ـ الإيمان والعلم

هل من تناقض بين الإيمان والعلم ؟

هذا ما يدّعيه الكثيرون من دعاة الإلحاد . ولكن هذا الإعتقاد خاطىء من الأساس .

أ ـ **لأن العلم والإيمان يعملان على صعيدين مختلفين**. فالعلم يهتم بربط حوادث الكون بعضها ببعض ولكنه لا يبحث في ما هو أبعد من ذلك أي أصل الكون والإنسان ومصيرهما ومعنى وجودهما لأن ذلك خارج عن نطاقه . فالعلم مثلاً يصف لنا تطور الحياة من أبسط الكائنات حتى الإنسان ولكنه لا يبحث في أصل المادة التي تطورت وفي موجّه هذا التطور وفي غايته . أما الإيمان فيعلمنا أن الله أوجد المادة ووجه تطورها وإن نماية التطور إيجاد كائن على صورة الله ، هو الإنسان ، معد للإشتراك في حياة الله نفسها . فالعلم الذي ينادي بالتطور لا يخالف بذلك الإيمان والإيمان الذي يرى في التطور خطة من خطط الله لا يخالف العلم .

ب ـ **لأن معظم بناة العلم الحديث كانوا مؤمنين**، ولنذكر على سبيل المثل نيوتن الذي كان يرفع قبعته إجلالاً كلما ذكر إسم الله ، وكيبلر وفاراداي وباستور، وأمبير الذي كان يردد أمام صديقه أوزانام :« ما

أعظم الله». ولنذكر بين المعاصرين أديغنتون وماكس بلانك ولويس لبرنس رنغيه من اعظم علماء الذرة. ولنذكر ايضاً كاهنين يعتبران من أقطاب العلم الحديث: الأب جورج لوميتر صاحب نظرية مشهورة في نشوء الكون هي نظرية التمدد الكوني، والأب بيار تيار دي شردان من أعظم العلماء والمفكرين المعاصرين وهو أخصائي كبير في علم التطور نادى في مؤلفاته بأن التطور لا يفهم إلا إذا اعتبرنا الله ألفه وياءه. كل هؤلاء كان علمهم مدعاة لتغذية إيمانهم بالله لأنهم تطلعوا بالعلم إلى عجائب الكون فرأوا فيها يد الله: «ما أعظم أعمالك يا رب، كلها بحكمة صنعت». (مز ١٠٣ : ٢٤).

ج ـ لأن الإختراعات البشرية الحديثة وسيطرة البشر المتزايدة على الطبيعة لا تنفي كما يدّعي البعض سلطة الله، إنما هي بالأحرى إشارة إلى هذه السلطة. وذلك لأن ما يخول الإنسان ـ وهو جزء من الطبيعة ـ أن يدرك مكنونات الطبيعة ويسيطر على طاقاتها بهذا المقدار العجيب، هو كون الله قد خلقه على صورته وجعله مشاركاً له إلى حد ما في سلطته على الكون: «أنميا وأكثرا واملأا الأرض وتسلطا عليها». فسلطة الإنسان على الكون مستمدة من سلطة الله، لذا يجب أن تقوده ليس إلى الإنتفاخ والتبجح بل إلى التسبيح والشكر لمن وهبه إياها حباً. هذا ما تفعله الكنيسة في كل قداس إلهي عندما ترفع إلى الله كذبيحة شكر الخبز والخمر اللذين يمثلان ليس فقط الطبيعة ولكن الصناعة البشرية كلها التي بواسطتها تمكن الإنسان من إخراج النبات من الأرض وتحويل القمح والعنب إلى خبز وخمر، فيقبل الآب كل ذلك محّولاً اياه إلى جسد إبنه.

أسئلـــة

هل من تناقض بين الإيمان والعلم؟ هل صحيح أن صعود الإنسـان إلى القمـر أو إرساله صواريخ إلى الفضاء يناقضان سلطة الله ؟ أليست سلطة الإنسان على الكون مستمدة بالأحرى من سلطة الله؟ (أنظر تكوين ١ : ٢٨).



ملحق

١ ـ شهادة إثنين من بناة العلم الحديث

ـ «شاهدت الله في أعماله وفي نواميس الطبيعة التي تثبت أن هناك حكمة وقوة مستقلتين عن المادة» (نيوتن، **فلكي ورياضي إنكليزي يعتبر من أعظم العلماء الذين برزوا في تاريخ العلم**).

ـ « أيها الخالق . أباركك لأنك سمحت لي أن أعجب بأعمالك . لقد أتممت رسالة حياتي بالعقل الذي أنت وهبتنيه . أذعت للعالم مجد أعمالك . فإذا كنت بأعمالي التي كان يجب أن تتجه نحوك طلبت مجد الناس فاعف عني لصلاحك وحنوك . أيتها الإنسجامات السماوية باركي الرب . يا نفسي باركي الرب ».

(كيلبر ـ فلكي ورياضي الماني ـ لقب بمشترع السماء)

٢ ـ شهادة فيزيائي كبير معاصر : Louis Leprince- Ringuet

ولد سنة ١٩٠١ .

في سنة **١٩٤٩** اصبح عضوا في اكاديمية العلوم.

في سنة **١٩٥٩** أصبح أستاذاً للفيزياء النووية في College de France.

وفي سنة **١٩٦٤** أصبح رئيساً للمركز الأوروبي للأبحاث النووية

في جنيف .

وفي سنة ١٩٦٦ انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية .

إختصاصي كبير في دراسة الجزئيات ذات الطاقة الكبرى .

بمناسبة إنتخابه لعضوية الأكاديمية الفرنسية ، كتب عنه Francois Russo:

« إن لويس لوبرنس رنغيه مسيحي مقتنع ومجاهد ! يعيش إيمانه كاملاً في كل وجوده وفي كل أعماله ولم يغلق عليه في زاوية منفصلة وخفية من حياته . كل الذين يعاشرونه ـ مع العلم أن علاقاته تشمل كل علماء الفيزياء في العالم ـ يعرفون ما هي إعتقاداته . . وإلى جانب نشاطاته المهنية ، أراد لوبرنس رنغيه أن يكرس جزءا كبيراً من وقته الحر لرسالة أصيلة في الأوساط العلمية وخاصة بدعم عمل الإتحاد الكاثوليكي للعلماء الفرنسيين . . . لقدكان رئيسا لهذا الاتحاد منذ تأسيسه سنة ١٩٤٦ وحتى السنة الماضية. وكان في مهمته هذه كثير النشاط، مواظباً على كل إجتماعات مجلس الإتحاد ولجنته الإدارية . . وبفضله إلى حد كبير تمكن الإتحاد هذا في فرنسا أن يؤكد بمجموعته، التي تضم عدداً كبيراً من أعضاء أكاديمية العلوم إلى جانب الباحثين الشباب، ان الإخلاص للإيمان والإخلاص للعلم يتوافقان كلياً، وأكثر من ذلك أن جمع هذين الإخلاصين في وحدة حياة شخصية يغني الإنسان وينمي شخصيته بشكل مرموق. وبفضله أيضاً إلى حد كبير أقيم حوار مثمر بين العلماء المسيحيين والعلماء غير المؤمنين . . . »

Francois Russo in Ecclesia , No 211, octobre 1966.

٣ ـ شهادة جرّاح كبير معاصر وأسقف : رئيس الأساقفة لوقا .

إن بعض أقطاب العلم في القرون الماضية وفي عصرنا هذا كانوا رجالاً مكرسين لله في الكهنوت أو الرهبنة . فكوبرنيك الذي أحدث إنقلاباً في المفاهيم الفلكية باعتباره الشمس لا الأرض مركزاً للنظام الشمسي ، كان راهباً المانياً . ومانديل الذي اكتشف قوانين الوراثة وأسس علم الوراثة الحديث كان راهباً تشيكوسلوفاكياً . وقد ذكرنا آنفاً عالمين معاصرين شهيرين كلاهما من رجال الدين : الأب جورج لوميتر البلجيكي والأب بيار تيار دي شاردين الفرنسي . وسنذكر الآن رجلاً جمع في شخصه العلم الفذ والأسقفية ، رئيس الأساقفة لوقا الروسي الأرثوذكسي (وهو الأستاذ الجراح الشهير الدكتور فوينويا سنتسكي الحائز على جائزة ستالين والمذكور في الموسوعة الطبية السوفياتية الكبرى) :

ـ ولد سنة ١٨٧٧ .

ـ صار دكتوراً في الطب سنة ١٩٠٣.

ـ سنة ١٩٢١ ، في طشقند حيث كان أستاذاً في كلية الطب ، شرطن قساً وترهب .

ـ شرطن أسقفاً سنة ١٩٢٣ .

ـ لم يدع مزاولة الطب والجراحة بعد ذلك وقد برع فيهما حتى استحق جائزة ستالين عام ١٩٤٦ وذكر إسمه في الموسوعة الطبية السوفياتية الكبرى .

ـ في الحرب الأخيرة ، أثناء رعايته لأبرشية كراسنويارسك كان

يدير مستشفيات المدينة .

- بين ١٩٤٤ و ١٩٤٥ رئس كرسي تمبوف .

- سنة ١٩٤٦ عين رئيس أساقفة على سيمفيروبول .

- إشتهر بمواعظه ولم ينفك حتى آخر رمق من حياته يرعى صحة الناس الروحية والجسدية .

وفيما يلي مقطع من خطاب ألقاه سنة ١٩٥٧ في ذكرى ميلاده الثمانين :

« . . . إنما أريد أن أحدثكم عن جلائل أعمال الله التي ظهرت في حياتي . وقد علمت أن كثيرين يتساءلون كيف . . . بعد أن أدركت شهرة العلماء ، استطعت الانصراف إلى التبشيير بإنجيل المسيح . إن من يفكر على هذا النحو يرتكب خطأ كبيراً ، فهو يفترض أنه لا يمكن التوفيق بين العلم والدين . ومن كان على هذا الرأي ، فهو في ضلال مبين. فإن شواهد تاريخ العلوم تدلنا على أن عباقرة العلماء أمثال غاليلي ونيوتن وكوبرنيك وباستور، والفيسيولوجي الروسي بافلوف، كانوا متدينين تديناً عميقاً. كما أني أعرف أن بين أساتذة الجامعات من معاصرينا كثيرين ممن يؤمنون، فالبعض منهم يسألونني البركة» .

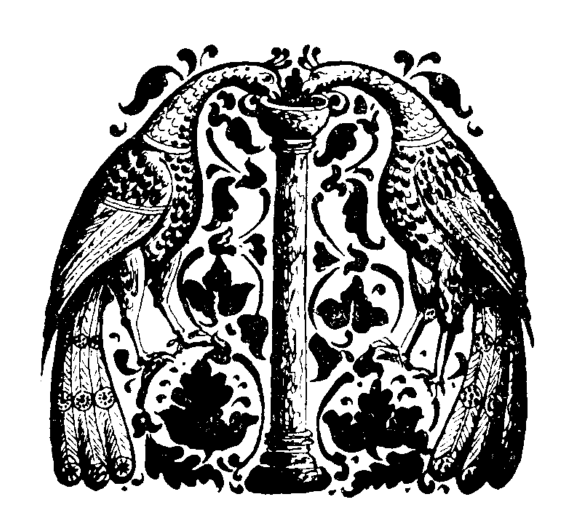
رئيس الأساقفة لوقا

حامل جائزة ستالين في الجراحة .

الفصل الثالث

الخلق والسقوط

«. . . خالق السماء والأرض كل ما يرى وما لا يرى . . .»



١ ـ الخلق والتطور

يقول الكتاب : « في البدء خلق الله السماء والأرض» (تكوين ١ : ١). تلك هي عقيدة الخلق التي بموجبها نقر أن كل الموجودات قائمة في الوجود بإرادة الله وبإرادته فقط ، ومستمدة منه وجودها . هذا ما نعبّر عنه في دستور الايمان بقولنا : « أؤمن بإله واحد ، آب ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى » .

* رواية الخلق في سفر التكوين ونظرية التطور

عندما يصف لنا سفر التكوين عملية الخلق ، في فصله الأول ، فإنه يصور لنا الكائنات وكأن كلاً منها أو كل نوع منها قد أوجده الله بشكله الحاضر مباشرة . ولكن نظرة كهذه تتعارض مع نظرية التطور التي يتفق عليها معظم العلماء المعاصرين والتي أصبحت شبه مؤكدة بالإستناد إلى العديد من البراهين . وهنا ينشأ تساؤل عند الكثيرين : كيف يمكن التوفيق بين الوحي الإلهي ومعطيات العلم ؟

للجواب عن هذا السؤال الوجيه ، ينبغي أن نتذكر ، باديء ذي بدء ، أن الكتاب المقدس كتاب إيمان لا كتاب علم ، همه أن يكشف لنا علاقة الله بمخلوقاته ، وبنوع خاص بالإنسان ، لا أن يقدم لنا وصفاً علمياً لتاريخ الكون . لذا فعندما يصف سفر التكوين الخلق في فصله الأول ، فإن الوحي الإلهي ينسكب فيه في قوالب بشرية ، هي التقاليد

التي كانت شائعة في المكان والزمان الذي ظهر فيه هذا الفصل (في القرن الخامس أو السادس قبل الميلاد) . ولا قيمة إذاً لتلك القوالب بحد ذاتها ، إنما قيمتها في المعاني الروحية التي تتجلى من خلالها ، تلك المعاني التي تلخص بأن الكائنات كلها تستمد من الله الواحد وجودها وترتيبها . هذا ما فهمه آباء الكنيسة اليونانيون خمسة عشر قرناً قبل ظهور النقد الكتابي الحديث ، ففسروا رواية الخلق في سفر التكوين تفسيراً رمزياً أكثر منه حرفياً .

نستنتج مما سبق أن إيماننا بالخلق ليس رهناً بالقالب الحضاري الذي سكب فيه الإعلان الإلهي عن الخلق في سفر التكوين ، وأنه يمكننا أن نعبّر عنه بالقوالب الفكرية التي يتميز بها عصرنا ومن جملتها نظرية التطور . هذا ما سنحاول أن نبينه ، مذكرين أولا باختصار بمراحل التطور كما يصفها العلم الحديث ثم متعرضين لما يقتضيه واقع التطور من تعليل أخير على ضوء العقل والإيمان .

* مراحل التطور

لقد أثبت العلم الحديث أن التطور لم يشمل الكائنات الحية فحسب ، إنما هو ملازم لتاريخ الكون برمته . فالكون الذي ننتمي إليه كون متطور ، وقد بدأ تطوره على مستوى الطبيعة الجامدة حتى أدى الى ظهور الحياة التي تطورت بدورها حتى أبرزت ذلك الحيوان المفكر ، الإنسان .

أ ـ تطور المادة : إن النظرية المرجحة اليوم بين العلماء تقول بأن الكون ، في حالته الحاضرة ، قد بدأ منذ مدة تتراوح بين العشرة مليارات والخمسة عشر ملياراً من السنين ، وأنه كان في البداية مؤلفاً من سحب

من ذرات الهيدروجين (وهي أبسط الذرات وأخفها) تسبح في الفضاء . إنطلاقاً من تلك السحب تكونت الكواكب ، ونشأت فيها بفعل الحرارة الهائلة تفاعلات نووية حولت ذرات الهيدروجين إلى ذرات أثقل من الهيليوم ، وهذه بدورها إلى ذرات أثقل من الكربون ، وهلم جراً . هكذا تكثفت المادة تدريجياً بظهور ذرات تجمع عدداً أكبر فأكبر من الجسيمات في نظام شبيه بالنظام الشمسي تدور فيه الإلكترونات حول نواة مؤلفة من البروتونات والنترونات ، إلى أن تكوّن ، في قلب الكواكب ، الإثنا وتسعون نوعاً من الذرات الموجودة في الطبيعة .

ولما تكونت أرضنا ، منذ حوالي أربعة مليارات ونصف من السنين وانخفضت تدريجياً درجة الحرارة فيها ، أمكن للذرات أن تتفاعل لتتكون منها مجموعات أكثر كثافة ، ألا وهي الجزئيات . فالذرة عالم صغير ، أما الجزئية فأنها تجمع تلك العوالم الصغيرة لتشملها في بنية جديدة .

ولكن عملية تكثيف المادة لم تقف عند هذا الحد . فمنذ ثلاثة مليارات من السنين على وجه التقريب ، بدأت الجزئيات تتحول ، على الأرجح بفعل عوامل كالأشعة فوق البنفسجية الصادرة من الشمس والتفريغات الكهربائية أثناء العواصف وما شابه ذلك . فتكونت بنى تفوق الجزئيات العادية كثافة ، ألا وهي **الجزئيات العضوية** التي تؤلف بين الجزئيات العادية فتجمعها في وحدات ضخمة ، معقدة الترتيب ، كالسكّريات والحوامض الأمينية والهيوليات protides وغيرها .

ب ـ **قفزة الحياة** : تجمعت تلك الجزئيات العضوية في مياه البحار الساخنة . وكان تجمعها هذا تمهيداً لحدث بالغ الأهمية ، لا يزال الغموض يكتنف ظروفه إلى الآن ، حدث منذ ملياري عام على وجه

التقريب ، فغيّر وجه الكون ، ألا وهـو بروز **الخلية الحية** . إن حركة التكثيف المنظم ، التي رأيناها تدفع المادة منذ نشأتها ، بلغت هنا درجة فائقة . فالخلية الحية تؤلف بـين جزئيات عديدة ضخمـة من الهيوليات والشحميات والسكريات والفيتامينات وغيرها ، في وحدة متماسـكة ، مركزة أروع تركيز ، يتناسق فيها حوالي مليار من الجزئيات . ولكن الأمر المدهش هو خاصة في كون هذا التعقيد الفائق قد أدى إلى ظهور نمـط جديد من الوجود ، يختلف نوعياً بشكل جذري عن وجود الجوامد ، ألا وهو الحياة . فالخلية الحية تتمتع بميزات جديدة بالكلية : فهي تحوّل إلى موادها الذاتية المواد التي تستمدها من الخارج ، وتجدد باستمرار العناصر التي تتألف منها مع المحافظة على بنيتها، وتنمو من الداخل، وتصلـح ذاتها إذا عطبت، وتتكيف مع البيئة، وتتكاثـر منتجـة كائنـات جديدة شبيهة بها. تلك هي قفزة الحياة.

ج ـ **تطور الحياة** : من ذلك العالـم ، الصغير في حجمه ، الهائل في تعقيده وتركيزه ، انطلقت الحياة لترقـى سلماً طويلـة كان الإنسـان قمتها . وفي ترقيها هذا ، تابعت الحياة السير في الطريق التي رأينا المادة تسلكها ، ألا وهي طريق التعقيد المتزايد . فبعد الكائنات الحية الأولى ذات الخلية الواحدة ، ظهرت **كائنات تؤلف بين خلايا متعددة** في وحدة منسجمة تعمل فيها العناصر كلها لخدمة المجموع . وقد ازداد التعقيد بشكل ملحوظ عندما أخذت مجموعـات من الخـلايا ، ضمـن الكائـن الواحد ، تتخصص للقيام بوظيفة معينة ، فتكونت **الأجهزة** (كالجهاز الدموي والهضمي والتنفسي . . .) وعملت بإنسجـام وترابـط لصالـح الجسم ككل .

وكان لا بد من جهاز يربط بين تلك الوظائف من جهة ، وبينها

وبين العالم الخارجي من جهة أخرى ، فبرز **الجهاز العصبي** وتطور تدريجياً نحو تكثيف وتركيز متزايدين ، مما أدى إلى **نمو الدماغ** كمركز أساسي للجهاز العصبي ، وإلى سيطرته التدريجية على المراكز العصبية الأخرى . وبتطور الجهاز العصبي على هذا المنوال نمت قدرة الكائنات الحية على التكيف مع بيئتها ، فازدادت الغرائز إتقانا وبرز الذكاء وتزايدت حدته الى أن بلغت أوجها في أعلى مراتب القردة ، كالشمبانزي مثلاً ، التي بلغ دماغها درجة ملحوظة من النمو .

ذلك الترقي في سلم الكائنات الحية كان يتم ، كما بيّن داروين وأوضح العلم الحديث ، بواسطة تبديلات كانت تحصل من وقت إلى آخر في الميزات الوراثية التي تحملها الخلايا التناسلية (وهذا ما يسمى « بالتِغيارات الإحيائية » (mutations)، فتظهر عند الحيوان المنحدر من خلية من هذا النوع صفات جديدة . وقد تخدمه هذه الصفات في الصراع من اجل البقاء ، فيعمر وينقل صفاته الجديدة بالوراثة الى نسله ، فيثبت هذا في الوجود ويتكاثر . أو قد تعيقه في هذا الصراع ، فيزول هو أو نسله ، وتزول معه صفاته (هذا ما يدعى « الإصطفاء الطبيعي ») . وهكذا بتراكم « التِغْيارات الإحيائية » نشأت شيئاً فشيئاً أنواع جديدة انتظمت في هذا الخط التصاعدي الذي سبق وأوجزناه .

د ـ **قفزة الفكر** : إن عملية نمو الدماغ ، التي أصبحت المحور الأساسي لحركة التعقيد المتزايد التي يتميز بها التطور ، بلغت ذروتها في الإنسان الذي يتألف دماغه من حوالي أربعة عشر ملياراً من الخلايا (أربعة أضعاف خلايا الشمبانزي تقريباً) ، مرتبطة بعضها ببعض وبخلايا المراكز العصبية الدنيا ، على صورة شبكة الكترونية هائلة التعقيد . هكذا تأمنت الشروط اللازمة لقفزة لا تقل أهمية عن تلك

التي حققتها الحياة ، ألا وهي قفزة الفكر . تلك القفزة ، التي تمت على مراحل منذ حوالي مليون سنة ، أوجدت نمطاً جديداً بالكلية من الوجود ، وهو الوجود الإنساني ، وجود كائن يتميز عن سائر الكائنات الحية بكونه ، وحده ، يعي ذاته ويعي الكون كمتميز عن ذاته ، ولذا لم يعد ، كالحيوان ، أسير أحاسيسه ودوافعه الغريزية ، إنما أصبح كائناً ذا فكر وحرية ، يدرك التطور ومكانه فيه ويأخذ على عاتقه مسؤولية متابعته بوعيه وعمله الخلاق .

* التطور في تعليله الأخير ومعناه

إن العلم يثبت واقع التطور ، كما أنه يوضح العوامل التي تفسر مراحله المختلفة . لقد توصل إلى إكتشاف العديد من تلك العوامل ـ وقد نوهنا ببعضها ـ وسيتوصل بلا شك ، بفضل جهود العلماء المتضافرة ، إلى إلقاء المزيد من الأضواء على النقاط التي لا يزال يكتنفها الغموض ، فتتوضح أكثر فأكثر .

ولكن ، إلى جانب التساؤلات التي يترتب على العلم ان يجيب عنها ، فهناك تساؤلات من نوع آخر ، لا تدخل في نطاق العلم لأنها تطرح من منظار يختلف عن منظاره . فعندما يقول العلم بالتطور ، يصف خطاً تصاعدياً ، ويظهر كيف سلكت مادة الكون هذا الخط . ولكنه لا يبدي ، وليس من شأنه كعلم أن يبدي ، لماذا كان هناك خط تصاعدي . هكذا يبقى الباب مفتوحاً أمام تساؤلين صميميين ، ألا وهما : ما هو **التعليل الأخير للتطور** ؟ هل للتطور مبرر **ومعنى** ؟

أ ـ **التطور لا يعلل بمجرد الصدفة** : جواب البعض عن السؤال الأول هو : أن هذا التسلسل التصاعدي مرجعه الصدفة وحدها .

فبالصدفة تجمعت ذرات المادة بتعقيد متزايد ، وبالصدفة تألفت الخلية الحية ، وبالصدفة تركب الدماغ الإنساني . كل ذلك سلسلة صدف ، تعاقب أرقام رابحة في يانصيب كوني يسيّر دواليبه **حظ أعمى** .

ولكن تلك النظرة الفلسفية ، التي يعود أصلها إلى فلاسفة إغريقيين قدامى كديموقريطوس ، لا تثبت أمام ما يكشفه العلم الحديث لنا عن مدى التعقيد والتنسيق الذي تتصف به خلية حية واحدة ، لا بل جزئية واحدة من الجزئيات العضوية . لذا نبذها معظم علماء اليوم ، حتى من يدين منهم بالمذهب المادي . فمثلاً نرى العالم البيولوجي السوفياتي الكبير أوبارين يدحض محاولة تفسير ظهور خلية حية واحدة بفعل الصدفة بقوله : « إن هذا الإفتراض شبيه بموقف امرىء يخلط أحرف طباعة تمثل ثمانية وعشرين حرفاً أبجدياً ويحركها ، راجياً انها بداعي الصدفة سوف تجتمع لتؤلف هذه أو تلك من القصائد التي نعرفها » .

فإذا كان ظهور خلية واحدة بداعي الصدفة امراً مستحيلاً ، كما يؤكد عالم يدين بالمادية ، فكيف نفسر بالأحرى ، بمجرد فعل الصدفة ، تدرج الحياة المتواصل نحو أشكال أرقى فأرقى . إذا اعتبرنا ان هذا التدرج إنما هو تتابع صدف موفقة ، فمن أين للصدفة هذا الإستمرار والترتيب في فعلها ؟ فكأننا نقول أن تبديلات طرأت صدفة على نص مبادى [illegible]ـسة التي وضعها أقليدوس ، أثناء نسخه من قبل ناسخين متتابعين ينقل أحدهما عن الآخر ، تعاقبت بشكل متناسق من نسخة إلى نسخة حتى أوجدت بالتوالي كل إختراعات البشرية في علم الهندسة وأدت في النهاية الى بروز نظرية أنشتاين . هذا مع العلم بأن خلية واحدة من الخلايا الحية إنما هي أكثر تعقيداً من نظرية أنشتاين ، لأن

العلم البشري ، بكل جبرؤوته الحالي ، لم يتوصل حتى الآن ، إلى إدراك سر تركيب واحدة منها .

ب ـ **التطور لا يعلل بفعل « الطبيعة »** : إذا كانت نظرية الصدفة لا تثبت أمام معطيات العلم الحديث ، رغم محاولات جاك مونو لإحيائها في كتابه « الصدفة والضرورة »، فبماذا يمكن الإستعاضة عنها ؟ كثيرون ممن يدينون اليوم بالمذهب المادي ، وخاصة الماركسيون منهم ، يقولون بأن التطور تفسره طبيعة المادة نفسها . فبنظرهم كان لا بد للمادة ، بالنسبة لطبيعتها ، ان تنتظم وتتعقد أكثر فأكثر مجتازة بذلك كل مراحل التطور .

ولكن السؤال الذي لا تجيب هذه النظرية عنه هو : **ما هو سر انتظام المادة ؟ وما هو سر سيرها نحو إنتظام متزايد في خط متواصل ،** مستمر؟ من أين للمادة هذا الإنتظام؟ المادة مجموعة من جسيمات ومن طاقات . إنها كثرة وتعدد. فكيف يتاح لهذه الكثرة ان تتوحد وتنتظم ، وذلك بشكل متزايد، تصاعدي ؟ هل نقول أنها تنظم ذاتها؟ ولكن هذا يفترض ان المادة ذات ، شخص، يعلو على تعدد عناصره ليوحد وينسق بينها . هذا ما يضمره ، من حيث لا يدرون، هؤلاء الذين يقولون أن «المادة» أو «الطبيعة» هي علة التطور الأخيرة . إنهم بذلك يشخصون «المادة» أو «الطبيعة»، ينسبون إليهما كياناً خرافياً، ذات طابع شخصي .

فلنأخذ مثلاً يوضح ما نحن بصدده . نحن نعلم أن جسم كل من الكائنات الحية يتكون إنطلاقاً من خلية أولى . لقد انكب علم الحياة الحديث على درس ذلك التحول الذي يجعل من البلوطة سنديانة ومن

خلية إنسانية واحدة جسداً إنسانيا مؤلفاً من حوالي ستين ألف مليار من الخلايا ، منوعة وموزعة على أجهزة وأعضاء متناسقة بشكل مذهل . وقد أوضح العلماء التفاعلات الكيميائية العديدة المعقدة التي تؤدي تدريجياً إلى هذا التحول، ولكنهم يقولون أن تلك التفاعلات موجهة ، مبرمجة ، بفعل « تصميم موجه » كامن في نواة الخلية الأولى ، وعلى وجه التخصيص في جزئيات الـ .A.D. N بفضل تلك البرمجة تتناسق التفاعلات الكيميائية لتؤول إلى تكوين كائن حي يحمل الصفات التي يتميز بها نوعه .

فبالقياس الى ذلك نتساءل : إذا كانت المادة قد سلكت ، في تاريخها الطويل ، تلك المسيرة التصاعدية التي قادتها من سحب الهيدروجين الأولى إلى الدماغ الإنساني ، فقد تم ذلك بلا شك بتأثير عوامل فيزيائية وتفاعلات كيميائية عديدة ، أوضحها العلم وسيوضحها أكثر فأكثر . ولكن يبقى هذا السؤال : ما هو سر انتظام تلك العوامل والتفاعلات في خط تصاعدي ؟ ما هو سر « برمجة » المادة في مسيرتها المتواصلة نحو كائنات أكثر فأكثر تعقيداً ؟ البرمجة التي بموجبها يتكون الكائن الحي والمرتسمة في نواة خليته الأولى قد أتته بالوراثة من كائن حي من نوعه (أو كائنين) وجد قبله . فمن أين لمادة الكون برمجتها المذهلة ؟ إذا كانت المادة هي الكائن الوحيد ، المكتفي بذاته، فمن أين استمدت تصميمها الموجه ؟ هل نقول انها برمجت ذاتها ؟ إننا عند ذاك ، كما قلنا سابقاً ، ننسب لتلك الكثرة من الجسيمات والطاقات ، كياناً شخصياً . إننا ننسب لها فكراً يفوق الفكر الإنساني بما لا يقاس ، لأنه لم « يخترع » الحياة وحسب ، تلك الحياة التي لم تستطع العبقرية البشرية ولا تقليدها إلى الآن ، بل أوجد الفكر الإنساني أيضاً. إننا ، خلافاً لكل منطق ،

ننسب لها القدرة على التحول ، بحد ذاتها ، من الأقل إلى الأكثر ، ناقلة ذاتها بذاتها لا من نظام إلى نظام أرقى وحسب ، بل من صعيد وجود الى صعيد وجود آخر مختلف عنه بالكلية ، أي من مادة جامدة الى مادة حية ثم إلى مادة مفكرة . وبعبارة اخرى نجعل من المادة شخصاً إلهياً يخلق ذاته باستمرار . ولكن مادة مؤهلة كهذه لم تعد المادة التي يعرفها علماء الفيزياء والكيمياء ويسخرونها لخدمة الإنسان ، تلك المجموعة الغاشمة من الجسيمات والطاقات التي يسميها العلم « مادة » . إنها صنم جديد أقيم عوض الله .

ج ـ **نظرة إيمانية إلى التطور** : هذا النقد الموجز للمذاهب المادية في تعليل التطور يمهد لنظرتنا الإيمانية اليه . فالمؤمن لا يتعبد لصدفة أو مادة تنسب إليهما صفات الخالق . ولكنه ينسب الفكر الخلاق الذي يتجلى عمله في تطور المادة الى كائن متعال عن المادة ، كائن شخصي يمكنه وحده أن يوجه تلك الكثرة من الجسيمات والقوى العمياء في الخط التصاعدي الذي سارت بموجبه ، كائن يملك الحياة كل الحياة ولذا استطاع ان يبث الحياة في الكون ، ويملك الفكر كل الفكز ولذا استطاع أن يشعله في الأرض بظهور الإنسان . إن ذلك الموقف الإيماني ، وإن كان ، تحديداً ، يفوق معطيات العقل والعلم ، إلا أنه منسجم كلياً ، كما يتضح مما سبق ، مع متطلبات المنطق ومع المفهوم العلمي للمادة .

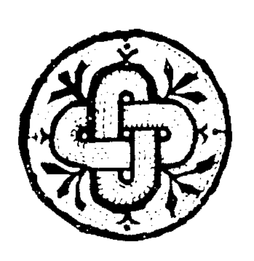
ولكن فعل الله هذا في المادة يجب أن يفهم على حقيقته . ليس هو ، كما يتصوره العديد من المؤمنين وغير المؤمنين ، فعلاً يضاف إلى نواميس الطبيعة ليكمل نقصها . هذا التصور يتنكر بآن واحد لتعالي الله ولحضوره في صميم الكون . لذا فمن الخطأ أن نتصور تصميماً مضافاً من الخارج إلى العناصر الطبيعية لتوجيهها وتقويم مسيرتها ، كما

يوجه السائق سيارته . فالله يعمل ، لا إلى جانب نواميس الكون ، بل من خلالها ، لأنها منه ومنه وحده تستمد ، في كل لحظة ، وجودها وانتظامها . بهذا المعنى ، الخلق عملية مستمرة ، كما أشار الرب بقوله : « أبي حتى الآن يعمل وأنا أعمل » (يوحنا ٥ : ١٧) . **والتطور هو المظهر الحسي لاستمرار الخلق** .

الله ، في الطبيعة ، **معلن ومحتجب بآن** . للعلم أن يفتش الى ما لا نهاية عن تفسير التطور . إنه لن يكتشف الله كما أنه لن يصطدم به ، لأنه ، بموجب منظاره الخاص ، لن يكتشف سوى النواميس الطبيعية التي يعمل الله من خلالها . ولكن ، كلما اتضح لنا ، بفضل الإكتشافات العلمية ، الإنتظام الرائع الذي يتجلى في مسيرة التطور المذهلة ، كلما انكشف لنا ، من خلاله ، حضور وفعل ذاك الذي يغمر مجده وبهاؤه الكائنات .

تلك النظرة الإيمانية هي أيضاً التي تستطيع ان تكشف لنا إن **للتطور مبرراً ومعنى** . فلو كان التطور وليد الصدفة وحدها ، لكان ظهور الكائنات كلها ، ومنها الإنسان ، ظهوراً عبثياً absurde ، على سبيل الإتفاق الأعمى ، لا تبرير له ولا هدف . وكذلك لو كان التطور وليد نواميس مادية غاشمة وحسب ، لكان مسيرة لا غاية لها ، قدراً أعمى توجد بموجبه المادة زهرتها الفضلى ، الفكر البشري ، وتسحقها ، على التوالي ، بموجب «ضرورة فولاذية» أشار إليها أنجلز . ولكن هل يعقل ان تكون تلك المسيرة المذهلة التي قادت الكون من ذرات الهيدروجين الأولى الى الإنسان وفكره وحضارته ، مسيرة لا هدف لها ولا مبرر؟ نعتقد أن نظرتنا الإيمانية الى التطور أكثر إنسجاماً مع متطلبات المنطق ، إذ تكشف لنا أن ذاك الذي هو تعليل التطور الأخير يعطيه أيضاً

هدفه وغايته، وأن تلك الغاية هي أن تبرز من جسم الكون كائنات بوسعها ان تشترك في حياة الله وفرحه الأبديين. هذا ما حدسه فيلسوف شهير معاصر قاده تأمله العميق في تطور الكون وفي تاريخ الإنسان الى عتبة الايمان، هنري برغسون، عندما قال «إن الكون آلة لصنع الآلهة». هذا ما يقودنا الى الحديث عن خلق الإنسان.



أسئلـــة

١ ـ إقرأ الإصحاح الأول من سفر التكوين . ما هي التساؤلات التي تطرحها رواية الخلق هذه على فكر معاصر ؟ هل الرواية تلك ، برأيك ، موحاة بحرفيتها ؟ ما هي الحقائق الموحاة التي تحويها؟

٢ ـ ما هي معلوماتك عن التطور ومراحله وعوامله ؟

٣ ـ هل المنظار العلمي كاف لتعليل التطور تعليلاً نهائياً ، صميمياً؟

٤ ـ ما رأيك بالصدفة كتعليل أخير للتطور ؟

٥ ـ هل يكفي ، في تعليل التطور ، أن نعزوه إلى طبيعة المادة ؟

٦ ـ ما هي النظرة الإيمانية الى التطور ؟ هل تتعارض مع النظرة العلمية ؟

٧ ـ ما هو معنى التطور في هذا المنظار الإيماني ؟

ملحق

١ ـ في كتابه الرائع « كيف تطرح اليوم قضية وجود الله ؟» يستعرض كلود تريمونتان ، أستاذ فلسفة العلوم في جامعة السوربون ، المذاهب المادية في تعليل التطور ، ويفندها بقوة ووضوح ، ومما يقوله :

« إذا . . . قلت أن المادة تنظم ذاتها ، فإنني أجعل من المادة فاعلاً لفعل نظم . المادة ، والحالة هذه ، لا ينظمها آخر : إنها تنظم ذاتها .

« ولكن فلنتساءل أولا : ما هي المادة ؟ إنها تعدد عناصر ، ذرات ، حبات طاقة .

« القول بأن المادة تنظم ذاتها ، بإمكانياتها الذاتية ، هو إستعارة شعرية جريئة . ولكن ما وراء هذه الإستعارة ؟ ليست المادة شخصاً لتكون فاعلاً لفعل يُصرَّف مع ضمير الفاعل Verbe réfléchi. ليست واحداً من الاشخاص (quelqu'un) لتكون قادرة على تنظيم ذاتها. المادة تعدد . فكيف لها أن تنظم ذاتها ؟ لكي يكون هذا الإكتفاء ، هذا التنظيم الذاتي ، ممكناً ، يفترض في المادة ان تكون ذاتاً ، أن يكون بإمكانها أن تعلو على ذلك التعدد الذي منه تتكون ، لكي تنظم ذاتها . لكي يتم دمج هذا التعدد من العناصر في تأليف Synthèse يفترض وجود قدرة تفوق تعدد العناصر هذا ، يفترض وجود شيء غير هذا التعدد . . .

« . . . المادة لا تكفي بحد ذاتها لتعليل إنتظامها الذاتي » .

وبعد أن يذكر المؤلف رأي ماركس بأن الكائنات في الطبيعة تنشىء ذاتها(Selbsterzengung) ، يعلق على هذا الرأي بقوله :

« هذا بالضبط ما يحتاج إلى إثبات . ما يحتاج إلى إثبات ، هو أن العبارة نفسها لها معنى . لأننا إذا نسبنا إلى المادة القدرة على تنظيم ذاتها بصورة جزئيات ، ثم جزئيات ضخمة ، ثم أجسام أحادية الخلية ، ثم أجسام متعددة الخلايا أكثر فأكثر تعقيداً ، فهذا يعني أننا نسبنا إلى المادة ذكاء وعبقرية يفوقان كل ذكاء الإنسانية المفكرة ، طالما أننا ، بعلمنا ، لم نزل بعيدين عن إدراك كيف تم ، وكيف لا يزال يتم في هذه اللحظة بعينها ، تنظيم المادة الذي يكوّن الأجسام الحية والمفكرة . . .

« ولكنني أتساءل مرة أخرى : ماذا يعني فكر المادة ؟ المادة كثرة ، إنها مجموعة . ما هو إذاً ذلك الفكر الذي تتحلى به جمهرة من الذرات وحبات الطاقة . . . عبثاً أتأمل وأدرس الذرات والجسيمات التي تتحدث عنها الفيزياء الحديثة . إنني لا أتوصل إلى رؤية مايسمح لي بأن أنسب إليها فكراً قادراً على الإشراف على تنظيمها . لكي تنتظم مجموعة من العناصر ، ينبغي أن يوجد مبدأ واحد يعلو على تعدد العناصر هذا ويجمعه في وحدة مؤلفة في تنظيم مركز . ولكنني لا أرى ، في المادة التي تحدثنا عنها الفيزياء الحديثة ، أي شيء يسمح لي بأن أنسب الى الذرات شخصية خفية وقدرات كهذه » .

Claude Tresmontant: Comment se pose aujourd'hui le problème de l'existence de Dieu?,
pages 222, 223, 225, 226, collection « Livre de Vie », Ed. du Seuil, Paris, 1971.

٢ ـ إن أحد مشاهير اللاهوتيين الكاثوليك المعاصرين ، ألا وهو

الأب شونانبرغ الهولندي ، يوضح مضمون عقيدة الخلق ، إذ يقول في كتابه « عالم الله في صيرورة » :

« الله لم يخلق وحسب ، بل إنه مستمر بلا إنقطاع في الخلق . إذا كان قد ارتاح في اليوم السابع ، فراحته أيضاً هي ، حسب كلمة يسوع ، عمل مستمر: « أبي يعمل حتى الآن » (يوحنا٥ :١٧) . إن الفصل الأول من سفر التكوين يعطينا رواية أخاذة عن عمل الله « في البدء » . ولكن نصوصاً أخرى تظهر لنا الله عاملاً دون إنقطاع . هذا هو شأن المزمور ١٠٤ [١] والفصول ٣٨ إلى ٤٠ من سفر أيوب . طالما العالم يدوم ، فهو محمول بكلمة قدرته . كل كائن وكل عمل في الكون ، طالما هما موجودان ، مسببان منه . ليس الله مهندساً متقاعداً ، إنه ذاك الذي منه وفيه نحيا ونتحرك ونوجد (أعمال الرسل ١٧ : ٢٨) .(ص ٢٠٧ - ٢٠٨) .

« . . . عندما اشار الله الى اعماله في الطبيعة ، مريداً أن يبرر أمام أيوب عمل عنايته ، فإنه ألحّ على الأعمال الحاضرة بقدر ما الحّ على العمل الذي قام به « في البدء » . لذا فنحن لسنا بمضطرين بأن نأخذ هذه العبارة المستمدة من تكوين ١ : ١ بمعناها الحصري . إنها تعني ان عمل الله الخلاق يشكل أساس كل شيء ، وليس أن هذا العمل قد توقف » (ص ٤٤) .

« إن الخلق يجعل بالحقيقة بين الله والمخلوقات علاقة عمودية تبقي على كل العلاقات الأفقية القائمة في داخل الكون ، أو بالأحرى تشملها وتعطيها بأن توجد . الله يخلق عالماً يتطور ؛ إن عمله الخلاق لا ينحصر في بداية العالم بل يمتد حتى ملء إكتماله : الله يحقق في كل لحظة

---

(١) ١٠٣ بموجب الترتيب الارثوذكسي .

هذا الكون ككون منطور » (ص ٤٥).

« الله عامل أبداً . إنه بالضبط من يعطي للعالم بشكل دائم حقيقته ، حقيقة في نمو متواصل » (ص ٤٨).

Piet Schoonenberg: Le monde de Dieu en devenir, Ed. du Centurion, Paris, 1967.



٢ ـ خلق الإنسان

يروي لنا الكتاب المقدس عملية خلق الإنسان في الفصلين الأول والثاني من سفر التكوين . هذا النص يحوي حقائق عقائدية مغلّفة في صور رمزية ، شعرية ، وإذا تمعّنا في النص يمكننا إبراز المعاني الآتية :

* إرتباط الإنسان بالطبيعة المادية

يقول لنا الكتاب المقدس أن الله أوجد الإنسان من تراب . وهذا ما تشير إليه كلمة « آدم » ومعناها : المأخوذ من « أداما » أي الأرض . فالإنسان مرتبط إذاً بكيانه بتلك الطبيعة المادية التي هي أيضاً خليقة الله . وبالفعل نرى أن جسم الإنسان مكوّن من العناصر نفسها التي تتكون منها الطبيعة المادية ، فالمواد الكيميائية الرئيسية العشر التي يتألف منها جسده وأهمها الكربون والهيدروجين والأكسيجين والأزوت هي من مقومات الكون المادي ، ذلك لأن الإنسان خرج من هذا الكون بفعل الله . أما كيفية هذا الخروج فيعبّر عنها الكتاب المقدس بصورة رمزية ، شعرية ، إذ يقول بأن الله جبل طيناً ونفخ فيه نسمة حياة . فالله يشبه إذاً هنا بفخاري يجبل وينفخ مع أننا نعلم من الكتاب المقدس نفسه أن الله روح لا يدان له إذاً ولا فم . لذا لا يمكننا أن نأخذ النص الكتابي هذا بمعناه الحرفي بل أن ندرك المعنى العقائدي الكامن وراء هذه الصور الشعرية ، ألا وهو أن الله هو علة بروز الإنسان من جسم هذا

الكون كما أنه علة بروز الكون نفسه الى حيز الوجود .

ولا يصف لنا الكتاب المقدس كيفية بروز الإنسان من جسم الكون وصفاً علمياً لأنه ليس كتاب علم (فالله اعطى الإنسان العقل ليبني به العلم) بل كتاب عقيدة دينية . ولكن هذه العقيدة لا تصطدم مع معطيات العلم . فالعلم يعتقد في أيامنا ان الإنسان وليد تطور طويل برزت فيه الحياة إنطلاقاً من المادة الجامدة رغم البون الهائل بينهما ثم اجتازت خلال نحو مليارين من السنين شوطاً طويلاً مكتنفاً بالأخطار الجسيمة ارتقت فيه رغم الصعوبات الهائلة من أبسط الأشكال إلى أسماها تركيباً وإتقاناً حتى بلغت أوجها في الإنسان . هذه المعطيات العلمية لا تتعارض مع إيماننا . ففي النظرية القديمة التي بموجبها خرج الإنسان مباشرة من الطبيعة المادية أو في النظرية الحديثة التي بموجها لا يخرج الإنسان من الكون المادي إلاّ من خلال تطور طويل ، يبقى الله في نظر المؤمن علة وجود الإنسان . لا شيء يمنع أن يكون الله قد استخدم التطور وسيلة لإبراز الإنسان من الطبيعة المادية . والمؤمن يرى في التطور البديع الذي يقول به العلم الحديث مظهراً من مظاهر حكمة الله أصل التطور وموجهه وغايته .

يروي لنا الكتاب المقدس أن الله لم يخلق الإنسان إلا بعد ان أوجد الكائنات الجامدة والحية كلها ، فكأن خلق الإنسان آخر أعمال الخليقة وكأن الأرض كلها هيأت لوجود الإنسان . وتقول نظرية التطور الحديثة بأن الإنسان هو قمة التطور . هنا يلتقي العلم الحديث بالنظرة الكتابية إلى الإنسان كتتويج الطبيعة وقمتها . ويعطي الكتاب شرحاً لمكانة الإنسان الرفيعة هذه إذ يقول بأن الله خلقه على صورته ومثاله .

* الإنسان على صورة الله ومثاله

يقول الله في الكتاب المقدس : « لنصنعن الإنسان على صورتنا ومثالنا » (تكوين ١ : ٢٦) . هذا يعني أن الله قد خص الإنسان وحده بميزة لم ينعم بها على أية من المخلوقات الأخرى وهي أنه جعل شبهاً بين ذلك المخلوق وبين الخالق ، فجعل في الإنسان عقلاً وإرادة وحرية وإبداعاً وحباً كلها صفات شبيهة بالصفات الموجودة فيه .

هكذا يظهر لنا أن هذا الإنسان الذي هو ، من ناحية ، جزء من هذه الطبيعة التي منها أخذ ، هو من ناحية أخرى متسام بما لا يقاس على هذه الطبيعة لأنه يحوي في ذاته صورة الله خالق الطبيعة الجامدة والحية : « وقال الله لنصنعن الإنسان على صورتنا ومثالنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض وكل الدبابات الدابة على الأرض » (تكوين ١ : ٢٦) . فسلطة الإنسان على الكائنات مرتبطة إذاً كما يظهر من هذا النص بكونه على صورة الله خلق . وبعبارة أخرى إذا كان الإنسان ـ وهو جزء من الطبيعة ـ قادراً على إدراك أسرارها وتسخير قواها لخدمته فإنما يعود ذلك إلى صورة الله الكامنة فيه . وقد كان على الإنسان أن يمارس سلطته بالعمل الذي هو ، على صورة ما ، تكميل للخلق لأنه يجعل الطبيعة أكثر ترتيباً وجمالاً وإنتاجاً : « وأخذ الرب الإله الإنسان وجعله في جنة عدن ليفلحها ويحرسها » (تكوين ٢ : ١٥).

* تصميم الله في إتحاد الرجل والمرأة

علاقة الجنسين يرسمها الكتاب المقدس بشكل شعري فيروي لنا أنه لم يكن لآدم بين المخلوقات شبيه ، « فقال الرب الإله لا يحسن أن

يكون الإنسان وحده فانصع له عوناً مثله » (تكوين ٢ : ١٨) ، لذلك ألقى عليه سباتاً عميقاً وأخذ ضلعاً من أضلاعه وكوّن منه المرأة الأولى التي دعيت حواء (أي أم الحياة) وأتى بها إلى آدم ، « فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي » (تكوين ٢ : ٢٣) . ويضيف الكتاب : « لذلك يترك الإنسان أباه وأمه ويلازم إمرأته ويصيران كلاهما جسداً واحداً » (تكوين ٢ : ٢٤). من هنا تتضح النظرة الكتابية الى علاقة الجنسين التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

أ ـ الجنسان متعادلان ومكملان أحدهما للآخر : إنهما متعادلان في الطبيعة إذ يقول آدم أن المرأة عظم من عظامه ولحم من لحمه ، أي أنها من طبيعته . ولكنهما مكملان أحدهما للآخر إذ يصوّر لنا الكتاب ذلك رمزياً بقوله إنهما جزءان من جسد واحد مشيراً الى أن أحدهما لا يكتمل دون الآخر . فميل كل من الجنسين إلى الآخر كإلى مكمله إنما هو إذاً من إرادة الله .

ب ـ إتحاد الجنسين يتم بالزواج الذي هو صلة عميقة وإرتباط نهائي : ويرسم لنا الكتاب المقدس أيضاً تصميم الله في إتحاد الجنسين ، فيقول لنا أن كلاً من الرجل والمرأة يكتملان بإتحادهما معاً في الزواج الذي به « يصيران جسداً واحداً » . وعبارة « جسداً واحداً » تعني بلغة الكتاب « كياناً إنسانياً واحداً » . وهذا يعني أولاً أن الزواج حسب مقاصد الله رباط عميق يجمع شخصين جسداً وروحاً فيؤلف منهما كياناً واحداً . كما أنه يعني أن الإتحاد الزوجي نهائي لا ينفصم لأن « الجسد الواحد » لا يمكنه ان يتجزأ فيما بعد . لذلك عندما علّم الرب يسوع عن الزواج استشهد بهذا النص الكتابي وأضاف إليه : « فما جمعه الله لا يفرقه إنسان » (متى ١٩ : ٦).

هكذا فالله الذي قد أوجد الحب بين الرجل والمرأة قد « وضع لميل القلب رباطاً لا ينفك » كما تقول طقوس سر الزواج . هذا « الرباط الذي لا ينفك » يفترضه الحب الحقيقي لأن الشهوة تطلب الإستمتاع بالآخر إلى أن تملّ منه ، أما الحب الأصيل فيتوق إلى عطاء متبادل نهائي. الشهوة تطلب التمتع العابر بجسد الآخر ، أما الحب الحقيقي فيرغب في إتحاد الشخصين في كيانٍ واحد . الحب الحقيقي المكرس بالزواج حسب إرادة الله لا يلغي الشهوة ولكنه يلطفها و يهذبها بالحنان و إنعطاف القلب ويسخر قوتها لبناء إتحاد متين بين الزوجين كما أن صناعة الإنسان تستخدم قوة المياه الغاشمة المدمرة لتوليد الكهرباء ومنفعة البشر .



أسئلـــة

إقرأ سفر التكوين : الفصلين الأول والثاني .

١ ـ إلى ماذا تشير كلمة الكتاب بأن الله خلق آدم من تراب ؟

٢ ـ هل تصطدم نظرية التطور الحديثة مع إيماننا بأن الله علة وجود الإنسان ؟

٣ ـ يقول لنا الكتاب المقدس أن الله خلق الإنسان بعد أن خلق سائر الكائنات الجامدة والحية ، وتقول نظرية التطور أن الإنسان هو النقطة التي وصل إليها التطور في آخر مراحله . كيف تظهر لنا أذاً ، من خلال هاتين النظرتين ، مكانة الإنسان في الخليقة ؟

٤ ـ كيف يفسر الكتاب المقدس هذه المكانة ؟

٥ ـ ماذا يعني قول الكتاب ان الله خلق الإنسان على صورته ومثاله؟

٦ ـ هل أعطى الله الإنسان سلطاناً على الطبيعة ؟ (أنظر تكوين ١ : ٢٦)

٧ ـ ما هي العلاقة بين صورة الله في الإنسان وبين السلطان الذي مُنحه على الطبيعة ؟

٨ ـ كيف يظهر الكتاب المقدس نوعية العلاقات بين الجنسين ؟

كيف يظهر أنهما متعادلان في الطبيعة ؟ (أنظر تك ٢ : ٢٣)

كيف يظهر أنهما مكملان أحدهما للآخر ؟

كيف يظهر أن إتحادهما يجب أن يكون صلة عميقة و إرتباطاً نهائياً؟ (أنظر تكوين ٢ : ٢٤ ومتى ١٩ : ٦).
كيف يميز هذا الإرتباط النهائي وهذه الصلة العميقة الحب عن الشهوة ؟
هل يلغي الحب الحقيقي الشهوة أم أنه يلطفها ويوجهها ؟



٣ ـ مقاصد الله نحو الإنسان

* غاية خلق الإنسان

حياة الله فرح دائم لا حد له . ولكن « الله محبة » ولذلك شاء ان يوجد كائنات يقيم معها علاقة حب فيشركها بحياته وفرحه . فأوجد هكذا البشر ليكونوا أحباء له متمتعين بخيراته ، مساهمين في سعادته . هذا هو مجد الله ، أن يحيا الإنسان ويسعد : « مجد الله هو حياة الإنسان » كما يقول القديس أيريناوس (وهو أحد آباء الكنيسة عاش في القرن الثاني وكان أسقفاً على مدينة ليون حيث استشهد) .

* تصميم الله الخاص بالإنسان

يخبرنا الكتاب المقدس أن الله وضع آدم وحواء في حديقة جميلة كانا يتمتعان فيها بثمار شهية . وهذا ما يرمز إلى أن الله أعدّ للإنسان سعادة قصوى هي إشتراك في سعادته تعالى .

أما مصدر هذه السعادة **فهو إتحاد الإنسان مع الله**، هذا الإتحاد الذي يعبّر عنه الكتاب المقدس بالإلفة التي يظهرها بين الله وآدم إذ يروي لنا أن الله أتى بالحيوانات لآدام حتى يسميها باسمائها (تكوين ٢ : ١٩) ، وأنه أتاه بإمرأة لتكون رفيقة له (تكوين ٢ : ٢٢) الخ . . .

وقد كان هذا الإتحاد بالله حريا أن يمتع الإنسان بالخيرات التالية :

أ ـ **التنعم بتمام القوى النفسية** من عقل نيرّ وإرادة قوية تواقة الى الخير ونية طاهرة ومحبة دون أنانية .

ب ـ **الخلود** : لم يكن الإنسان خالداً بطبيعته ولكن إتحاده بالله كان حرياً بأن يهبه الخلود بإشتراكه في خلود الله نفسه . لذلك قال الكتاب ان الله جعل « شجرة الحياة في وسط الجنة » (تكوين ٢ : ٩) حتى إذا أكل الإنسان منها « يحيا إلى الأبد » (تكوين ٣ : ٢٢) . وهذا يعني رمزياً أن الخلود نعمة وهبها الله للإنسان وأن هذه النعمة كانت مرتبطة بسكنى الإنسان في جنة عدن أي في كنف الله ، في الإتحاد مع الله .

ج ـ **السيادة على الطبيعة** : وقد كانت الطبيعة مهيأة لتخضع للإنسان بالنظر للصورة الإلهية الكامنة فيه ، فلا تثور عليه ولا تضره ولا تسبب له مشقات ونكبات . هذا ما نرى أثراً له في سيرة بعض الرهبان القديسين الذين كانت تخضع لهم الحيوانات المفترسة لأن الصورة الإلهية كانت قد تجددت في نفوسهم ، وهذا ما يرينا الإنجيل إياه في شخص يسوع الذي كان يحمل في انسانيته الصورة الإلهية كاملة، فيقول الإنجيلي مرقس عنه : « وأقام في البرية أربعين يوماً . . . وكان مع الوحوش » (مرقس ١ :١٣).

د ـ **الإنسان كاهن الكون** : ومقابل خضوع الطبيعة هذا للإنسان ، كان على الإنسان أن يكون كاهن الكون . ذلك أن الإنسان بطبيعته صورة مصغرة عن الكون Microcosme، ففيه تلتقي عناصر المادة ووظائف الحياة وغرائزها بصورة الله التي تطبعها وتسمو بها . وهكذا فالإنسان بطبيعته نقطة لقاء بين الله والكون ولذا كان عليه ان يكون صلة بينهما : فالله بواسطته يكمل عمل الخلق في الطبيعة كما رأينا

سابقاً؛ والطبيعة بدورها تسبّح الله من خلاله ، لأن كل تمجيد يرفعه الإنسان لله بالقول والعمل انما يرفعه باسم هذا الكون الذي هو صورة مصغرة عنه ، وكأن الطبيعة قد وجدت في الإنسان عقلاً تسبح به خالقها . هكذا كان على الإنسان ان يدير الخليقة باسم الله وأن يرفع الى الله تسبيح الطبيعة . هذا هو الدور الذي رسمه الله له ككاهن للكون لأن الكاهن هو تحديداً ذلك الكائن الذي هو صلة بين الخالق والمخلوق .

* دور حرية الإنسان

هذا التصميم الذي رسمته المحبة الإلهية لإسعاد الإنسان ، لم يشأ الله ان يفرضه عليه . ذلك لأن الله خلق الإنسان حراً على صورته ، وبهذه الحرية تقوم كرامة الإنسان . لو كان الله فرض تصميمه على الإنسان فرضاً كما فرض الغرائز على الحيوانات والنواميس الطبيعية على المادة ، لكان الإنسان آلة دقيقة ، بديعة ، متقنة وما كان إنساناً، أي كائناً على صورة الله متميزاً بتلك الصورة عن الطبيعة كلها .

لقد احترم الله حرية الإنسان لأنها شرط كرامته ، ولأن المحبة الحقة تحترم حرية المحبوب والله هو المحبة المطلقة التي تتضاءل أمامها كل محبة بشرية . الحب لا يفرض فرضاً ، وإلا لم يعد حباً بل عبودية والله لم يرد عبيداً بل أبناء . الحب يقدَّم ، والكائن الذي يقدَّم إليه يقبله أو يرفضه . هكذا عرض الله على الإنسان حبه وانتظر منه الجواب . فكان على الإنسان أن يجيب بملء إختياره على الحب بالحب أو الرفض .

هذه مغامرة الحب الكبرى ان الله جعل نفسه نوعاً ما مقيداً بالإنسان ، جعل تحقيق تصميمه رهن حرية الإنسان ، رضي بأن يكون

نجاح أو فشل هذا التصميم الإلهي متوقفاً الى حد ما على موقف الإنسان .

لاهوت الله يتجلى لنا في هذا الإحترام الحبي المذهل لحرية الإنسان ، في هذا التخلي المذهل عن سلطته المطلقة على الإنسان مخلوقه ، لذلك كتب الكاتب الهندي الشهير طاغور : « إنني أعبد الله لأنه يترك لي حرية إنكار وجوده » أي أن لاهوته يتجلى لي في هذا الإحترام المذهل لحريتي .

كان على الإنسان إذاً ان يتخذ موقفاً من الله ، أن يقول لله نعم أو لا . لقد خلق الإنسان مشابهاً لله ولكن كان عليه ان يحقق هذا الشبه بجهد متواصل وتحرك مستمر نحو الله ، كما ان الطفل يحقق بنموه صورة الرجل الكامنة فيه . كان متوقفاً عليه أن ينمي بلا انقطاع صورة الله فيه أو أن يحاول تعطيلها وإزالتها من كيانه . تلك هي تجربة الحرية التي عنها نشأت مأساة الإنسان .

* * *

أسئلة

إقرأ الفصل الثاني من سفر التكوين

١ ـ لماذا خلق الله الإنسان ؟

٢ ـ ما هو رمز هذه الحديقة التي وضع الله آدم فيها كما يروي الكتاب ؟

٣ ـ كيف تظهر إلفة الله والإنسان في هذا الفصل الثاني من سفر التكوين ؟

٤ ـ ألا تعتقد أن هذه الإلفة كانت هي مصدر سعادة الإنسان ؟ كيف ذلك ؟

٥ ـ إلى ماذا تشير شجرة الحياة ؟ (أنظر مع الفصل الثاني العدد ٢٢ من الفصل الثالث) .

٦ ـ ما هي الخيرات والمواهب التي أعدها الله للإنسان نتيجة إتحاده به ؟

٧ ـ ماذا نعني ولنا أن الإنسان كان معداً ليكون كاهن الكون ؟

٨ ـ هل فرض الله على الإنسان مقاصده فرضاً ؟ لماذا احترم حريته ؟

ملحق

شارل باغي Péguy كاتب فرنسي اهتدى من الإلحاد إلى الإيمان المسيحي وقتل سنة ١٩١٤ على إحدى جبهات الحرب العالمية الأولى بعد أن خلّف أثراً شعرياً خالداً نقتطف منه المقطع التالي الذي يعطـي فيه الشاعر الكلام لله متحدثاً عن حرية الإنسان :

« لأنني أنا حر ، يقول الله ، وقد خلقت الإنسان على صورتي ومثالي ،

هذا هو سر ، هذه هي قيمة

كل حرية .

إن حرية هذا المخلوق هي إنعكاس في العالم
لحرية الخالق . لذلك نعلق عليها
أهمية خاصة .

إن خلاصاً غير حر ، غير صادر عن رجل حر ليست له قيمة في عيني . فأي طائل له ؟
أي معنى له ؟
أية أهمية تكون لخلاص كهذا ؟

غبطة عبيد ، خلاص عبيد ، غبطة مستعبدة ، كيف تريدون أن

تهمني ؟ هل يحب احد أن يكون محبوباً من عبيد ؟

إن كانت القضية قضية إعطاء البرهان عن قدرتي وحسب ، فقدرتي ليست بحاجة إلى هؤلاء العبيد ، إنها معروفة كفاية ، معلوم كفاية أنني الكلي الإقتدار .

قدرتي تسطع كفاية في كل مادة وفي كل حدث .

قدرتي تسطع كفاية في رمال البحر ونجوم السماء .

لا إعتراض عليها ، إنها معروفة ، إنها تسطع كفاية في الخليقة الجامدة . . .

ولكن في خليقتي الحية ، يقول الله ، أردت أفضل من ذلك ، أردت اكثر من ذلك .

أفضل من ذلك بما لا يقاس . أكثر من ذلك بما لا يقاس . لأنني أردت تلك الحرية .

خلقت تلك الحرية عينها . .

من عرف نفسه مرة واحدة محبوباً بحرية ، لا يجد فيما بعد للخضوع طعماً .

من عرف نفسه محبوباً من أناس أحرار ، لا يجد فيما بعد معنى لسجدات العبيد ». (ص ٦٤ ـ ٦٥) .

« خضوع العبيد كلهم لا يساوي نظرة جميلة واحدة لرجل حر . أو بالأحرى خضوع العبيد كلهم تشمئز له نفسي وأنني أهب كل شيء مقابل نظرة جميلة واحدة لرجل حر ،

مقابل طاعة جميلة واحدة وحب جميل واحد وإخلاص جميل واحد
صادر عن رجل حر .

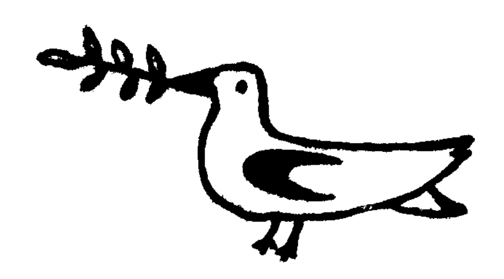
في سبيل هذه الحرية ، في سبيل هذه المجانية ضحيت بكل شيء
يقول الله ، في سبيل ميلي بأن يحبني رجال أحرار . . .

من أجل أن أنال هذه الحرية ، هذه المجانية ، ضحيت بكل
شيء ،

من أجل أن أخلق هذه الحرية ، هذه المجانية ،

من أجل أن أطلق هذه الحرية وهذه المجانية »
(ص ٩٩ - ١٠٠)

Charles Péguy: Le Mystère des Saints Innocents.



٤ ـ السقوط

قلنا في ما سبق انه كان من الطبيعي على الإنسان أن يشترك في الحوار الذي ابتدأه الله معه عندما خلقه على صورته ومثاله تعالى . هذا الحوار كان ضرورياً حتى تتأصل صورة الله في الإنسان وتجعل منه أيقونة تشع منها الحضرة الإلهية التي تضفي على الخليقة دفء المحبة . لذا كان يحتاج هذا المخلوق الجديد عيشاً متواصلاً في محبة الله حتى يتلقن منه كيفية القيام بمهمته السامية ألا وهي أن يكون وكيل الله على هذه الأرض ناقلاً إرادته تعالى في كل مجال من مجالات الحياة ممداً في الزمان والمكان بزرة الفردوس التي صنعتها يد الله .

وأهمية معاشرة الإنسان لله تظهر لنا جلياً من خلال خبرة نعيشها يومياً . كلنا يعلم ان المولود الجديد يشبه والديه ولكنه ليس مثلهما أو بعبارة أخرى إنه على صورتهما ولكنه لا يماثلهما بعد بالكلية . على الأبوين ان يحتضناه ويربياه ويدخلاه يوماً بعد يوم في سر الكيان الإنساني حتى يصبح يوما ما هو أيضاً مثلهما يفكر وينطق وينتج ويعمل في بنيان عالم أفضل لاخوته . أما الولد فعليه أن ينصاع إلى تعاليم الوالدين المُحبة إذ ان إنسانيتنا لا تُكتسب بادىء ذي بدء بالقراءة والتحليل الذهني ولكن بمعاشرة أناس آخرين .

وحقيقة ما أوردناه تظهر ساطعة في المثل الآتي : أولاد صغار تاهوا في مجاهل إحدى الغابات وعاشوا فيها في صحبة الحيوانات ومعاشرتها .

هؤلاء الأولاد نجدهم بعد مدة يكتسبون عادات الحيوانات التي يعايشون ، فيصوتون كما تصوّت ويسيرون على شاكلتها حتى أنه يمكنك تعريفهم بأنهم حيوانات في أثواب بشر أو هم بشر بدون إنسانية . هذه الإنسانية المفقودة لا يستعيدها هؤلاء الصغار إلا بعد معاشرة طويلة للبشر وتدريب طويل وشاق في جو « إنساني » .

هكذا ـ وبقدر ما ينجح التشبيه بين شؤون المخلوقات والأمور الإلهية ـ علّمنا آباء الكنيسة القديسون أن الإنسان خلق على صورة الله ولكن كان عليه ان يتتلمذ في حضرة الله حتى يتمثل به إذ أن معاشرة الباري تعالى اليومية فقط قادرة أن تجعل من الإنسان كائناً إلهياً . غير أن هذا يعني كما قلنا اعلاه أن ينصاع الإنسان الى أقوال الله المربية بحيث يتعلم منه تعالى ان الخير الأعظم هو الله نفسه كما نقرأ في المزامير ولدى الأنبياء وان الشر الحقيقي هو غيابه عن شؤون الإنسان .

هذه الحقيقة العميقة يصوّرها لنا الكتاب المقدس بشكل رمزي ـ كما جرت العادة في تلك العصور من تاريخ الإنسانية ـ في قوله ان الله طلب من الإنسان ألا يأكل من ثمار شجرة معرفة الخير والشر . فكان قصد الله إدخال الإنسان تدريجياً في سر الألوهة وذلك من خلال تربيته اليومية على أصول الحياة الفردوسية ، وكأي تدريب آخر تتطلب التربية الإلهية معاشرة متواصلة وتفترض طاعة .

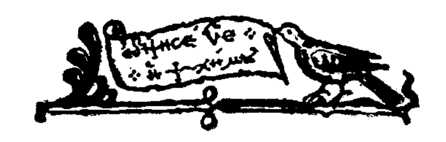
أما الإنسان فقد فضّل الإستغناء عن محبة الله وإحتضانه له . أراد أن يغتصب الألوهة إغتصاباً معتقداً أن معرفة الخير والشر هي التي تجعله إلهاً بيد أن الألوهة هي التي تؤمّن له معرفة الخير والشر . أراد ان يتخلص مما كان يعتقده وطأة الله عليه . لم يفقه الإنسان أن سر الحياة الحقيقية هو

في الكلمة الإلهية على حد قول الرب يسوع : «قدّسهم بحقك ، فإن كلمتك هي الحق (يو ١٧ : ١٧) . . . وتعرفون الحق والحق يحرركم (يو ٨ : ٣٢)» .

وكانت الكارثة . انقطع الإنسان بإرادته عن جوار الله وتاه في جو لا يناسب أصله ، فأصبح منساقاً الى نواميس غريبة عنه. وكما أن الولد التائه في الأدغال بين الحيوانات يعتقد أن دنياه التي ترعرع فيها هي دنياه الأصلية ، هكذا اعتقد الإنسان على مر الأيام أن جوه الجديد هو الأصيل فاعتاد عليه وأصبح قطعة منه . كالمدمن على الخمرة يعتقدها عنصراً أساسياً في حياته وهي دخيل يولد موتاً ينخر جسده يوماً بعد يوم ، هكذا الإنسان أصبح يعتقد ان الخطيئة عنصر أساسي في حياته . وترعرعت الأجيال السالفة في هذا الجو المضطرب المتسمم وتنشقت عبيره ثم ما لبث أن نفثت سمومها في من تلاها .

صلتنا بخطيئة الإنسان الأول ليست اذاً صلة وراثة كالتي تتعلق بشكل الأنف ولون الشعر ولكن صلة جو يترعرع فيه الإنسان ويتغربل كيانه وتبنى ذاته . فمنذ نشأتنا في جو الخطيئة هذا ونحن خطأة . وهذا يعبَّر عنه بأن الموت أصبح مهيمناً في حياتنا يعدها يوماً بعد يوم ،وإذا ما حاولنا التغلب عليه بإبعاده عنا أو بإبتعادنا عنه ، جابهنا في ثياب الضجر والمرض . هذا ما عبّر عنه الرسول بولس في قوله : «بانسان واحد دخلت الخطيئة الى العالم وبالخطيئة الموت ،وهكذا اجتاز الموت الى جميع الناس إذ أنهم جميعهم خطئوا » (رو ٥ : ١٢) . خطيئة الإنسان الأول وضعت الإنسانية في حلقة مفرغة ، إذ بغياب الله عن جوّنا الذي اخترنا أصبح الموت سلطاناً في حياتنا . وعدم قدرتنا بدون الله على التخلص من هذا الكابوس يجعلنا نيأس ونعود الى مزيد من التلطخ في الخطيئة،

وكالعصفور الذي لا مفر له من قفصه يعود نفسه على العيش فيه مقنعاً ذاته بجمال قضبانه الحديدية . . . وكالمغلوب الهزيل الذي يقبل اولاً مجبراً ثم يقتنع بلطف المستعبد . . . . هكذا يحاول الإنسان إقناع نفسه بحلاوة الخطيئة تحت ضغط حتمية الموت الذي ولدته . ويجبر نفسه على التناسي إلى أن ينسى أن المشكلة الوحيدة هي إرادته في أن يغيب الله عن عالمه .



أسئلة

إقرأ الفصل الثالث من سفر التكوين ومثل الإبن الشاطر (لوقا ١٥ : ١١ - ٣٢) .

١ - كيف كانت تجربة الإنسان نتيجة لحريته ؟

٢ - من هو الكائن الذي أذكى هذه التجربة في الإنسان ؟ ولماذا ؟

٣ - كيف يتضح من الكتاب المقدس أن الحية المذكورة في الفصل الثالث من سفر التكوين تشير إلى هذا الكائن ؟ أنظر حكمة سليمان ٢ : ٢٤ ويوحنا ٨ : ٤٤ ورؤيا ١٢ : ٩.

٤ - ما هي نوعية خطيئة الإنسان الأول ؟ كيف تدحض الرأي الشائع الذي يقول به عامة الناس أن تلك الخطيئة كانت زواج آدم من حواء؟ (راجع تكوين ١ : ٢٧ و٢٨) . ألا يظهر نص الكتاب نوعية هذه الخطيئة ؟ (أنظر تكوين ٣ : ١ - ٥) .

٥ - ألا تلقي قصة الإبن الشاطر ضوءا على نوعية هذه الخطيئة ؟ ألـم يكن الإبـن الشاطر عائشاً في بحبوحة وتنعم في كنف محبة والده ، فلماذا شاء الانفصال عنه إذاً؟

٥ ـ نتائج السقوط

رفض الإنسان لله أوصله إلى حالة غريبة عن أصله . بإبتعاده عن الله أبيه لم يعد الإنسان يميز في البشر الآخرين أخوة له أبناء للآب الواحد ، إذ أن الأخوّة تحدد بالنسبة الى البنوة تجاه الآب الواحد . وقد تصدعت أيضاً صلة الإنسان بالطبيعة من حوله إذ أنه لم يعد يرى فيها مذياعاً لمجد الله ومخبراً لأعمال يديه بل وسيلة لإرواء غليل أنانيته . هذه مأساة الإنسان التي نشأت عن غياب الله عنه وإذا شئنا أن نلخص المأساة هذه بكلمة يمكننا أن نقول أنها مأساة التفكك . وحدة الإنسان مع الله أي إتحاده به كانت أساسا لوحدته مع ذاته ولوحدته مع الآخر ولوحدته مع الكون . فلما فصم الإنسان وحدته مع الله تصدعت وحدته مع ذاته ووحدته مع الغير ووحدته مع الكون وساد التفكك في تلك المجالات الثلاث :

أ ـ تصدعت وحدة الإنسان مع ذاته : بإنفصال الإنسان عن الله حصل تفكك في شخصه أي أن الإنسجام بطل في كيانه :

ـ فالأهواء ثارت على العقل عوض ان تكون خاضعة له ، موجهة منه ، ولذلك أظلم عقل الإنسان إذ أصبح في كثيرمن الأحيان مسخراً لا للسعي إلى الحقيقة بل لخدمة الشهوات . هكذا انتشرت الآراء والمعتقدات الباطلة بين البشر وأخذ الإنسان ينظر إلى الأشياء لا كما هي بل كما تصورها له أهواؤه . وأصبح وهو الكائن العاقل يؤله المال والقوة

والجاه والنفوذ ويتعبد لأناس مثله من زعماء وغيرهم وأصبح يسخر العلم نفسه للدمار .

ـ كذلك ثارت الغرائز على الإرادة التي كانت وظيفتها في الأساس أن تسيرّ هذه الغرائز وفقاً لصالح الإنسان الحقيقي. فأصبحت هذه الغرائز تشد الإنسان إليها خلافاً لحاجاته الأساسية (فالسكير مثلاً يسعى إلى إرضاء شهوته دون أن يقيم وزناً لصحته أو كرامته أو مستقبله أو حياته العائلية) ،فضعفت الإرادة وأصبحت لا تقاوم الشر إلاّ بصعوبة ولا تردع إلا بجهد جموح الشهوات .

ـ كذلك طرأ التفكك على علاقة الإنسان بجسده ، فأصبح للجسد إستقلاله وأخذ يحاول فرض شهواته على الإنسان وكأنه غريب عنه . وهذا ما عبّر عنه الكتاب المقدس بقوله إن آدم وحواء شعرا بأنهما عريانان فسترا جسديهما بأوراق التين (تكوين ٣ : ٧) . وهذا يعني أنهما بدءا يحسان بجسدهما وكأنه كائن مستقل فيهما يطالب باشباع شهواته بينما كان فيما مضى مع الشخص كله في حركة واحدة الى الله . هكذا أصبحت الشهوة مستقلة عن الحب عوض أن تكون مسخرة له .

ـ ومن نتائج التفكك في الكيان الإنساني الأمراض التي أصبح الإنسان عرضة لها والتي هي إختلال في نظام الجسم البشري ، وأخيراً الموت الذي هو إنحلال لكيان الإنسان . لقد كانت نعمة الله تكتنف الإنسان وتحفظه من الأمراض والموت ،أما وقد رفض هذه النعمة وتعرى منها فلم يعد من شيء يحفظه من الإنحلال الذي تؤول إليه طبيعته إذا تركت وشأنها . هذا ما عبّر عنه الكتاب المقدس بقوله أن آدم أبعد عن شجرة الحياة التي كانت تجعله خالداً (تكوين ٣ : ٢٢) أي أنه فقد نعمة الخلود بابتعاده عن الله مصدرها . وبهذا المعنى قال الله لآدم : « تعود الى الأرض التي اخذت منها لأنك تراب وإلى التراب تعود » (تكوين ٣ : ١٩) .

ب ـ تصدعت الوحدة بين الإنسان والغير : ولكن هذا التفكك الذي ساد في كيان الإنسان الشخصي تعداه الى العلاقة بين الإنسان والإنسان . ذلك ان الإنسان بإنفصاله عن الله انفصل أيضاً عن أخيه الإنسان . فالله وحده يوحّد عميقاً بين البشر ولذا فالخطيئة بأبعادها الإنسان عن الله تبعده عن قريبه . هذا التفكك بدأ فوراً بعد السقوط عندما سأل الله آدم عن مخالفته فأجابه : « المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت » (تكوين ٣ : ١٢). وهكذا ألقى المسؤولية على إمرأته فاصلاً مصيره عن مصيرها بينما كانا قد خلقا « ليكونا جسداً واحداً » أي كياناً واحداً . هكذا بالخطيئة تسرب الإنقسام إلى البشرية ، فأصبحت الأنانية تفصل حتى بين الإنسان وأقرب الناس إليه وتشوّه الحب على أنواعه بإرادة التسلط على الآخر وامتلاكه كأنه مجرد شيء أو متعة دون مراعاة لحريته وكرامته ومصلحته وسعادته . وقاد ذلك الى تنافر بين الأخ وأخيه ، بين الأب وابنه وبين الزوج وزوجته . ولذا يروي لنا الكتاب كيف ان السقوط تلاه قتل قايين لأخيه هابيل . وانفجرت الأحقاد بين البشر وحسد بعضهم بعضاً وتجبر بعضهم على بعض واستعبد بعضهم بعضاً وتطاحنوا في حروب أهلية وخارجية .

ج ـ تصدعت الوحدة بين الإنسان والطبيعة : أخيرا كان من عواقب السقوط أن بطل هذا الانسجام الذي أعده الله بين الانسان والطبيعة . هذه الطبيعة التي كانت معدة لتخضع للانسان الحامل في ذاته صورة الخالق تمردت عليه حين تشوهت صورة الله فيه . « ملعونة الأرض بسببك . بمشقة تأكل منها كل أيام حياتك وشوكا وحسكا تنبت لك » (تكوين ٣ : ١٧ و ١٨). وهكذا لم يعد الانسان في مأمن من حتمية نواميس الكون بل صار الى حد بعيد ضحية هذه النواميس فأصبحت مصدر متاعب وكوارث ونكبات للإنسان وأخذت الحيوانات تؤذيه والجراثيم تفتك به .

أسئلـة

إقرأ الفصل الثالث من سفر التكوين .

١ ـ كيف يظهر إنفصال الإنسان عن الله في تكوين ٣ : ٨ ؟

٢ ـ ألا يشبه إنفصال الإنسان عن الله إنفصال غصن عن شجرته أو سمكة عن عنصرها المائي ؟ كيف ذلك ؟ وما هي النتائج المنتظرة لإنفصال كهذا ؟

٣ ـ هل بقي الإنسان محافظاً على موهبة الخلود بعد سقطته؟ (تكوين ٣ : ١٩ و ٢٢). لم لا ؟

٤ ـ كيف ظهر التفكك بين الإنسان وجسده بعد السقوط ؟ أنظر تكوين ٧ : ٣ وحاول أن تفهم معنى هذه الآية .

٥ ـ ألم يكن طبيعياً أن توجد الخطيئة تفككاً بين الإنسان والإنسان ؟ لماذا ؟ كيف يظهر ذلك في تكوين ٣ : ١٢ و٤ : ٨و٩ ؟ وكيف يظهر في علاقات البشر بعضهم ببعض وحتى بأقرب الناس إليهم ؟

٦ ـ ألم يكن من الطبيعي ان توجد الخطيئة تصدعاً في الوحدة التي أعدها الله بين الإنسان والطبيعة ؟ لماذا ؟ كيف يظهر هذا التصدع في تكوين ٣ : ١٧ و١٨ ؟ وما هي نتائجه بالنسبة للإنسان ؟



٦ - صورة الله في الإنسان بعد الخطيئة

ولكن السؤال القائم في كل هذا هو : كيف يعرف الإنسان أن الحالة التي هو عليها الآن ليست وضعه الأصيل؟ كيف يستطيع المرء ان يقدر مدى سقوطه بدون معرفة ما كان عليه قبل السقوط؟ للإجابة عن هذا السؤال سنعود إلى المثل الذي اتخذناه منطلقاً لنا في بدء هذا الفصل . فالولد الذي عاش بين الحيوانات منذ طفوليته لم يفقه الكارثة التي ألمت به إلا عندما التقى أخوة له في الإنسانية وفهم أن صلته الأصيلة هي مع البشر وليس مع الحيوانات. هذا يعني ان معرفته الحقيقية لا تنتج عن مقارنة بين حالته الحاضرة وفردوس مفقود وليد تخيلاته، ولكنها نتيجة لقائه مع أناس يحملون له في كيانهم صورة عن ذلك الفردوس إذ أن الإنسانية التي أضاعها جو معين وليست كلمات مقولة أو أحرفاً مسطرة .

هكذا نحن لم نفهم معنى الخطيئة إلا بعدما تعرفنا على أخينا الكبير كما يسميه بولس (رو ٨ : ٢٩). فلقاؤنا مع هذا الأخ الأكبر ، يسوع المسيح ، الذي حافظ على صورة الله فيه أيقظنا على الحقيقة مذكراً إيانا بأن الإنسانية الحقة تكمن في صلتنا الوثيقة بالله . إذاً مرور يسوع الناصري في بلادنا منذ ما يقارب الألفي سنة طبع في أذهان وقلوب البشر وجه رجل يشبهنا ولكننا لا نماثله إذ أن الجو الذي كان يتنشقه لم يكن من هذا العالم بالرغم من حضوره فيه .

في كل هذا ما يبعث الى التفاؤل. فبالرغم من جونا المتسمم الفتاك كان بوسعنا أن نتعرف إلى يسوع وان نعرف أنه في نهاية المطاف يحمل في شخصه عالمنا الأصيل . وإذا كان هذا مستطاعاً فلأن لجته نادت لجتنا ، صورة الله التي فيه نادت صورة تشبهها فينا . هذا يعني أنه كما أن الولد الضائع في الأدغال يحمل في خلاياه بالرغم من حيوانيته سمات جذور الإنسانية ، هكذا نحن ما زلنا في أحقر أوضاعنا نحمل صورة الله في كياننا ، إنما نحن فقد أبطلناها عن العمل بحصرها في زاوية عتمة . ولكن كما ان الله قد أشع النور من الظلام هكذا ابنه في لقائه معنا أطلق الصورة الخفية فينا من الظلمة التي ألجأناها إليها الى مكانها الأصيل في قلبنا وذهننا .

غير أن لقاءنا مع يسوع علّمنا أيضاً شيئاً آخر مهماً للغاية وهو أن تحقيق صورة الله كاملة فينا ـ أو بعبارة أخرى تألهنا ـ يكمن في إتضاعنا المستمر إذ أن الله متضع أصلاً . هذا ما يقوله لنا الرسول بولس في كلماته المأثورة : « ليكن فيكم من الأفكار والأخلاق ما هو في المسيح يسوع الذي إذ هو في صورة الله لم يعد مساواته لله إختلاساً لكنه أخلى ذاته آخذاً صورة عبد صائراً في شبه البشر وموجوداً كبشر في الهيئة . فوضع نفسه وصار يطيع حتى الموت موت الصليب » (في ٢ : ٥ ـ ٨).
هذا هو سر التجسد الذي فيه تم لنا لقاء أفضل من الذي كان يوم الخلق .

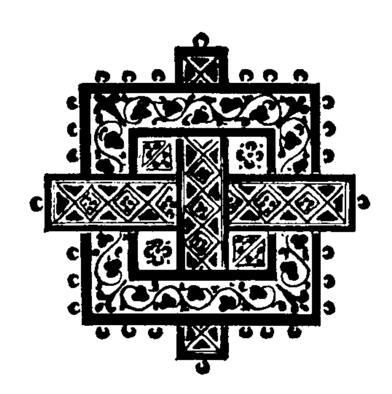


أسئلـــة

١ ـ كيف يمكننا القول أن الخطيئة شوهت صورة الله في الإنسان ؟ لقد كانت هذه الصورة تظهر في الإنسان بعقله وإرادته وميله الى الصلاح وإستعداده للعطاء وخلوده وسيادته على الكون فكيف تشوه كل ذلك في الإنسان ؟

٢ ـ هل امحت صورة الله في الإنسان أم بقيت فيه ؟ ألا يختبر كل منا في ذاته إزدواجية بين العظمة والحقارة ؟ (أنظر رومية ٧ : ١٨ ـ ٢٠). كيف يمكننا أن نفسر هذه الإزدواجية في ضوء تعليم الله ؟

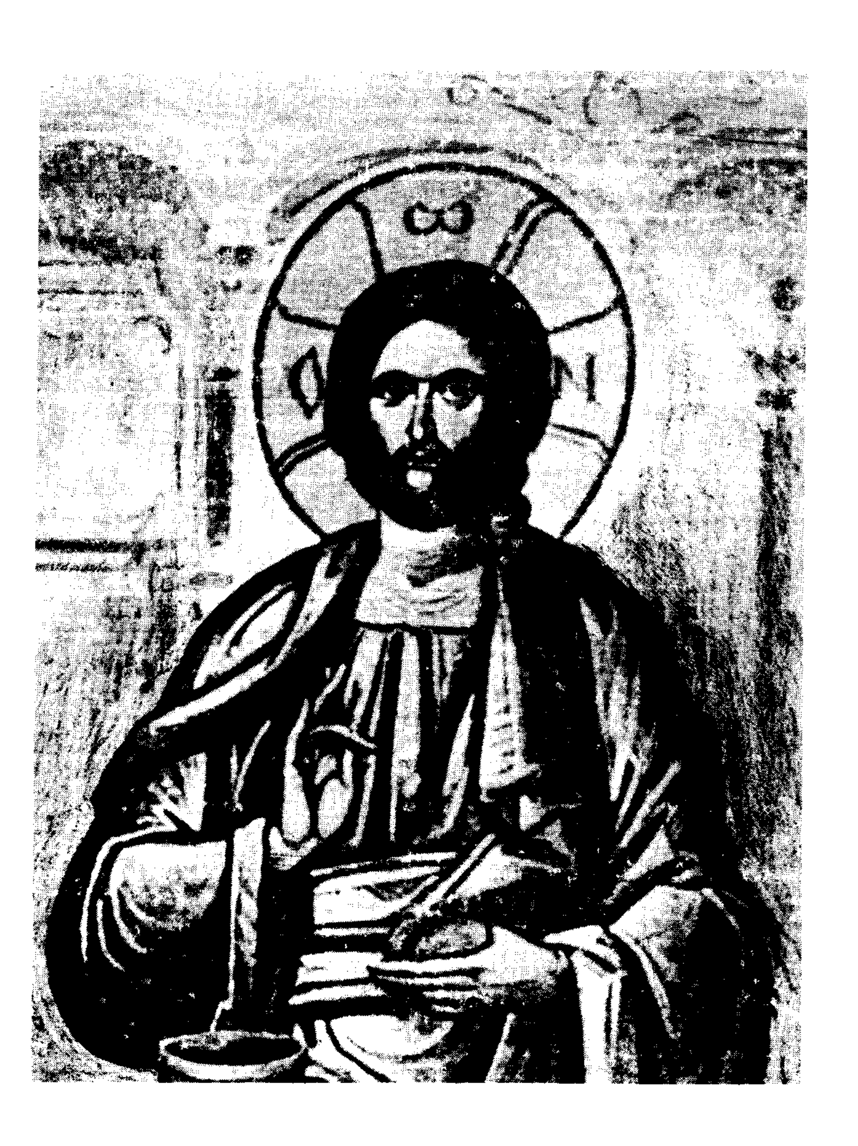
٣ ـ هل بطلت محبة الله للإنسان بعد سقوطه ؟ كيف تجلت هذه المحبة في تكوين ٣ : ٢١ ؟ لقد ترك الإنسان وحده خارج الجنة لأن حريته هكذا شاءت ولكن ألم يكن الله مزمعاً أن يفتقده هناك ؟ ما هي الصورة الفائقة العقل التي اتخذها هذا الإفتقاد ؟



الفصل الرابع

ألوهة الابن

«. . . وبرب واحد يسوع المسيح إبن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ للآب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء . . .»



١ ـ ألوهة الإبن

يؤكد لنا الفصل الثاني من دستور الإيمان ألوهة الإبن ، وقد وضع لتثبيت إعتقاد الكنيسة المستقيم تجاه البدعة التي أتى بها كاهن إسكندري يدعى آريوس في أوائل القرن الرابع مدعياً بأن الإبن مخلوق وأنه دون الآب . فاجتمع لدحض أرائه (التي ورثها « شهود يهوه » في أيامنا) مجمع يشمل الكنيسة جمعاء وهو المجمع المسكوني الأول الذي انعقد في مدينة نيقيا سنة **٣٢٥** ووضع القسم الأكبر من دستور الإيمان الذي نتلوه في كل قداس ومن جملته هذا الفصل المتعلق بألوهة الإبن .

ويؤكد لنا هذا الفصل أن الإبن « **مساوٍ للآب في الجوهر** » أي أن له الطبيعة الإلهية نفسها التي لله الآب . فكما أن الإبن يأخذ عن أبيه الإنسان طبيعته الإنسانية ، هكذا إبن الله يستمد من الآب طبيعته الإلهية ، وكما أن النور الصادر من الشمس له طبيعة الشمس نفسها التي هي نور هكذاالإبن الصادر من الآب (وهذا معنى كلمة « **مولود** ») له طبيعة الآب عينها : « **نور من نور ، إله حق من إله حق** » . وينتج من ذلك أن الصفات الإلهية التي للآب كالأزلية والقدرة على كل شيء والمعرفة التامة والقداسة الكاملة ، هذه الصفات كلها هي للإبن أيضاً .

الإبن صادر عن الآب ولكنه « **مولود غير مخلوق** » . فالمخلوق يخرج من العدم الى الوجود بإرادة الله ، ولكن إبن الله يصدر من صميم

الله الآب نفسه . لذلك فإن هوة تفصل الخالق والمخلوق ، أما إبن الله والله الآب فهما على الصعيد نفسه لأنهما يشتركان كلاهما في الطبيعة الإلهية الواحدة . البشر يدعون أبناء الله فقط من أجل محبة الله لهم وإعتنائه بهم . هذه المحبة تجتاز الهوة التي بين الخالق والمخلوق ولكنها لا تزيلها . أما يسوع المسيح فهو إبن الله بطبيعته أي أنه بحد ذاته في وحدة كاملة مع الآب ولذلك دعي « **إبن الله الوحيد** » ، أي أنه وحده إبن الله بالمعنى الكامل لهذه العبارة، بينما نحن لا ندعى أبناء الله إلا لأن محبة الله تتبنانا رغم الهوة السحيقة بين طبيعة الله وطبيعتنا المخلوقة .

والمخلوق يبدأ في الزمن اي أنه يكون غير موجود من قبل ثم في لحظة معينة من الزمن يظهر في الوجود . ولذلك يكون الإبن البشري في البدء دون أبيه لأن أباه سبقه في الوجود واكتسب بنموه ما لم يكتسبه الإبن بعد . أما إبن الله فلم يكن زمن لم يكن موجوداً فيه . النور صادر من الشمس ولكن لا شمس بدون نور ، هكذا الإبن مولود من الآب ولكن لا آب بدون إبن . وجود الإبن إذاً ملازم لوجود الآب كما أن وجود النور ملازم لوجود الشمس ووجود الفكر ملازم لوجود العقل . وبما أن الآب لا إبتداء له أي أزلي لأنه أصل كل شيء ولا أصل له ، كذلك الإبن أزلي مثله : « **مولود من الآب قبل كل الدهور** ».



أسئلة

١ ـ ما هي العقيدة التي يعبر عنها الفصل الثاني من دستور الإيمان ؟

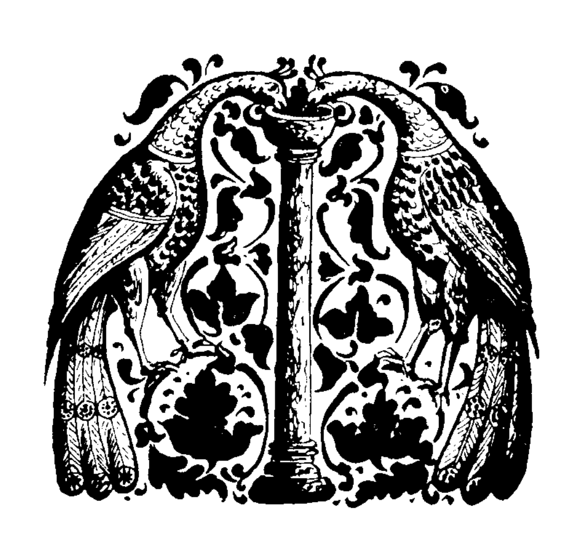
٢ ـ من أنكر هذه العقيدة في القديم ومن ينكرها في أيامنا ؟

٣ ـ ما معنى العبارات : « مساوٍ للآب في الجوهر »، « نور من نور » ، « إله حق من إله حق »؟

٤ ـ ما الفرق بين مولود ومخلوق ؟

٥ ـ نحن أبناء الله ويسوع المسيح إبن الله . فما الفرق بين بنوتنا وبنوته ولماذا دعي هو « إبن الله الوحيد » ؟

٦ ـ ما معنى عبارة « مولود من الآب قبل كل الدهور »؟



٢ ـ شهادات من الكتاب المقدس على ألوهة الإبن

هذا الإيمان بألوهة الإبن تسلمته الكنيسة من الرسل وقد عبّر عنه في الكتاب المقدس بآيات جلية :

أ ـ فقد أطلق الكتاب المقدس على يسوع المسيح الأسماء الإلهية نفسها التي يطلقها على الله :

فمن ألقاب الله في العهد القديم عبارة « الأول والآخر »، مثلاً : « أنا الرب .أنا الأول والآخر » (أشعيا ٤١ : ٤)، « هكذا قال الرب ملك إسرائيل وفاديه رب الجنود أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري » (أشعيا ٤٤ : ٦) . ولكننا نرى سفر الرؤيا في العهد الجديد يطلق اللقب نفسه على يسوع المسيح: «وفي وسط المنائر السبع شبه إبن الإنسان . . . فلما رأيته سقطت عند قدميه كالميت فوضع يده اليمنى عليّ قائلاً لا تخف أنا الأول والآخر والحي وقد كنت ميتاً وها أنا حي إلى دهر الدهور » (رؤيا ١ : ١٣ و ١٧ و١٨) .

ومن ألقاب الله في العهد القديم عبارة « **رب الأرباب** » ، مثلاً : « لأن الرب إلهكم هو إله الآلهة ورب الأرباب الإله العظيم الجبار الرهيب الذي لا يحابي الوجوه ولا يقبل رشوة » (تثنية ١٠ : ١٧) . ولكننا نرى أيضاً سفر الرؤيا في العهد الجديد يطلق اللقب عينه على

يسوع المسيح : « وهؤلاء يحاربون الحمل والحمل يغلبهم لأنه رب الأرباب وملك الملوك » (رؤيا ١٧ : ١٤)، وأيضاً « وعليه ثوب مصبوغ بالدم واسمه كلمة الله . . وعلى ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب ملك الملوك ورب الأرباب » (رؤيا ١٩ : ١٣ - ١٦) .

ب - وقد نسب الكتاب المقدس لإبن الله الجوهر الإلهي نفسه :

« إذ في المسيح يحل كل ملء اللاهوت جسدياً » (كولوسي ٢ : ٩) أي في جسد المسيح يحل ملء اللاهوت . وقد تجلى ذلك في الحديث الذي ألقاه الرسول بولس على رعاة كنيسة أفسس قبل مغادرته اياهم : «فاحذروا لانفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم فيها الروح القدس أساقفة لترعوا كنيسة الله التي إقتناها بدمه»(أعمال ٢٠: ٢٨) . فالدم الذي سفك من أجل الكنيسة ، دم المسيح ، يدعى هنا دم الله ، لأن الطبيعة الإلهية مستقرة في يسوع المسيح .

ج - وقد نسب له أيضاً الوحدة التامة مع الآب :

فقد صرح الرب يسوع : « أنا والآب واحد » (يوحنا ١٠ : ٣٠)، وأيضاً : « من رآني فقد رأى الآب » (يوحنا ١٤ : ٩)، وأيضاً مخاطباً الآب : « كل ما هو لي فهو لك وكل ما هو لك فهو لي » (يوحنا ١٧ : ١٠).

د - أخيرا نسب الكتاب المقدس للإبن الصفات والأعمال الإلهية :

- **الأزلية** : « والآن مجّدني يا أبتِ عندك بالمجد الذي كان لي لديك من قبل كون العالم » (يوحنا ١٧ : ٥) . « الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن » (يوحنا ٨ : ٥٨) . ولنلاحظ كيف لم يقل « أنا وُجدت » بل « أنا كائن » للدلالة على أن وجوده لا بدء له .

ـ **السلطة التشريعية الإلهية** : « قد سمعتم أنه قيل للأولـين لا تقتل فإن من قتل يستوجب الدينونة . **أما أنـا فأقـول لكم** أن كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة » (متى ٥ : ٢١ ـ ٢٢)،وأيضاً : « قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تحنث . . . **أما أنا فأقول لكم لا تحلفوا** البتة » (متى ٥ : ٣٣ ـ ٣٤) . هنا يضع يسوع سلطته التشريعية بمنزلة سلطة الله فيوضح ويكمل بسلطته الخاصة الشريعة التي كان الله نفسه قد أعطاها قديماً بواسطة موسى (راجع خروج ١٠ : ١ و ٧ و ١٣) وهذا ما يشير إلى أن ليسوع كل السلطة الإلهية .

ـ **السلطة على غفران الخطايا** : هذه السلطة يملكها الله وحده ، لأن كل خطيئة مخالفة لله ولذلك لا يستطيع سوى اللـه أن يغفرهـا . لذلك كان اليهود على حق عندما قالوا : « من يقدر أن يغفر الخطايا إلا الله وحده ؟» (لوقا ٥ : ٢١) . ولكن يسوع برهن عن لاهوته بممارسته الحق الإلهي في غفران الخطايا : « ولكن لكي تعلموا أن إبـن البشر له سلطان على الأرض أن يغفر الخطايا . . .» (لوقا ٥ : ٢٤) .

ـ **السلطة الإلهية على الحياة والموت** : في العهد القديم أقام إيليا إبن الأرملة وأقام أليشع أيضاً ولداً ، ولـكنهما فعـلا ذلك بقـوة اللـه التـي استمداها بصلاة وتضرع . فقد ورد في سفر الملـوك : « وانبسـط على الغلام ثلاث مرات وصرخ إلى الرب وقال : أيها الرب إلهي لتعد روح الغلام الى جوفه . **فسمع الرب لصوت إيليا** وعادت روح الغـلام إلى جوفه وعاد حياً » (الملوك الثالث ١٧ : ٢١ ـ ٢٢) .

أما يسوع فقد كانت له في ذاته تلك السلطة المطلقـة على الحياة والموت التي يملكها الله وحده .لذلك قال : « كما أن الآب يقيم الموتى

ويحييهم كذلك الإبن يحيي من يشاء » (يوحنا ٥ : ٢١).

لذلك نراه يقيم الموتى بلهجة الآمر الذي يملك في ذاته سلطة إقامتهم ولا يستمدها من غيره . فعندما أقام إبن أرملة نايين قال : « أيها الشاب لك أقول قم ، فاستوى الميت وشرع يتكلم ، فسلمه إلى أمه » (لوقا ٧ : ١٤ و ١٥). كذلك عندما أقام إبنة يايروس « أخذ بيدها ونادى قائلاً : يا صبية قومي ، فرجعت روحها ونهضت في الحال » (لوقا ٨ : ٥٤ و ٥٥).



أسئلة

١ - هل أطلق الكتاب المقدس الأسماء نفسها على الله وعلى يسوع المسيح ؟ أنظر أشعياء ٤٤ : ٦ ورؤيا ١ : ١٣ و ١٧ و ١٨ .
تثنية الإشتراع ١٠ : ١٧ ورؤيا ١٩ : ١٣ - ١٦ ورؤيا ١٧ : ١٤ .

٢ - هل نسب الكتاب المقدس لإبن الله الجوهر الإلهي نفسه ؟ أنظر كولوسي ٢ : ٩ وأعمال الرسل ٢٠ : ٢٨.

٣ - هل نسب الكتاب المقدس للإبن الصفات والأعمال الإلهية ؟
- الأزلية : أنظر يوحنا ١٧ : ٥ ، يوحنا ٨ : ٥٨.
- السلطة التشريعية الإلهية : أنظر متى ٥ : ٢١ - ٢٢ ، متى ٥ : ٣٣ - ٣٤.
قابل مع خروج ٢٠ : ١و٧و١٣ .
- السلطة على غفران الخطايا : أنظر لوقا ٥ : ٢٥.
- السلطة الإلهية على الحياة والموت : أنظر يوحنا ٥ : ٢١ ، لوقا ٧ : ١٤،لوقا ٨ : ٥٤ قابل مع الملوك الثالث ١٧ : ٢١ .

ملحق

لقد أعلن يسوع بوضوح عن ألوهته ليس بالكلام وحسب ولكن بتصرفات خاصة ، تلك التصرفات التي كانت تظهر أنه ينسب لنفسه سلطة إلهية ، هذا ما يبدو مثلاً في موقفه من الشريعة الموسوية ، تلك الشريعة التي كان الله مصدرها . وقد كتب بهذا الصدد الأب جان دانيالو عميد كلية اللاهوت الكاثوليكي في باريس في كتاب صدر له :

« عندما يقول المسيح : أن إبن الإنسان هو رب السبت أيضاً ، يقول الفريسيون : هذا الإنسان يجدف . وهم (من وجهة نظرهم) محقّون ، لأن السبت أقيم من الله . إذاً الله وحده هو رب السبت .

« كثيراً ما رويت . . ذلك الحديث (النموذجي) الذي جرى لي مع حاخام قال لي يوماً : يا أبت ، هناك أمر نلوم المسيح عليه ، وهو أنه مسّ الشريعة ، لأن الشريعة وضعها يهوه على جبل سينا ، والله وحده يستطيع أن يعدّل ما وضعه الله . فأجبته : يا سيدي الحاخام ، لم يكن بوسعك أن تقول ما يسرني أكثر من أقوالك هذه ، لأنه أمر أكيد أن يسوع عدّل الناموس ، وهذا يعني بالفعل ، ولا يمكن أن يعني سوى أمر واحد ، وهو أنه ، إن كان الله وحده ، كما قلتَ وكما قلتَ بحق ، يستطيع أن يعدّل ما وضعه الله ، فهذا يعني أن يسوع كان يعترف لنفسه بسلطة مساوية لسلطة ذاك الذي وضع الشريعة ، أي يهوه على جبل

سينا . هذا ما كان اليهود يفهمونه تماماً ولا يزالون يفهمونه تماماً . . . »

(ص ٩٤ - ٩٥)

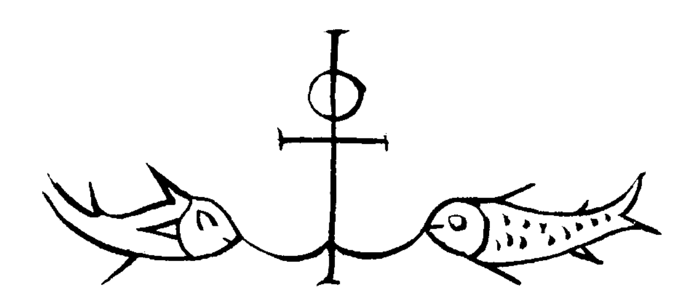
لا يمكن لإنسان أن ينسب الألوهة لنفسه إن لم يكن مختلاً أو مخادعاً . ولكن البشر المخلصين ، أياً كان معتقدهم ، يجلّون يسوع عن هاتين الصفتين . إن شخصيته الفذة تلاقي إجلالاً ليس من المسيحيين وحسب بل من غير المسيحيين أيضاً من مسلمين ويهود وهندوقيين وملحدين . هذا ما يوضحه أيضاً الكاتب المذكور آنفاً :

« . . . كل الناس دون إستثناء متفقون ليروا في يسوع ، بأدنى حد ، إحدى الشخصيات الأكثر سمواً في التاريخ البشري . وأقول كل الناس ، لأن هذا الأمر يتفق عليه ليس المسيحيون وحسب بل الآخرون أيضاً . إقرأوا الكتب التي كتبها عن يسوع يهود كأدمون فلاغ وروبير آرون وجول إسحق وشالوم آش . . . إنهم يرون فيه أحد التعابير الأكثر سمواً عن شعب إسرائيل . وها هم المسلمون ، فيسوع ، عيسى ، يشغل في القرآن مكانة كبرى ، وكان محمد يرى في يسوع أعظم الأنبياء . وها هم الهنود : كان غاندي وأوروبيندو يريان في العظة على الجبل أعلى قمة في الدين البشري . ومعظم الملحدين ، كالإشتراكي بربوس والوجودي جانسون والماركسي غارودي يعترفون بأن يسوع ، على الصعيد البشري ، عظمة ينحنون أمامها » (ص ٩٦)

Jean Daniélou: Mythes païens et Mystère chrétien.

هكذا لا بد من طرح السؤال : إذا كان يسوع قد نسب لنفسه الألوهة بوضوح ، من جهة،وإذا كان - بشهادة غير المسيحيين أنفسهم - شخصية فذة تُجل عن المخادعة أو الإختلال العقلي ، أفلا يعني ذلك أن

شهادته عن نفسه يجب ان تصدق ؟ هذا السؤال الذي لا بد لكل إنسان مخلص أن يطرحه على نفسه ، يجيب عنه المسيحيو ن بالإيمان بالمسيح إلهاً متأنساً .



الفصل الخامس

التجسد

«... الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء
وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنس . . . »



١ ـ غاية التجسد

بالخطيئة كما رأينا ، انفصل الإنسان عن الله وغدا مهشماً طريحاً غير قادر أنْ ينهض نفسه من الهوة التي سقط فيها . لم يكن بإمكانه أن يرتفع إلى الله ولذلك فقد شاء الله في محبته أن ينحدر بنفسه إلى الإنسان ليعيد الشركة بين الإنسان وبينه . إن الله أحب الإنسان « حباً جنونياً » على حد تعبير اللاهوتي نقولا كباسيلاس ، حتى أنه وهو الكائن الأبدي ، الخالق ، ذو السعادة المطلقة ، لم يترك وشأنه ذاك الإنسان الذي رفضه إختيارياً بل انحدر إليه ساعياً في طلبه ، كما سعى الراعي الذي تكلم عنه الرب يسوع وراء الخروف الضال (أنظر لوقا ١٥ : ١ ـ ٧) ، غير مكتف بالملائكة كما لم يكتف ذلك الراعي بالتسعة والتسعين خروفاً التي لم تضل .

بالتجسد أخذ الله على نفسه طبيعتنا البشرية المنحطة ، الساقطة ، وضمها الى لاهوته ، لتسري فيها الحياة الإلهية فتجددها وتشددها وكأنها تعيد تكوينها من جديد . إن الإنسان عندما يفسد دمه أو ينزف منه بغزارة يحتاج إلى دم جديد ينقل إلى جسمه المريض فيجري في شرايينه ويعيد إليه الصحة والحياة . هكذا داوى الله بالتجسد هذا النزيف الروحي المريع الذي هو الخطيئة الأصلية . بالتجسد بثّ الله حياته في الإنسان المريض ، الجريح ، ليعيد إليه القوة التي خارت والجمال الذي تشوه وذبل .

بالتجسد اتحد الله ذاته بالإنسان لتسري في الإنسان حياة الله ، وهكذا يتأله الإنسان على حد تعبير آباء الكنيسة الذين رددوا منذ القديس أيريناوس أسقف ليون في القرن الثاني للميلاد : « لقد صار الإله إنساناً ليستطيع الإنسان أن يصير إلهاً ».

لقد رأينا ان الإنسان سقط لكونه أراد أن يجعل نفسه إلهاً دون الله ، بالإستغناء عن الله . لقد كان يتوق الى التأله ولكنه ضل الطريق إذ اعتقد ان التأله يتم بانتفاخ الأنا . لقد كان في تصميم الله أن يتأله الإنسان ، فإنه لم يخلق الإنسان ليكون له عبداً بل شريكاً في حياته الإلهية . ولكن هذا التأله لم يكن ممكناً بمعزل عن الله بل كان مشروطاً باتحاد الإنسان بالله ، لأن من الله ومن الله وحده يستمد الإنسان كل موهبة وقوة وحياة . خارج الله ليس سوى العدم والفراغ والموت . ولكن الإنسان استمع الى خداع الشرير فطمع بالتأله دون الله ، فلم يبلغ مأربه بل انحط من مستواه الإنساني الأصيل عندما أراد أن يتشامخ فوقه وأخضع طبيعته للموت . لقد كانت وعود الشيطان كاذبة (لقد قال عنه يسوع أنه « كذوب وأبو الكذب » في يوحنا ٨ : ٤٤) عندما أعلن للإنسان أنه بمخالفة الله يصير إلهاً . تلك الوعود البراقة كانت وهماً وخداعاً ولكن ما لم يستطع الإنسان أن يحققه عندما تشامخ حققه له الله عندما نزل إليه . لذلك تنشد الكنيسة في خدمة سحر البشارة :

« اليوم ينكشف السر الذي قبل الدهور وابن الله يصير ابن البشر لكي أنه باتخاذه الأدنى يهبني الأفضل . لقد خاب آدم قديماً فلم يصر إلهاً كما كان قد اشتهى . فصار الإله إنساناً لكي يصير آدم إلهاً».

هكذا اتخذ الله غير المحدود طبيعتنا المحدودة ، والكامل الخالد طبيعتنا الضعيفة المائتة . إن مجرد اتخاذه طبيعتنا المخلوقة وهو الخالق تنازل منه ،ولكنه ذهب في التنازل الحبي الى حد إتخاذ طبيعتنا في الحالة

التعيسة التي آلت إليها بسبب سقطتها . هكذا بتنازلـه داوى تشامخنـا وبإنحداره إلينا رفعنا إليه .

ولكن ماذا يعني قولنا أن الإنسان « تأله » بالتجسد ؟ هذا لا يعني أننا أصبحنا آلهة بالطبيعة ، فأننا لا زلنا مخلوقات . ولكن التأله يعني أن حياة الله قد أعطيت لنا فصرنا مشـاركين له في محبتـه ، في مجـده ، في قوته ، في فرحه ، في حكمته ، في قداسته ، في خلوده . لم نبلغ جوهر الله لأنه دائماً متعال لا يمكن الوصول إليه ، ولكن القوى الإلهية اعطيت لنـا وأصبحـت في متناولنـا . هذا ما أوضحـه بنـوع خاص القـديس غريغوريوس بالاماس وثبتته المجامع الأرثوذكسية . بهذا المعنى ينبغي أن نفهم كلمة الرسول بطرس : « لقد صرتم شركاء الطبيعة الإلهية » (٢ بطرس ١ : ٤).



أسئلـــة

١ - إقرأ لوقا ١٥ - : ١ - ٧. كيف يشير هذا المثل إلى معنى التجسد ؟

٢ - ما هي الغاية من إتخاذ الله بالتجسد طبيعة الإنسان الساقطة ؟

٣ - لقد سقط الإنسان عندما حاول أن يتأله . هل كان خطأه في سعيه الى التأله أم في الطريق التي انتهجها للوصول إليه ؟

٤ - ماذا تعني كلمة القديس إيريناوس : « لقد صار الإله إنساناً ليستطيع الإنسان أن يصير إلهاً »؟ هل يتحدث الكتـاب المقـدس عن هذا التـأليه الـذي تعلّم به الكنيسة الأرثوذكسية ؟ (أنظر ٢ بطرس ١ : ٤). هل يعني « تأليهنا » هذا أننا نصير معادلين لله ؟ إذاً ماذا يعني ؟

٢ ـ تهيئة التجسد

التجسد إذاً مبادرة محبة مجانية من الله نحو الإنسان الذي ابتعد عنه ورفضه باختياره :

« بهذا ظهرت محبة الله فيما بيننا : بأن الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لنحيا به . على هذا تقوم المحبة: لا اننا نحن أحببنا الله بل هو نفسه أحبنا وأرسل ابنه كفارة عن خطايانا » (يوحنا ٤ : ٩ و ١٠) .

ولكن محبة الله لا تفرض فرضاً ، ولذا كان على الإنسان ان يتقبل مبادرة الحب الإلهي هذه . من أجل ذلك اهتم الله بمحبة أبوية ان يهيء البشر تدريجياً إلى إقتبال التجسد وكان عمله شبيهاً بعمل المربي الحكيم الذي يهيء للطفل الظروف المؤاتية كي يرقى مراحل النمو الواحدة تلو الأخرى حتى يصل إلى البلوغ . وقد ظهرت هذه التربية الإلهية لحرية الإنسان خاصة في الشعب الإسرائيلي الذي بقي وحده بين الشعوب أميناً لله رغم خطاياه الكثيرة . ففيه خاصة هيأ الله البشر إلى إقتبال التجسد حتى إذا تم يحمل أفراد من هذا الشعب بشارته الى العالم أجمع . وقد اتخذت هذه التهيئة وجوها مختلفة منها :

* الناموس

وهو مجموعة شرائع أعطيت الى الشعب الإسرائيلي بوحي من الله . وقد قال عنه الرسول بولس : « فالناموس إذاً كان مؤدبنا يرشدنا إلى المسيح » (غلاطية ٣ : ٢٤) .والمؤدب كان عند اليونان عبداً موكولاً

إليه أن يصحب الأولاد المؤتمن عليهم ويسهر عليهم ويلقنهم مبادىء المعرفة ليتمكنوا فيما بعد من استماع دروس يلقيها معلم شهير . تلك كانت وظيفة الناموس بالنسبة الى اليهود . فالوصايا العشر مثلاً كانت غايتها تهذيب أخلاق الناس كي يعدوا للدخول في ملكوت المحبة . أما الذبائح التي كان يفرضها الناموس للتكفير عن الخطايا فقد كانت رمزاً يشير إلى الذبيحة الحقيقية الواحدة وهي موت يسوع المسيح على الصليب .

* الحوادث التاريخية

وقد كانت حوادث تاريخ الشعب اليهودي ترمز إلى حوادث الخلاص وتعد الشعب لإقتبال التجسد . فيوسف الذي باعه أخوته حسداً وصار كما قال الكتاب عنه « مخلص العالم » أثناء المجاعة التي حصلت ، كان رمزاً للمسيح الذي أسلم حسداً من اليهود أخوته بالجسد الى الرومانيين لكي يميتوه فصار بالمعنى الكامل «مخلص العالم» مطعماً الناس ليس خبزاً مادياً كما فعل يوسف بل الخبز السماوي الذي هو جسده . كذلك خلاص الشعب الإسرائيلي من عبودية فرعون على يد موسى ودخوله في أرض الميعاد على يد يشوع الذي هو اسم يسوع بالذات ومعناه الله يخلص ، كان رمزاً لخلاص المؤمنين من عبودية الشيطان بتجسد المسيح وموته ودخولهم الى ملكوت الله .

* الأنبياء

كذلك أرسل الله أنبياء الى شعبه على مر الأجيال لتهيئته لإقتبال التجسد . والنبي كما يدل إسمه كانت مهمته ان ينبىء بإرادة الله أي أن يعلنها بقوة داعياً البشر الى تقويم ما اعوج من سيرتهم والى الرجوع الى الله . هؤلاء الأنبياء أعدوا الشعب اليهودي لاقتبال التجسد :

أ ـ لأنهم كانوا يحركون الضمائر النائمة المتحجرة ويقولون جهراً للناس أن تتميم الشريعة في الظاهر لا يهم ، إنما المهم تغيير القلب وإعطاؤه لله ، وهكذا كانوا يمهدون طريق الله الآتي إلى العالم .

ب ـ لأنهم كانوا يشيرون ، بإلهام إلهي ، إلى تجسد ابن الله وإلى أعمال الخلاص التي سوف يقوم بها في أرضنا .هكذا تحدث النبي أشعياء الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد عن البيت الذي يولد منه المسيح ، فقال أنه سيكون من نسل داود : « ويخرج قضيب من جذع يسى (وهو أبو داود) وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب » (أشعياء١١ : ١ و٢).

وأعلن النبي نفسه أنه يولد من عذراء : « هوذا العذراء تحبل وتلد إبناً ويدعون إسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا » (أشعياء٧ : ١٤).

وتنبأ النبي ميخا الذي عاش هو أيضاً في القرن الثامن قبل الميلاد عن مكان ولادة المخلص فقال:« وأنت يا بيت لحم أفراتا أنك صغيرة في ألوف يهوذا ولكن منك سوف يخرج لي من يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل » (ميخا ٥ : ٦) .

وتحدث النبي أشعياء عن رسالة المخلص: «روح الرب عليّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين وأرسلني لأجبر المنكسري القلوب وأنادي بعتق للمسبيين وبتخلية للمأسورين لأنادي بسنة الرب المقبولة وبيوم انتقام الهنا وأعزي جميع النائحين » (أشعياء ٦١ : ١ و٢).

كذلك أعلن أشعياء عن الآلام التي سوف يتحملها المخلص من أجل خطايا الناس : « جرح لأجل معاصينا وسحق لأجل آثامنا . فتأديب سلامنا عليه وبجراحه شفينا . كلنا ضللنا كالغنم ، كل واحد مال إلى طريقه ، فألقى الرب عليه إثم كلنا » (أشعياء ٥٣ : ٥ ـ ٧) .

أسئلة

١ ـ ألم يكن التجسد مبادرة حب مجانية من قبل الله ؟ (انظر ١ يوحنا ٤ : ٩ و١٠) .

٢ ـ ولكن المحبة لا تفرض فرضاً ، كان إذاً على الإنسان أن يتقبل مبادرة الحب هذه . فكيف أعده الله لإقتبال التجسد ؟

٣ ـ ما هو الناموس ؟ وماذا عن دوره في تهيئة التجسد ؟ (أنظر غلاطية ٣ : ٢٤) . كيف تمم دوره هذا ؟

٤ ـ كيف كانت حوادث تاريخ الشعب اليهودي تشير إلى حوادث الخلاص ؟ كيف تشير إليها قصة يوسف ؟ كيف يشير إليها خلاص الشعب الإسرائيلي من عبودية فرعون ودخوله أرض الميعاد ؟

٥ ـ من هم الأنبياء ؟ كيف هيأوا الناس لاقتبال التجسد ؟ هل أشاروا الى ظروف التجسد وإلى أعمال الخلاص ؟

مثلا : إلى أصل المسيح بالجسد (أنظر أشعياء ١١ : ١و٢) .
إلى ولادته من العذراء ؟ (أنظر أشعياء ٧ : ١٤) .
إلى البلدة التي ولد فيها ؟ (أنظر ميخا ٥ : ٦) .
إلى رسالته الخلاصية ؟ (أنظر أشعياء٦١ : ١و٢) .
إلى آلامه ؟ أنظر أشعياء ٥٣ : ٥ ـ ٧) .



٣ ـ دور العذراء مريم في التجسد

قلنا أن الله صمم في محبته أن ينحدر إلى الإنسان ليخلصه . إلا أنه ـ وهو يحترم حرية الإنسان ـ كان منتظراً أن يريد الإنسان خلاصه ، أن يشاء إقتبال الإله المنحدر إليه . ولذا فقد هيأ الله الإنسانية تدريجياً إلى إقتبال الخلاص . وقد أدت هذه التهيئة إلى العذراء مريم . فمريم هي زهرة العهد القديم وثمرة عناية الله بشعبه وتربيته له على مر الأجيال . ففي مريم بلغت قداسة العهد القديم ذروتها في الإيمان والتواضع والطاعة لله . لذلك في شخص مريم استطاعت البشرية ان تقول « نعم » لله وان تتقبله مخلصاً لها ، هذا ما تم عندما أجابت مريم الملاك : « ها أنا أمة للرب فليكن لي حسب قولك » (لوقا ١ : ٣٨) . عندئذ تم تجسد ابن الله لأن البشرية « سمحت » له بشخص مريم أن يأتي إليها ويخلصها . لذلك كتب اللاهوتي الأرثوذكسي نقولا كباسيلاس : « إن التجسد لم يكن فعل الآب وقدرته وروحه فحسب ، ولكنه أيضاً فعل إرادة العذراء وإيمانها . فبدون قبول الكلية النقاوة ، بدون مساهمة إيمانها ، لكان تحقيق هذا المقصد متعذراً . . . » .

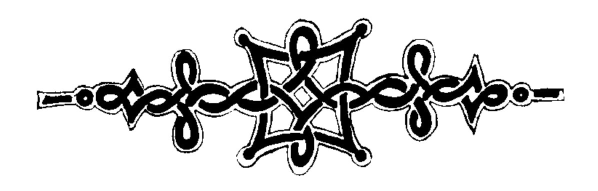
هكذا كانت مريم ذلك « الباب المتجه نحو المشارق » الذي تحدث عنه النبي حزقيال والذي عبر به الرب (حزقيال ٤٤ : ١ ـ ٣) . وكما تنشد الكنيسة « هي وحدها أدخلت المسيح وحده الى المسكونة لخلاص نفوسنا » (خدمة عيد ميلاد السيدة) . ففي مريم تم أولاً الإتحاد

بين الله والإنسان ، إذ أن ابن الله اتحد ذاته بجسد اتخذه من جسد مريم : « بمولدك اتحد كلمة الله بالبشر وطبيعة جنسنا المقصاة أقرنتها مع السماويين » .

وتدعو الكنيسة العذراء « والدة الإله » لأنها ولدت الأله المتجسد . وبذلك تردد ما قالته أليصابات بوحي الروح القدس عندما زارتها نسيبتها العذراء مريم إذ « امتلأت أليصابات من الروح القدس فصاحت بصوت جهير وقالت : . . . من أين لي هذا أن **تأتي أم ربي إلي ؟**» (لوقا ١ : ٤١ - ٤٣) . وتعتقد الكنيسة ان منزلة العذراء تفوق منزلة الملائكة إذ قد أهلت ان تحمل في ذاتها إبن الله المتجسد فتصير هكذا هيكلاً حياً للإله الذي« لا تجسر طغمات الملائكة ان تنظر إليه » . لذلك تخاطبها منشدة : « يا من هي أكرم من الشاروبيم وأرفع مجداً بغير قياس من السارافيم » وأيضاً : « لأنه صنع مستودعك عرشاً وجعل بطنك أرحب من السماوات » (قداس باسيليوس) .

وهكذا فتكريم الكنيسة الأرثوذكسية للعذراء مريم يعود خاصة للدور الذي لعبته في التجسد . لذا فالإسم الذي تطلقه عليها باستمرار هو إسم « والدة الإله » ولذلك أيضاً عندما تمدحها تمدح بنوع خاص ذلك الدور الذي شاء الله ان يسنده إليها في مقاصده : « إفرحي يا من ولدت مرشد الضالين ، إفرحي يا من ولدت منقذ المأسورين » (خدمة المديح) . وللسبب عينه لا تمثل الأيقونات الأرثوذكسية أبداً العذراء وحدها بل تمثلها دوماً حاملة إبنها وإلهها . فمجد والدة الإله مستمد من ذاك الذي شاء ان يولد منها ، من ذلك الذي أعطته للعالم . والعذراء نفسها في حياتها الأرضية لم تشأ ان تبرز شخصيتها بل كانت دائماً متخفية وراء إبنها والتعليم الوحيد الذي نقله إلينا الإنجيل عن لسان العذراء إنما هو وصيتها للبشر بأن يطيعوا إبنها : «مهما يأمركم به فافعلوه» (يوحنا ٢ : ٥) .

وتعتقد الكنيسة أن العذراء بما أنها صارت أما للإله المتجسد ، فقد أصبحت أيضاً أماً لكل الذين صار ذاك الإله أخاً لهم بالتجسد : « لا يستحي أن يدعوهم أخوة . . إذن إذ قد اشترك الأبناء في الدم واللحم اشترك هو كذلك فيهما » (عبرانيين ٢ : ١١و١٤) ،وبنوع خاص اما للذين أصبحوا بإيمانهم تلامذة أحباء له . فعندما كان يسوع على الصليب خاطب مريم قائلاً لها عن التلميذ الحبيب : « هوذا إبنك » ثم خاطب يوحنا قائلاً : « هوذا أمك » (يوحنا ١٩ : ٢٦ و ٢٧) . فهذه العبارات يصح إطلاقها على كل تلميذ حبيب ليسوع أي كل مؤمن به . لذلك فلوالدة الإله نحونا حنان الأم ولهفتها . في عرس قانا الجليل تحسست مريم لحاجة أهل البيت وضمت شعورها بهذه الحاجة الى شعور إبنها قائلة له : « ليس عندهم خمر» ،فلباها الرب وصنع من أجلها معجزته الأولى مع أن ساعته لم تكن قد أتت بعد (يوحنا ٢ :٣ و ٤) . هكذا تتحسس مريم لحاجاتنا وشفاعتها هي أن تضم حنوها علينا الى حنو إبنها .وهذه الشفاعة قوية كما يظهر من حادثة عرس قانا الجليل. وكما تنشد الكنيسة:« ليس أحد يسارع محاضراً إليك ويمضي خازياً من قبلك أيتها البتول النقية أم الإله » (قانون الباراكليسي) . ولكن النعمة التي تطلبها لنا العذراء بنوع خاص هي أن يتصور إبنها فينا حتى نحمله نحن في كياننا كما حملته هي ونتحد به كما اتحدت به هي .



أسئلــة

إقرأ لوقا ١ : ٢٦ ـ ٥٦ ويوحنا ٢ : ١ ـ ١١ و ١٩ : ٢٥ ـ ٢٧ .

١ ـ هل كان ممكناً أن يتم التجسد لو لم يقبل الإنسان به ؟ لماذا لا ؟

٢ ـ ما هي ـ والحالة هذه ـ أهمية عبارة العذراء في لوقا ١ : ٣٨ ؟

٣ ـ كيف يمكننا إذاً ان نقول أن العذراء كانت ثمرة تربية الله للإنسان في العهد القديم ؟

٤ ـ كيف تفهم قول اللاهوتي الأرثوذكسي نقولا كاباسيلاس بأن العذراء جعلت التجسد ممكناً ؟

٥ ـ كيف يمكننا القول أن إتحاد الله بالبشر تم أولاً في شخص مريم ؟ أو يتضح ذلك من قول الكنيسة لمريم : « لقد أقرضت جسداً للكلمة الباريء الكل »؟

٦ ـ لماذا تدعو الكنيسة العذراء « والدة الإله »؟ ألا تستند هذه التسمية إلى نص الإنجيل ؟ (أنظر لوقا ١ : ٤١ ـ ٤٣).

٧ ـ أليس تكريم الكنيسة الأرثوذكسية للعذراء يعود خاصة للدور الذي لعبته في التجسد ؟ كيف يتضح ذلك في صلوات الكنيسة وفي الأيقونات التي ترسمها ؟ ألا ينسجم ذلك مع موقف العذراء نفسها كما يتضح في الإنجيل (أنظر يوحنا ٢ : ٥).

٨ ـ ألم يصبح إبن الله أخاً لنا بالتجسد ؟ (أنظر عبرانيين ٢ : ١١ و١٤). كيف يصح والحالة هذه ان نعتبر العذراء أماً لنا ؟

٩ ـ ألم يعط يسوع أمه « أماً » لكل«تلميذ حبيب»؟ (أنظر يوحنا ١٩ : ٢٥ ـ ٢٧).

١٠ ـ كيف تجلت شفاعة العذراء في الإنجيل ؟ (أنظر يوحنا ٢ : ١ ـ ١١).

٤ ـ شخص يسوع المسيح

إن الإله المتجسد سمي يسوع المسيح . أما « يسوع » فهي كلمة عبرانية معناها « الله يخلص ». وقد أطلق هذا الإسم على إبن الله المتجسد نظراً للمهمة الخلاصية التي أتى ليقوم بها . لذلك قال الملاك لمريم عندما بشرها : « ها أنت تحبلين وتلدين إبناً وتسمينه يسوع » (لوقا ١ ـ ٣١) .والملاك الذي ظهر ليوسف قال له متكلماً عن العذراء : « ستلد إبناً فتسميه يسوع لأنه هو الذي يخلص شعبه من خطاياه » (متى ١ : ٢١). أما كلمة « المسيح » فتعني الممسوح . وقد كان الأنبياء والملوك والكهنة في العهد القديم يمسحون بزيت مقدس ينالون بواسطته نعمة لإتمام رسالتهم ، ولذلك كانوا يدعون مسحاء الرب . ولكن هؤلاء لم يكونوا سوى صورة ورمز ليسوع الذي هو وحده مسيح الرب بالمعنى الكامل أي أنه مسح ليس بزيت ولكن بملء مواهب الروح القدس الذي حل على إنسانيته فجعل منه نبياً أنبأ بحقيقة الله الكاملة، وكاهناً قدم الذبيحة الوحيدة المقبولة عن خطايا البشر ألا وهي ذبيحة ذاته، وملكاً يملك إلى الأبد على البشرية المؤمنة به .

وتعتقد الكنيسة الأرثوذكسية أن للمسيح طبيعتين :إلهية وإنسانية، متحدتين في شخص واحد ، شخص إبن الله المتجسد ، وأن هذا الإتحاد قائم بدون إنقسام أو إنفصال أو تحول أو إختلاط ، أي أن كلا من هاتين الطبيعتين تحتفظ بصفاتها الخاصة ، فلا تفقد الطبيعة الإلهية صفاتها الإلهية ولا تفقد الطبيعة الإنسانية صفاتها الانسانية (بدون تحول أو إختلاط) ولكنهما متحدتان في شخص واحد (بدون انقسام او

انفصال) . وإذا أردنا صورة توضح هذا المعتقد ، فلنأخذ الحديد المحمى بالنار ، فالحديد لم يزل حديداً والنار ناراً ولكن ليس هناك إنفصال بين النار والحديد إذ هما مجتمعان في قطعة الحديد المحمى .

وبعبارة أخرى تعتقد الكنيسة أن يسوع المسيح إله تام وإنسان تام ، إله حقيقي وإنسان حقيقي ، ولكنه شخص واحد لأن إبن الله ضم الطبيعة الإنسانية الى لاهوته وجعلها وهذا اللاهوت شخصاً واحداً ، شخص الإله المتجسد . وقد كان هذا التدبير الإلهي ضرورياً للخلاص . لأنه لو كان المسيح إلهاً فقط ولو كانت إنسانيته مجرد وهم وخيال فكيف كان دخل اللاهوت الى صميم البشرية ليقدسها ؟ ولو كان المسيح إنساناً فقط فكيف يكون جسراً به تنقل إلى الإنسانية الحياة الإلهية نفسها ؟ ولو كان اللاهوت والناسوت في المسيح منفصلين فكيف يتم بين الله والإنسان ذلك الإتحاد الصميمي الذي به تتجدد الإنسانية وتتأله ؟ هذا الإعتقاد القويم في شخص المسيح شرط أساسي إذاً لندرك الخلاص الذي منحنا الرب إياه . كما أنه حجر زاوية في حياتنا الروحية ، لأنه إذا كان اللاهوت قد اتحد بالناسوت في شخص المسيح دون أن يبطل هذا الناسوت ، فذلك يعني انه يمكننا أن نتحد بالله ونتأله دون أن تذوب إنسانيتنا وتمحى . وهكذا يمكننا أن نفهم أهمية الجهاد الذي جاهدته الكنيسة لتحفظ عبر الأجيال الإعتقاد القويم في شخص المسيح ضد كل البدع التي حاولت ان تشوه هذا الإعتقاد .

المسيح شخص واحد

فقد ظهرت في القرن الخامس بدعة نادى بها نسطوريوس علمت أن المسيح شخصين أحدهما إلهي والآخر إنساني غير ملازمين بالضرورة أحدهما للآخر . وقالت بأن المسيح عندما ولد كان إنساناً محضاً ثم سكنت فيه الألوهية كما في هيكل ولازمته الى حين صلبه ، حينئذ فارقته

فلم يكن على الصليب سوى إنسان يتألم . ولذلك كان أتباع هذه البدعة يسمون العذراء مريم « والدة المسيح » وليس « والدة الإله ». ولكن هذه البدعة النسطورية التي تشق شخص المسيح الواحد ، مخالفة لتعليم الكتاب المقدس . فقد حيت أليصابات مريم الحبلى بيسوع قائلة لها : « من أين لي هذا أن تأتي أم ربي إلي ؟ »، وهذا الكلام الموحى به من الروح القدس (لأن أليصابات قالته وهي ممتلئة من الروح القدس) يعني أن مريم مزمعة أن تلد ليس مجرد إنسان بل الرب نفسه . كذلك المسيح المتألم والمهان على الصليب لم يزل حتى في تلك اللحظات أيضاً إلهاً ، كما يتضح من قول الرسول بولس : « لو عرفوا لما صلبوا رب المجد » (١ كورنثوس ٢ : ٨) : فالمصلوب هو إذاً بالوقت نفسه رب المجد . كذلك تحدث الرسول نفسه عن « كنيسة الله التي اقتناها بدمه » (أعمال ٢٠ : ٢٨) : فالدم الذي سفك على الصليب لم يكن مجرد دم إنسان إنما كان دم الله نفسه . وقد اجتمع المجمع الثالث المسكوني في أفسس سنة ٤٣١ لدحض هذه البدعة ، فأثبت أن المسيح شخص واحد غير متجزىء .

في طبيعتين

وكرد فعل للبدعة السابقة ، ظهرت في القرن الخامس أيضاً بدعة معاكسة نادى بها أفتيشيس (او أوطيخا) تقول بأن الطبيعة الإلهية في المسيح قد ابتلعت الطبيعة الإنسانية ولذا فالمسيح ليس فقط شخصاً واحداً ، كما تقول الأرثوذكسية ، بل طبيعة واحدة أيضاً وهي الطبيعة الإلهية التي ذابت فيها الطبيعة الإنسانية . ولذا دعيت هذه البدعة « بدعة الطبيعة الواحدة ». وقد حكم عليها المجمع الرابع المسكوني المنعقد في خلقيدون سنة ٤٥١ ، وأثبت ان يسوع ليس فقط إلهاً تاماً ولكنه أيضاً إنسان تام ، إنسان بالحقيقة وليس بالمظهر والخيال .

القول بالطبيعتين الذي حدده المجمع المسكوني الرابع لم تأخذ به الكنائس الشرقية القديمة (السريان، الأقباط، الأحباش، الأرمن). أن هذه الكنائس ترفض عبارة الطبيعتين ولكنها تكفر بآن اوطيخا القائل بذوبان الطبيعة الإنسانية بالطبيعة الإلهية. فيكون الإختلاف فيما بيننا وبينها إختلافاً لفظياً لا يمس جوهر العقيدة.

وهذا ما يتضح جلياً في الإنجيل كله إذ نرى فيه يسوع قد ولد كإنسان ونما وترعرع وكان يجوع ويعطش ويفرح ويتألم ويبكي وقد مات ودفن كإنسان. وكما كان يتكلم كإله قائلاً: «أنا والآب واحد» (يوحنا ١٠ : ٣٠)، كان يتكلم أحياناً كإنسان قائلاً: «أنني منطلق الى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (يوحنا ٢٠ : ١٧). وفي الظرف نفسه كان يتصرف كإله وإنسان مظهراً بذلك أن الطبيعتين الإلهية والإنسانية قائمتان كلاهما في شخصه الواحد. فمثلاً كإنسان تعب وعطش وطلب من السامرية ان تسقيه ماء كأله كشف لها خفايا حياتها. كإنسان بكى على لعازر وسأل أين وضعوه وكأله أقامه من بين الأموات. ولذا كتب يوحنا: «والكلمة صار جسداً» (يوحنا ١ : ١٤)، وورد في الرسالة الى العبرانيين: «إذ اشترك البنون في اللحم والدم اشترك هو أيضاً فيهما» (عبرانيين ٢ : ١٤).

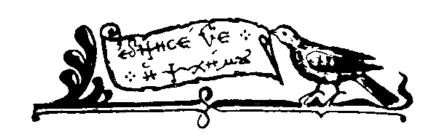
بمشيئتين

ولما استفحل الخلاف بين الأرثوذكس وأتباع الطبيعة الواحدة، أراد البعض، بضغط من الإمبراطور، أن يوفقوا بين وجهتي النظر، فاستعاضوا عن عبارة «طبيعة واحدة» بعبارة «مشيئة واحدة» قائلين أن في المسيح طبيعتين ولكن المشيئة الإنسانية فيه ذابت في المشيئة الإلهية. ولكن المجمع السادس المسكوني المنعقد سنة ٦٨٠ في القسطنطينية

دحض هذه البدعة الجديدة مثبتاً أن للمسيح إرادة إنسانية تتميز عن الإرادة الإلهية . فالإرادة الإلهية في المسيح هي إرادة الآب عينها : « أنا والآب واحد» (يوحنا ١٠ : ٣٠) .أما الإرادة الإنسانية فيه فقائمة بذاتها ولكن المسيح بحريته أخضعها طيلة حياته وحتى الموت ، موت الصليب ، لإرادة الآب . هذا ما يتضح في قول الرب : « لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني » (يوحنا ٥ : ٣٠) . فللمسيح إذاً كإنسان مشيئة متميزة عن مشيئة الآب ولكنه بحريته يرفض أن يدعها تختلف عن مشيئة الآب . وهذا ما يظهر أيضاً عندما صلى في بستان الجسمانية : « يا أبتاه إن شئت أن تعبر عني هذه الكأس » (متى ٢٦ : ٣٩) (وهنا ظهرت مشيئته الإنسانية بأن يعفى من الآلام) ولكنه أردف قائلاً : « ولكن لتكن مشيئتك وليس مشيئتي » (متى ٢٦ : ٣٩) (وهنا أخضع إرادته الإنسانية خضوعاً كاملاً للمشيئة الإلهية) .

ولكون الإرادة الإنسانية في المسيح متميزة عن الإرادة الإلهية لذلك كان من الممكن أن تجرب بالإستقلال عن الإرادة الإلهية . وبالفعل جرب المسيح لكي يصبح شبيهاً لنا بكل شيء حتى بتجاربنا . وقد روى لنا الإنجيل تجربتين حدثتا له إحداهما هي تجربته في البرية بعد صيامه (متى ٤ : ١ - ١١) والثانية تجربته برفض الآلام (متى ٢٦ : ٣٩) .ولا بد أن يسوع مر بتجارب أخرى طيلة حياته ولكنه كان دائماً باختياره يخضع إرادته الإنسانية لإرادة الآب وهكذا لم يرتكب خطيئة مع أنه شابهنا بكل شيء . لذا استطاع أن يتحدى أعداءه سائلاً إياهم بجرأة لا يقوى إنسان عليها : « من منكم يوبخني على خطيئة ؟» (يوحنا ٨ : ٣٦) . لذلك أيضاً استطاع ان يقول لتلاميذه قبل آلامه : « لأن رئيس هذا العالم يأتي (أي الشيطان) وليس له فيّ شيء » (يوحنا ١٤ : ٣٠) . وبهذا المعنى أيضاً كتب عنه الرسول بطرس : « إنه لم يعمل خطيئة ولا وجد في فمه غش » (١ بطرس ٢ : ٢٢) .

هكذا شاء الإله المتجسد أن يتخذ إرادة بشرية تامة لكي يجدد من الداخل إرادتنا الإنسانية المنفسدة وشاء أن يمر بتجاربنا كي يعطينا قوة التغلب على التجارب.



اسئلة

١ ـ من الذي أطلق على الإله المتجسد اسم « يسوع » ؟ (أنظر لوقا ١ : ٣١ ومتى ١ : ٣١). وما معنى هذه الكلمة؟

٢ ـ من هم «مسحاء الرب » في العهد القديم ؟ما العلاقة بين تسميتهم « بمسحاء » وتسمية يسوع « بالمسيح»؟

٣ ـ ما معنى قول الكنيسة الأرثوذكسية بأن للمسيح طبيعتين « بدون إنقسام أو إنفصال أو تحول أو إختلاط » ؟ كيف يعطينا الحديد المحمى بالنار صورة عن ذلك ؟

٤ ـ ما هي أهمية هذه العقيدة لفهمنا الخلاص ؟

٥ ـ هل تعلم شيئاً عن البدعة النسطورية وعن المجمع الذي حكم عليها ؟ كيف يفهم من الكتاب المقدس أن الألوهة في المسيح ملازمة للناسوت منذ الحبل به ؟ (أنظر لوقا ١ : ٤٣) وفي حين آلامه وصلبه ؟ (أنظر ١ كورنثوس ٢ : ٨ وأعمال ٢٠ : ٢٨) . هل يمكن أن نفهم الخلاص إذا لم نعتقد أن الألوهة في المسيح متحدة إتحاداً صميمياً بناسوته ؟

٦ ـ هل تعلم شيئاً عن بدعة « الطبيعة الواحدة » وعن المجمع الذي حكم عليها ؟
كيف يظهر من الإنجيل أن المسيح إنسان تام وأن طبيعته الإنسانية لم تذب وتضمحل في الطبيعة الإلهية ؟ هل تذكر حوادث إنجيلية يتصرف فيها المسيح في الظرف الواحد تارة كإله وطوراً كإنسان ؟ (أنظر مثلاً حادث السامرية ، يوحنا ٤ : ٥ ـ ٤٢ ، وحادث إقامة لعازر ، يوحنا ١١ : ١ ـ ٤٤) . ألا تظهر هذه الحوادث أن الطبيعتين الإلهية والإنسانية قائمتان كلاهما ومتميزتان أحداهما عن الأخرى في شخص المسيح الواحد ؟

٧ ـ هل تعلم شيئاً عن بدعة « المشيئة الواحدة » وعن المجمع الذي حكم عليها ؟
كيف يظهر من الإنجيل أن في المسيح مشيئتين وكيف تظهر العلاقة بينهما ؟ (أنظر يوحنا ٥ : ٣٠ ومتى ٢٦ : ٣٩) . ألا ينتج عن ذلك أنه كان ممكناً ان يجرَّب المسيح ؟ ألم يذكر الإنجيل أنه جُرِّب بالفعل ؟ (أنظر متى ٤ : ١ ـ ١١ ومتى ٢٦ : ٣٩) . ولكن هل ارتكب المسيح خطيئة أم مخالفة للإرادة الإلهية ؟ (أنظر يوحنا ٨ : ٣٦ ويوحنا ١٤ : ٣٠ و ١ بطرس ٢ : ٢٢) . ما معنى إتخاذ الإله المتجسد إرادة إنسانية تامة وقبوله باحتمال التجارب ، بالنسبة لخلاصنا ؟



ملحق

عاش القديس أثناسيوس الإسكندري في القرن الرابع واشترك في المجمع المسكوني الأول سنة ٣٢٥ إذ كان مساعداً لبطريرك الإسكندرية آنذاك إسكندر .

عقد هذا المجمع للنظر في تعليم آريوس الذي أنكر ألوهة الإبن فأقر بطلان هذا التعليم . ثم انتخب القديس أثناسيوس بطريركا على الإسكندرية واستمر يعلم الإيمان المستقيم في عظاته ورسائله ويدحض التعاليم الآريوسية :

«إن طابع الكتاب المقدس وغايته هما كما قلت لكم مراراً التبشير بعقيدتين خاصتين بالمخلص .

إنه إله منذ الأزل وهو الأقنوم الثاني اي الإبن وهو مجد الآب وحكمته بصفته الكلمة .

وفي الزمن أخذ الإبن جسداً من العذراء مريم والدة الإله وصار إنساناً من أجلنا .

وحينا نتصفح الكتاب المقدس نجد في العهد القديم التعاليم الخاصة بالكلمة وفي العهد الجديد أي الإنجيل نجد الإله المتجسد «لأن الكلمة صار جسداً وحل فينا» . هكذا كتب يوحنا الرسول في بدء إنجيله .

إنه صار إنساناً ولم يحل في إنسان . وينبغي ان نعرف ذلك جيداً

حتى لا نسقط في ضلال جديد . فهناك قوم يمكنهم ان يفكروا هكذا قائلين : في قديم الزمان كان الكلمة يأتي في كل واحد من القديسين . وقد أتى الآن أيضاً بالطريقة نفسها في إنسان . وجعله هو أيضاً قديساً بظهوره فيه كما ظهر في الآخرين .

لو كان الأمر كذلك ، أي لو أن تجسد الكلمة كان على نحو ظهوره في القديسين ، لما كان هناك أي عجب ، ولما تساءل أولئك الذين شاهدوه وعاينوه قائلين : من أين أتى هذا ؟ ولما أضافوا : كيف وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً ؟ (يو ١٠ : ٣٣) .

في الحقيقة أن كلمة الله الذي به كان كل شيء ، رضي أن يصير إنساناً ، وتواضع على حد تعبير بولس الرسول الذي قال عنه : أخذ صورة العبد . ولذلك صار الصليب موضوع شك لليهود .

أما بالنسبة لنا فالمسيح هو قوة الله وحكمته (اكو ١ : ٢٢ و٢٤).

وقال يوحنا الرسول : والكلمة صار جسداً .

في الزمن السابق كان الكلمة يأتي في القديسين ويقدس أولئك الذين يقبلونه باحترام . ولكنه لم يصر واحداً معهم . ولم يقل أحد عنهم عند ميلادهم : أن الكلمة صار جسداً . وعندما تألموا لم يقل أحد عنهم : أن الكلمة قد تألم .

ولكن حينما أتى الكلمة على الأرض مولوداً من مريم ، ولأن الآب « رأى إبنه بالطبيعة مولوداً من امرأة » (غلا ٤ : ٤) حينئذ قيل عنه : أنه أخذ جسداً وصار إنساناً . وفي هذا الجسد تألم من أجلنا كما يقول

بطرس الرسول : إن المسيح تألم من أجلنا في جسده (٣ بط٢ :٢٤ و ٤ : ١) ليظهر للجميع ويجعلهم يؤمنون أنه إله منذ الأزل ، ويقدس أولئك الذين يأتي فيهم . وهو يعمل كل شيء حسب إرادة أبيه . وفي الزمن صار هو ذاته إنسانا من أجلنا . وكما يقول بولس الرسول : سكن اللاهوت جسمياً في جسده (كولولسي ٢ : ٩) وكأننا نقول : وإذ هو إله أخذ جسده ذاته واستعمله كآلة ، وصار إنساناً من أجلنا .

ولذلك امتلك كل ما يخص الطبيعة البشرية : أي الجوع والعطش والألم والتعب وما شابه ذلك مما يتعرض له الإنسان . وكذلك الأعمال الخاصة بالكلمة : كإقامة الموتى وشفاء المرضى . وكان يقوم بها بواسطة جسده ذاته . وهكذا احتمل الكلمة أمراض الجسد وعاهاته . لأن الجسد كان جسده . وكان جسده مشتركاً في أعمال ألوهته . لأن الألوهة كانت في الجسد ، ولأن هذا الجسد كان لله .

أجل فإن الرب حينما قبل أن يلبس الطبيعة البشرية ، لبسها كاملة ولبسها بعاهاتها .

من ذا الذي لا يعجب لذلك ؟ من ذا الذي لا يعتبر ذلك عملاً إلهياً ؟ نعم فلو لم تتم أعمال ألوهة الكلمة في الجسد ، لما استطاع الإنسان أن يشترك في الألوهة .

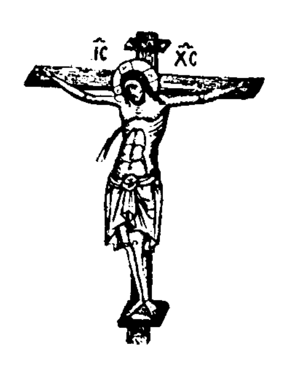
إنما الآن كما أن جميع من يولدون من الأرض يموتون في آدم . فإنهم كذلك أيضاً يجددون من فوق بالماء والروح . وكلنا نحيا في المسيح . ولم يعد جسدنا مرتبطاً بالأرض ولكنه يتجلى بكلمة الله الذي صار جسداً بيننا » .

القديس أثناسيوس الإسكندري

الفصل السادس

الفداء

« . . . وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي وتألم وقبر وقام في اليوم الثالث كما هو في الكتب . وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب وأيضاً يأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملكه . . . »



١ ـ الصلب

إن الفداء إمتداد وتكملة لعمل التجسد . هذا الفداء الذي بلغ بالصليب قمته يمكن ان يُنظر إليه من ثلاث وجهات نظر :

ـ بالصليب حطّم المسيح حواجز أنانيتنا .

ـ بالصليب أخذ المسيح على ذاته خطيئتنا .

ـ بالصليب انتصر المسيح على الألم والموت بدخوله فيهما .

* بالصليب حطم المسيح حواجز أنانيتنا

بالتجسد أصبح الله حاضراً في الإنسان ليجدده ويشفيه ويشركه في حياته الالهية . ولكن بقي أن يزال الحاجز الذي أقامته الخطيئة في صميم الإنسان بينه وبين خالقه . هذا الحاجز هو كما رأينا إنغلاق الإنسان ، إنطواؤه على نفسه دون الله ، هو عبادة الأنا التي حكمت على الإنسان بعزلة مميتة . كان ينبغي إذاً تحطيم هذا الحاجز لتتدفق في الإنسان حياة الله ، لأن الإنسان الممتلىء من ذاته لم يعد لله مكان فيه . لذلك عندما اتخذ ابن الله طبيعة الإنسان ، داوى أنانيتها بالإنفتاح الكامل والعطاء الكامل اللذين حققهما في إنسانيته .

فإنه طيلة حياته على الأرض ، لم يرد أن يتمتع بالمجد الإلهي الذي كان كامناً فيه . فإنه « أخلى ذاته آخذاً صورة عبد » (فيليبي ٢ :

٧). أخلى ذاته من التمتع بالمجد الإلهي وقبل طوعاً بوضع « العبد ».
فضّل العطاء على التمتع ، ومع أن كل شيء كان في متناول يده ، أراد
أن يبذل لا أن يأخذ ، « أن يخدُم لا أن يخدَم » (متى ٢٠ : ٢٨). إنه « لم
يرض نفسه » (روميه ١٥ : ٣) ولكن حياته كلها كانت قرباناً لله الآب
وللبشر الذين صار أخاً لهم . فقد ولد فقيراً في مذود البهائم وتشرد عند
إضطهاد هيرودس له . وعاش معظم حياته عاملاً مجهولاً : « أليس هو
النجار ، إبن مريم ؟» (مرقس ٦ : ٣). وطاف يبشر فيما « لم يكن له
موضع يسند إليه رأسه » (متى ٨ : ٢٠) . ورفض أن يصنع آية في
السماء ليبهر بها البشر (متى ١٦ : ١و٤) ولكنه كان يصنع العجائب
رأفة بالمعذبين و « يشفي كل الم وكل سقم في الشعب » (متى ٤ : ٢٣).
وقد احتمل عدم إيمان الكثيرين ، حتى أقاربه الذين كانوا ينعتونه
بالجنون وتلاميذه الذين لم يفهموا رسالته حق الفهم والذين تركوه كلهم
وفروا حين تسليمه ، وباعه أحدهم وأنكره آخر . وصبر على إهانات
وشتائم وإضطهادات أعدائه الذين كانوا ينعتونه « بأن به شيطاناً »
(يوحنا ٨ : ٤٨) ،ولم يرد أن ينتقم منهم بل انتهر يعقوب ويوحنا عندما
طلبا إنزال نار من السماء لإحراق قرية رفضت أن تستقبله (لوقا ٩ : ٥١
ـ ٥٦) ،وزجر بطرس عندما أراد أن يدافع عنه بالسيف ، وصلى من أجل
قاتليه . وأراد ، وهو المعلم والسيد، أن يكون وسط تلاميذه كالخادم (لوقا
٢٢ : ٢٧) وأن يغسل أرجلهم (يوحنا ١٣ : ٤و٥) .

هذا العطاء الذي به أراد المسيح ان يستأصل أنانيتنا ، بلغ ذروته
في الصليب. كان في وسع المسيح أن لا يموت بالنظر للاهوت الكامن فيه،
ولكنه ذهب في تخليه عن « الأنا » الى أقصى الحدود ، باذلاً ذاته
للموت . وهكذا قدم حياته على الصليب قربان محبة للآب ، تعبيراً عن
تخليه التام عن مشيئته الذاتية ، كما قال بنفسه في بستان الجسمانية :
« لتكن مشيئتك وليس مشيئتي » (متى ٢٦ : ٢٥).وكما ورد عن

لسانه في الرسالة الى العبرانيين ، مخاطباً الآب : « ذبيحة وقرباناً لم تشأ ، غير أنك هيأت لي جسداً ، لم ترتض محرقات ولا ذبائح خطيئة ، حينئذ قلت : ها أنذا آتي - إذ عني قد كتب في رأس المصحف - لاعمل ، يا الله ، بمشيئتك » (عبرانيين ١٠ : ٥ - ٧) .

هكذا تمرّد آدم ، فأطاع المسيح . تكبّر آدم ، فتواضع المسيح . اكتفى آدم بذاته ، فتخلى المسيح عن ذاته « ووضع نفسه وصار طائعاً حتى الموت اي موت الصليب » (فيليبي ٢ : ٨) . وهكذا بإنسانيته المبذولة ، المعطاة ، أعطى البشرية الدواء الشافي لداء الأنانية الذي فصلها عن الله .

* بالصليب أخذ المسيح على ذاته خطيئتنا

ومن وجهة نظر أخرى ، نرى ان الرب يسوع ، لكي ينقذنا من الخطيئة التي أصبحنا نئن تحت وطأتها ، شاء ان يأخذها على نفسه ، لا أن يأخذها هي بل ان يحتمل في ذاته كل نتائجها المريعة حبا بنا . إن المحب يود لو أنه يستطيع ان يأخذ على نفسه مرض المحبوب ليخلصه من وطأته . ولكن ما لا يستطيع ان يفعله الحب البشري ، استطاع يسوع أن يتممه إذ أنه ، لأجل محبته لنا ، أخذ على نفسه مرضنا لينقذنا منه : « إنه أخذ عاهاتنا ، وحمل وأوجاعنا » (أشعياء ٥٣ : ٤ ومتى ٨ : ١٧) .

فإنه وهو البريء من كل خطيئة ، أخذ على نفسه كل الشقاء الذي جرّته الخطيئة على الجنس البشري : فقد احتمل عارها وذلها ولعنتها والظلمة والعزلة والألم والموت التي نتجت عنها . أراد أن يكون على الصليب محتقراً ، ذليلاً ، مهاناً ، « لا صورة له ولا جمال » (أشعياء ٥٣ : ٢) ، « رجل أوجاع ومتمرساً بالعاهات » (أشعياء ٥٣ : ٥) ، « مزدرى ومخذولاً من الناس » (٥٣ : ٣) وكأنه متروك من الله نفسه :

« إلهي إلهي ، لماذا تركتني » (متى ٢٧ : ٤٦) ، حاصلاً في ظلمة وحزن مميتين : « نفسي حزينة حتى الموت » (متى ٢٦ : ٣٨) .

هكذا تجسمت في المسيح - وهو لم يعرف خطيئة - كل مأساة خطيئة البشر : « كلنا ضللنا كالغنم ، كل واحد ضل في طريقه ، فألقى الرب عليه كل آثامنا » (أشعياء و٥٣ : ٦) وكأنه صار هو « خطيئة » على حد تعبير الرسول بولس :« لأنه جعل الذي ليست فيه خطيئة خطيئة من أجلنا » (٢ كو ٥ : ٢١) .

وهكذا فإن يسوع المسيح على الصليب ظهر لله الآب مجسماً في جسده الجريح ، الممزق ، المختنق ، وفي نفسه المنسحقة ، بشاعة كل خطيئة البشر التي اخذها على نفسه فصار شفيعاً للخطأة أجمعين عندما وحّد ذاته معهم : « أفاض للموت نفسه وأحصي مع العصاة وهو حمل خطايا كثيرين وشفع في العصاة » (أشعياء ٥٣ : ١٢). ذلك أن الله الآب لم يعد ينظر إلى الخطأة إلا من خلال هذه الصورة ، صورة إبنه الوحيد الحبيب المصلوب الذي جعل نفسه كواحد منهم . وبهذا المعنى يتابع الرسول : « لأنه جعل الذي ليست فيه خطيئة خطيئة من أجلنا لكي نصير نحن ، به ، بر الله » (٢ كو ٥ : ٢١) .أي أن الله تصالح مع البشر الخطأة وغفر خطاياهم وبررهم وضمهم إليه من خلال شخص الإبن الحبيب الذي وحّد ذاته معهم .

هكذا كان الحمل الذي كان يذبح في الهيكل صباحاً ومساء تكفيراً عن خطايا الشعب رمزاً و إشارة الى المسيح الذي قال عنه يوحنا المعمدان : «هوذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم» (يوحنا ١ : ٢٩) .

* بالصليب انتصر المسيح على الألم والموت بدخوله فيهما

وهناك أخيراً معنى ثالث بالغ الأهمية يتجلى في الصليب . لقد دخل البشر بالخطيئة في مملكة الموت (وبلغة الكتاب والأباء تدعى « الجحيم ») وساد عليهم الحزن والألم والضعف والفناء . لقد أصبحوا كمن أغلق عليهم في سجن مظلم رهيب . لقد كان بإمكان الله ان يحررهم من الخارج ، بكلمة منه فقط ، بإرادته الفائقة . ولكن محبته دفعته أن يشارك البشر أولاً مصيرهم لكي يوحد ذاته معهم . المحبة تدفع المحب الى مشاركة المحبوب في آلامه ، هكذا محبة الله « الجنونية » للإنسان ، كما نعتها كابازيلاس ، لم تدفعه إلى اجتياز الهوة الفاصلة بين الخالق والمخلوق وحسب ـ وهذا هو التجسد ـ بل إلى مشاركته أيضاً في جحيم بؤسه .

فالإله الذي بتجسده « شارك البنين في اللحم والدم » (عبرانيين ٢ : ١٤) شاء أن يصير شبيهاً في كل شيء بالبشر الذين اتخذهم أخوة له (عبرانيين ٢ : ١٧) ، أن يشاركهم أيضاً بكل ما تعرض له هذا اللحم والدم ، من جراء الخطيئة ، من حزن وضيق وآلام وموت . هكذا اكتمل التجسد ودخل ابن الله الى صميم الطبيعة الإنسانية ، مختبراً إياها بكل شقائها ، حتى يشعر الإنسان في حزنه وبؤسه ، في آلامه الجسدية والمعنوية ، في نزاعه وموته ، انه محبوب ، وأن الله نفسه شاركه في ذلك كله . لقد جعل الله نفسه طريح الألم لكي لا يشعر الإنسان أنه يعانيه وحده بل برفقة الإله المتجسد الذي عاش آلام الإنسان في نفسه وجسده ، بمعية ذاك الذي كُتب عنه : « إذ أنه ، هو نفسه ، تألم وابتلى ، صار في طاقته أن يغيث المبتلين » (عبرانيين ٢ : ١٨) .

هكذا دخل يسوع ، حباً بالإنسان ، مملكة الموت التي كان غريباً

عنها إطلاقاً ، ليس فقط من حيث ألوهته التي هي ينبوع الحياة ، بل من حيث إنسانيته أيضاً . فإنسانية يسوع لم تعرف الخطيئة البتة ولذلك فقد كانت بالكلية غريبة عن مملكة الموت ، ذلك الموت الذي انجرف إليه الإنسان بالخطيئة . مملكة الموت هي مملكة الشيطان الذي قتل الناس بالخطيئة ، ولم يكن للشيطان شيء في إنسانية يسوع البريئة من كل عيب ، ولذا قال يسوع لتلاميذه قبل تسليمه بقليل : « إن رئيس هذا العالم (أي الشيطان الذي تسلط على العالم بالخطيئة) يأتي (أي أن يسوع سوف يدخل بالموت الى مملكته) وليس له فيّ شيء » (يوحنا ١٤ : ٣٠) . في تلك المملكة التي كان غريباً عنها بالكلية ، مملكة الموت والشيطان الذي له « سلطان الموت » (عبرانيين ٢ : ١٤) ، دخل يسوع حباً بالإنسان سجين ذلك العالم الرهيب .

ولكن مملكة الموت لم يكن بوسعها ان تضبط سيد الحياة والقدوس البريء من الخطأ . لذا كان دخول يسوع فيها مقدمة لتحطيمها وتحرير الإنسان منها . هكذا لما شاركنا الرب في الآلام والموت أعتقنا من الموت والآلام ، ولما اسلم ذاته لذلك العالم الرهيب الذي أوجدته الخطيئة ضرب قوى الخطيّئة الكامنة فينا ضربة قاضية . عندما طرح نفسه في ظلمتنا ، أضاءها بنوره ، وعندما شاركنا في موتنا اعطانا حياته . هكذا تحققت نبؤة أشعياء التي رددها الإنجيل مطبقاً إياها على يسوع : « الجالسون في بقعة الموت وظلاله أشرق عليهم نور » (أشعياء ٩ : ٢ ومتى ٤ : ١٦). هذا ما عبّرت عنه الرسالة الى العبرانيين : « إذ قد اشترك البنون في اللحم والدم ، اشترك هو كذلك فيهما لكي يبيد بموته من كان له سلطان الموت ، أعني إبليس » (عبرانيين ٢ : ١٤).

أسئلـــة

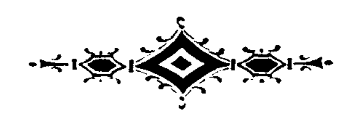
١ ـ كيف كان الصليب واسطة لتحطيم حواجز الأنانية التي تفصل الإنسان عن الله ؟ أليست قيمة الصليب هي في البذل الكامل الذي يعبِّر عنه ؟ (أنظر متى : ٢٦ : ٢٥ ، فيليبي ٢ : ٢٨ ،عبرانيين ١٠ : ٥ ـ ٧).

٢ ـ ألم يكن بإمكان المسيح ان يتمتع بالمجد الإلهي الكامن فيه ؟ هل قبل بهذا التمتع أم اتبع طريق « إفراغ الذات»؟ (أنظر فيليبي ٢ : ٦ و٧ ورومية ١٥ : ٣). بيِّن انه اتبع هذه الطريق في كل مراحل حياته (أنظر في سبيل المثل مرقس ٦ : ٣ ومتى ٨ : ٢٠ ويوحنا ٨ : ٤٨ ولوقا ٢٢ : ٢٧ ويوحنا ١٣ : ٤ و٥ ويوحنا ١٨ : ١١ . . .).

٣ ـ ألا يشاء المحب ان يأخذ على نفسه مرض المحبوب ليخلصه من وطأته ؟ألم يفعل المسيح ذلك بالنسبة لنا ، نحن البشر الخطأة ؟ (أنظر أشعياء ٥٣ : ٤و٦ ومتى ٨ : ١٧). كيف تم ذلك على الصليب؟ ألم يكن المسيح عند ذاك ـ وهو لم يعرف خطيئة ـ مجسماً في ذاته كل مأساة الخطيئة (أنظر أشعياء ٥٣ ومتى ٢٧ : ٤٦)؟

٤ ـ ألم يصبح المسيح هكذا شفيعاً للخطأة ؟ (أنظر أشعياء ٥٣: ١٢ و ٢ كورنثوس ٥ : ٢١). أليس ذلك لأن الله لم يعد ينظر إلى الخطأة إلا من خلال إبنه المصلوب الذي وحّد نفسه معهم ؟ كيف تفهم على ضوء ذلك عبارة يوحنا المعمدان عن يسوع الواردة في يوحنا ١ : ٢٩ ؟

٥ ـ لقد دخل الإنسان بالخطيئة في مملكة الشقاء والموت . ألم يكن يسوع غريباً عن هذه المملكة ؟ لماذا قبل إذاً أن يدخل فيها بالصليب ؟ ألا يدفع الحب إلى مشاركة المحبوب في آلامه ؟ ألم يكن دخول يسوع مملكة الموت قضاء مبرماً عليها ؟(أنظر عبرانيين ٢ : ١١ ـ ١٨ وأشعياء ٩ : ٢ ومتى ٤ : ١٦).



ملحق

١ ـ القديس مكسيموس المعترف هو أحد كبار معلمي الكنيسة . عاش راهباً في القرن السابع ودافع عن إستقامة الرأي بكتاباته بجرأة دفعت الإمبراطور البيزنطي الذي كان يرعى بدعة المشيئة الواحدة أن يأمر بقطع يده ولسانه ، فلقب هكذا بالمعترف ، لأنه تألم من أجل الايمان . في المقطع الذي نثبته فيما يلي ، يصف القديس مكسيموس ، مستخدما صوراً رمزية ، كيف أنقذنا المسيح من عبودية الشيطان بدخوله في مملكته بالموت .

« لقد علق السيد جسده الإنساني كطعم بصنارة الوهته ، كأنه يريد بذلك ان يجتذب الشيطان . وبالفعل هذا التنين العقلي ، النهم الى جسد الإنسان فغر فاه حول هذا الطعم ، حاسباً إياه ، من جراء طبيعته الإنسانية ، سهل المنال . وهكذا علق بصنارة الألوهة . بعد ذلك أرغمه جسد الكلمة المقدس ان يلفظ كلياً الطبيعة الإنسانية التي كان سبق فابتلعها . وهكذا فالذي كان قد أغوى الإنسان مؤملاً إياه بالتأليه وابتلعه على هذا المنوال ، اجتذب بدوره بجسد الإنسان ذاته وأرغم على لفظ ما كان قد ابتلعه . وهكذا تجلت القدرة الإلهية بشكل ساطع : فقد انتصرت على قوة الغالب مستخدمة بمثابة سلاح ضعف الطبيعة المغلوبة . منذ ذلك الحين أصبح الله الظافر بطبيعته الإنسانية وليس الشيطان بوعده الإنسان بالطبيعة الإلهية » .

مكسيموس المعترف : سر الخلاص

٢ ـ يسوع المسيح ، إبن الله الوحيد ، وحّد ذاته مع البشر العصاة إذ احتمل بالصليب كل لعنـة الخطيئـة . و « أُحصي مع الأثمـة ».لذلك أصبح للبشر الخطأة الدالة أن ينـادوا الآب « أبانـا » من خلال الإبـن الوحيد الذي صار واحداً منهم . هذا ما عبّر عنه الشاعر باغي Péguy بالسطور التالية :

« أبانا الذي في السمـوات ، لقد علمهم إبني هذه الصلاة . . .
« أبانا الذي في السموات ، لقد كان يعرف ماذا يصنع ، في ذلك اليوم ، إبني الذي كان يحبهم بهذا المقدار .

« الذي عاش بينهم ، الذي كان واحدا مثلهم .
« الذي كان يسير مثلهم ، ويتكلم مثلهم ، ويعيش مثلهم .
« الذي كان يتألم .
« الذي تألم مثلهم ، الذي مات مثلهم . . .
« إبنـي الـذي أحبهـم بهـذا المقـدار ، الـذي يحبهـم أبـدياً في السماء . . .

« أبانا الذي في السموات ، تلك الثلاث أو الأربع كلمات . .
« تلك الكلمات التي تسير أمام كل صلاة كما تسير يدا المتوسل أمام وجهه ،
« كما ان يدي المتوسل المضمومتين تتقدمان أمـام وجهـه ودمـوع وجهه . . .

« هذا ما أخبرهم إبني عنه . لقد سلم إليهم إبني
« سر الدينونة نفسها .
« والآن هكذا يبدون لي ، هكذا أراهم ،
« هكذا أنا مرغم أن أراهم .

« كما أن أثر سفينة جميلة لا يزال يتسع حتى يتلاشى ،

« ولكنه يبدأ برأس ، وهو رأس السفينة ذاته ،

« هكذا موكب الخطأة الهائل لا يزال يتسع حتى يتلاشى ،
« ولكنه يبدأ برأس ، وهذا الرأس يأتي إليّ ، متجهاً نحوي .

« يبدأ برأس هو رأس السفينة ذاته .
« والسفينة هي إبني نفسه ، حاملاً كل خطايا العالم .
« ورأس السفينة هو يدا إبني المضمومتان .

« وأمام نظرة غضبي وأمام عدالتي
« اختفوا كلهم وراءه . . .

« أبانا الذي في السموات ، لقد اخترع ذلك .
« لقد كان معهم ، لقد كان مثلهم ، لقد كان واحداً منهم .
« أبانا . كمثل رجل يلقي معطفاً كبيراً على كتفيه ،
« ارتدى ، متجهاً نحوي ،
« معطف خطايا العالم . . . »

Charles Péguy: Le Mystère des Saints Innocents.



٢ ـ القيامـة

القيامة إنفجار قوة الفـداء المحيية . ويمكننـا لجـلاء معانيهـا أن نتأملها من وجهتي النظر التاليتين :

ـ القيامة فيض الحياة الإلهية في إنسانية يسوع المنفتحة الى الله بعطاء كامل .

ـ القيامة تفجير لمملكة الموت بدخول سيد الحياة فيها .

* القيامة فيض الحياة الإلهية في إنسانية يسوع المنفتحة الى الله بعطاء كامل

إن الرب يسوع بالصليب بلغ قمة التخلي عن إرادته الذاتية وقدم ذاته بكليته إلى الله الآب ، تقدمة محبة كاملة وعطاء لا تحفظ فيه . هكذا أصبحت إنسانية يسوع منفتحة كل الإنفتاح الى الله الآب في شركة حب كاملة معه ، ولذا تدفقت فيها الحياة الإلهية كلها وتحولت بالمجد الإلهي . لقد كان مجد الألوهة بالطبع حالاً في المسيح مند تجسده ، إذ لم يزل إلهاً بعد أن اتخذ جسدنا ، إلا أن هذا المجـد كان مستتـراً ، محجوبـاً وراء الطبيعة البشرية التي اتخذها ابن اللـه بحدودهـا وشقائهـا . لذا جاع المسيح وعطش وبكى وتألم . لقد كانت الألوهة مستقرة في قلب كيانه ولكنه كان يبدو في الظاهر إنساناً كبقية الناس . ولكن عندمـا اكتمـل

عطاء يسوع بالصليب إجتاح المجد الإلهي الكامن فيه والمحتجب وراء طبيعته الإنسانية هذا الناسوت كله وملأه بقوة الله وحياته وجماله.

عند الفجر تكون الشمس أولاً متخفية وراء الأفق ، يتراءى نورها خفيفاً ، ناعماً ، لا يبهر الأنظار ، ثم ينفجر النهار ويغمر النور الكون كله ويضفي على الأشياء كلها بهاء ساطعاً . هكذا ألوهة الرب يسوع المستمدة أزلياً من الله الآب فاضت بالصليب في ناسوته المنفتح كلياً الى الآب ، فتمجد هذا الناسوت وانتصر على الموت .

لقد كانت حادثة التجلي (أنظر مثلا متى ١٧ : ١ - ٩ ولوقا ٩ : ٢٨ - ٣٦) مقدمة.وصورة للقيامة كما يتضح من توصية يسوع بعد الحادثة (أنظر متى ١٧ : ٩). فعلى جبل التجلي فاض نور الألوهة، المستقر في يسوع ، في جسده ، فتغير منظره وصار وجهه مضيئاً كالشمس وثيابه بيضاء كالثلج ، لامعة كالنور. وقد حدث هذا التحول عندما كان موسى وإيليا ، اللذان ظهرا ، يتحدثان مع يسوع «عن خروجه (أي عن موته) الذي كان مزمعاً أن يتممه في أورشليم » (لوقا ٩ : ٣١) . لقد تجلى يسوع عندما كان يتحدث عن موته ، وفي ذلك إشارة إلى أن إنسانية يسوع كانت سوف تتمجد بالموت .

تلك العلاقة الوثيقة بين الصليب وتمجيد يسوع ، قد اوضحها الكتاب المقدس في مواضع مختلفة . ففي إنجيل يوحنا نرى يسوع يقول لتلاميذه قبل آلامه بفترة وجيزة : « لقد حانت الساعة التي يمجد فيها ابن البشر » (يوحنا ١٢ : ٢٣)،وأضاف موضحاً كيف يتم هذا التمجيد : « الحق الحق أقول لكم : أن حبة الحنطة التي تقع في الأرض ، إن لم تمت فإنها تبقى وحدها ، وأما إن ماتت فإنها تأتي بثمر كثير » (يوحنا ١٢ : ٢٤). تمجيد يسوع هو إذاً في موته . كذلك في الصلاة التي تفوّه بها يسوع قبل خروجه مع تلاميذه الى بستان الجسمانية حيث أسلم ، قال :

« يا أبتاه لقد أتت الساعة ! فمجِّد إبنك . . . » (يوحنا ١٧ : ١). « الساعة » التي أتت هي ساعة الصليب والموت كما يتضح من مكان آخر : « فطلبوا عندئذ أن يقبضوا عليه ، إلا أن أحداً لم يلقِ عليه يداً ، لأن **ساعته** لم تكن بعد قد حانت » (يوحنا ٧ : ٣٠). « أتت الساعة ، فمجد إبنك » يعني إذاً أن ساعة الموت كانت بالنسبة ليسوع ساعة المجد .

الصليب إذاً كان يحمل كل طاقة القيامة : لقد دخل يسوع في المجد عندما قبل باجتياز الموت ولم يبقَ بعد ذلك إلا أن يظهر هذا المجد بنهوضه من بين الأموات . بالصليب إذاً تحققت القيامة ، لذلك فقد كانت آلة العار هذه بالنسبة ليسوع عرش المجد والظفر . لذا شبهها الرسول بولس بتلك المركبة التي كان يقف عليها قادة روما الظافرون ويدخلون بها الى المدينة جارّين وراءهم رؤساء الأعداء مقيّدين . هكذا اعتلى المسيح الصليب كمركبة ظفر وربط بها الأرواح الشريرة مقيدة ذليلة : « ومحا الصك الذي كان علينا ، الذي كان ضدنا بأحكامه ، وأزاله مسمراً إياه على الصليب وجرد الرئاسات والسلاطين (أي الشياطين) وشهرهم بأبهة ظافراً عليهم فيه (أي الصليب) » (كولوسي ٢ : ١٤ و ١٥) . لذا نرى الفن البيزنطي يرسم أحياناً المصلوب متوجاً . وللسبب عينه كان المسيحيون قديماً في آسيا الصغرى ، تبعاً لتقليد أخذوه عن يوحنا الحبيب ، يعيّدون للقيامة يوم الجمعة العظيمة ، وفي أيامنا هذه ، عندما تحتفل الكنيسة الأرثوذكسية بحزن وخشوع في سحر الجمعة العظيمة بذكرى الصلب منشدة ذاك النشيد المؤثر : « اليوم علق على خشبة الذي علق الأرض على المياه . . . »، تهتف في آخره : « نسجد لآلامك أيها المسيح ، فأرنا قيامتك المجيدة »، مظهرة هكذا أنه حينما بلغت الظلمة أشدها بموت المسيح ، انفجر النور في صميمها ولم يبقَ لنا إلا إنتظار ظهوره في صباح الفصح . كذلك في

خدمة « جناز المسيح »، التي يحتفل بها بتذكار دفن السيد ، تنشد مع المراثي ترانيم للقيامة .

* القيامة تفجير لمملكة الموت بدخول سيد الحياة فيها

ومن جهة أخرى فقد رأينا ان الرب يسوع دخل في مملكة الموت (وبعبارة اخرى في الجحيم) لكي يشارك الإنسان بؤسه وشقاءه . ولكن الموت لم يكن بإمكانه أن يضبط من هو بلاهوته سيد الحياة ومصدرها . لذلك فقد كان دخول المسيح في الموت حكماً مبرماً على الموت بالزوال . والموت نتيجة الخطيئة ، ثمرتها السامة ، لذا تحطيم مملكة الموت يعني أيضاً تقويض سلطة الخطيئة . لقد دخل يسوع بموته في السجن الذي كنا فيه مقيَّدين ، مستعبَدين ، نئن تحت نير الشر والبؤس والموت ، فدك هذا السجن الرهيب وحطمه من أساسه . فأطلق الموت يسوع وأطلق معه البشرية جمعاء التي وحّد يسوع ذاته بها . لذا تنشد الكنيسة معبرة عن هذا الخلاص بصور شعرية : « أيها الرب ، أن أبواب الموت قد انفتحت لك من الخوف ، ولما أبصرك بوابو الجحيم ارتعدوا ، لأنك حطمت أبوابه النحاسية وسحقت أقفاله الحديدية وانقذتنا من ظلمة الموت وإدلهامه وقطعت قيودنا » . وأيضاً : « جمع الملائكة انذهل متحيراً لمشاهدتهم إياك محسوباً بين الأموات أيها المخلص وساحقاً قدرة الموت ومنهضاً آدم معك ومعتقاً إيانا من الجحيم كافة » .

هكذا تحققت بقيامة المسيح النبوة التي كان قد تفوّه بها هوشع النبي : « سأفتديهم من يد الجحيم وأنجيهم من الموت وأكون هلاكك أيها الموت وأكون إستئصالك أيها الجحيم » (هوشع ١٣ : ١٤). تلك النبوة ردد الرسول بولس صداها بعدما تحققت بالمسيح منشداً بنشوة الظفر الذي جعلنا يسوع مساهمين فيه : « لقد ابتلع الموت في الغلبة .

أين شوكتك يا موت ، أين غلبتك يا جحيم » (١كور ١٥ : ٥٤ و ٥٥)، وأضاف : « إن شوكة الموت هي الخطيئة . . . ولكن الشكر لله الذي يؤتينا الغلبة بربنا يسوع المسيح » (١ كور ١٥ : ٥٦ و٥٧) ، معلنا ان إنتصار المسيح على الموت هو في الآن نفسه إبادة للخطيئة فينـا ، تلك الخطيئة التي تنتج الموت .

هكذا صار يسوع النـاهض من بـين الأمـوات محـرر الإنسـانية الحقيقي الأوحد لأنه لم يكتف بمعالجة بعض مظاهر مأساة الإنسان لكنه جابه المأساة في أعماقها وأصولها وجعل فينا طاقة تجاوزها . إنه جابه قوى الموت الكامنة في الإنسان (أي قوى التفكك التي مزقت الإنسان نفساً وجسماً) ومن ورائها تلك القـوة الرهيبـة التـي استخدمتهـا لاستعبـاد الإنسان أعني بها قوة الشيطان . لقد جابه يسوع الشيطان في عقر داره إذا صح التعبير، وضع نفسه بين براثنه ليحطمـه ويخلص منـه البشر. دخل إلى مملكته المظلمة ليقيده ويبطل قوته. وقد علمنا الـرب يسـوع نفسه هذه الحقيقة بمثل عندما قال: «إذا كان القوي المتسلح يحرس داره كانت أمتعته في أمان. ولكن إذا جاء من هو أقوى منه وغلبه، فإنه يجرده من جميع سلاحه الذي كان يعتز به، ويقسم غنائمـه» (لوقـا ١١ : ٢١ و٢٢).

هكذا انتصر المسيح على الموت لما اجتاز ظلمته ، لقـد « وطـىء الموت بالموت » كما تنشد الكنيسة . لقد فتح باب النـور والحياة بيديه الداميتين . ولكنه أحرز هذا الظفر من أجلنا نحن ، ليجعلنا مساهمين فيه : نحن ظافرون إذاً على قدر إتحادنا بالمسيح الظافر . نعم ، إننا لا نزال نخطىء ونتألم ونموت ، ولكن طاقة الحياة الظافرة قد زرعـت في أعماقنا . من يمر على حقل بعد أن زرعت فيه البذور يخاله جامداً، ميتاً،

ولكن الحياة كامنة في أعماقه تتحفز للوثوب وسوف تنتصب بعد فترة تحت السماء سنابل ذهبية تتماوج في النور . عندما كان يسوع موضوعاً في القبر ، كان يبدو ميتاً كبقية الأموات ولكن الحياة كلها كانت كامنة في هذا الجسد الساكن ، كقنبلة مؤقتة كان لا بد لها أن تفجر الموت وتدحرج حجر الضريح . هكذا فالمتحدون بيسوع يحملون في أجسادهم المائتة ونفوسهم التي لم تتحرر بعد كلياً من ضعفها ،طاقة قيامة ربهم التي سوف تحولهم في اليوم الأخير على صورة السيد الناهض من بين الأموات ، « لأن لا بد لهذا الفاسد أن يلبس عدم الفساد ولهذا المائت أن يلبس عدم الموت » (١ كور ١٥ :٥٣) . وقد كتب الرسول يوحنا بهذا المعنى ، مظهراً كيف أننا في آن حاصلون على التجدد ومنتظرون إعلانه الكامل فينا : « أيها الأحباء ، نحن من الآن أولاد الله ، ولم يتبين بعد ماذا سنكون . غير أننا نعلم أننا ، إذا ما ظهر (أي المسيح) ، سنكون أمثاله . . . » (يوحنا ٣ : ٢) .

بالقيامة تحقق الخلاص الذي شاء الرب ان يتممه بتجسده وصليبه . القيامة إذاً علامة نجاح خطة الله الحبية لإنقاذ الإنسان . إنها برهان خلاصنا . ولذلك فهي الركيزة الأساسية للبشارة المسيحية . فقد كان الرسل قبل كل شيء شهوداً لقيامة المسيح (أنظر أعمال الرسل ١ : ٢١ و٢٢)،وكتب الرسول بولس إلى أهل كورنثوس : « (لو) كان المسيح لم يقم ، فكرازتنا إذاً باطلة ، وإيمانكم أيضاً باطل » (١ كورنثوس ١٥ : ١٤) . القيامة قلب الإيمان المسيحي والحياة الروحية . إنها أيضاً محور الترتيب الطقسي ، فكل يوم أحد تذكار للقيامة ، وكل قداس إلهي هو إستمرار لها ، والصوم الكبير إستعداد للفصح ، والفصح « عيد الأعياد وموسم المواسم » كما تسميه الطقوس و « قلب الأرثوذكسية » كما دعاه اللاهوتي الأرثوذكسي المعاصر الأب بولغاكوف ،

فيه تنشد الكنيسة متهللة بفرح يفـوق الأرض : « اليوم يوم القيامـة ، فسبيلنا أن نتهلل أيها الشعوب ، لأن الفصح هو فصح الرب ، وذلك لأن المسيح إلهنا قد أجازنا (كلمة فصح معناها : إجتياز ، عبور) من الموت الى الحياة ومن الأرض الى السماء ، نحن المنشدين له نشيد النصر والظفر » (قانون سحر الفصح).



أسئلــة

١ ـ إذا كان الموت قد نتج عن إنغلاق الإنسان على ذاته دون الله ،فكيف كانت قيامة المسيح مرتبطة بإنفتاحه الكلي بالصليب إلى الآب ؟

٢ ـ ألم تكن حادثة التجلي (إقرأها في متى ١٧ : ١ ـ ٩ ولوقا ٩ :٢٨ ـ ٣٦) مقدمة وصورة للقيامة ؟ (أنظر متى ١٧ : ٩) . كيف ذلك ؟ ألا يظهر إرتباط بين هذه الحادثة وموت المسيح ؟ (أنظر لوقا٩ : ٣١). إلى ما يشير هذا الإرتباط ؟

٣ ـ تمجيد يسوع ،وإن أعلن بعد الصليب بنهوض السيد من بين الأموات ، إلا أنه تم بالصليب الذي صار بالنسبة ليسوع مرادفاً للمجد . كيف يظهر هذا الترادف في الإنجيل (أنظر يوحنا ١٢ : ٢٣ و٢٤ ، يوحنا ١٧ : ١) وفي طقوس أسبوع الآلام (تأمل مثلاً في ترنيمة : « اليوم علق على خشبة . . ») وفي خدمة «جناز المسيح » ؟

٤ ـ إذا كان رب الحياة قد دخل طوعاً بموته إلى مملكة الموت ، فهل كان بإمكان تلك المملكة أن تضبطه ؟(أنظر هوشع ١٣ : ١٤و١ كورنثوس ١٥ : ٥٤ و٥٥) .ماذا نتج إذاً عن دخوله فيها بالنسبة له ولنا ؟

٥ ـ تحطيم الموت ألا يعني أيضاً تحطيم قوى الخطيئة التي هي أصل الموت ؟ (انظر ١ كورنثوس ١٥ : ٥٦ و٥٧) .

٦ ـ ألا يعني أيضاً القضاء على قدرة الشيطان الذي كان يستعبدنا بالخطيئة والموت ؟ (أنظر لوقا ١١ : ٢١ و٢٢) .

٧ ـ هل ظفر يسوع من أجل نفسه أم من أجلنا ؟ كيف التوفيق بين كوننا مساهمين في ظفره وكوننا لا نزال نشقى ونخطىء ونموت ؟ (تأمل في وضع المسيح عندما كان طريح القبر وفكّر ، على سبيل الصورة ، بحقل طُمرت فيه البذور) .

٨ ـ ما هي القيامة بالنسبة للإيمان المسيحي ؟ (أنظر أعمال الرسل ١ : ٢١ و٢٢ و١ كور ١٥ : ١٤) . ما هي أهميتها في الترتيب الطقسي ؟ .



ملحـــق

عظة للقديس يوحنا الذهبي الفم بمناسبة أحد الفصح المجيد

« من كان حسن العبادة ومحباً لله فليتمتع بحسن هذا الموسم البهيج . من كان عبداً شكوراً فليدخل إلى فرح ربه مسروراً . من تعب صائماً فليأخذ الآن أجرته ديناراً . من عمل من الساعة الأولى فلينل اليوم حقه بعدل . من قدم بعد الساعة الثالثة فليعيّد شاكراً . من وافى بعد الساعة السادسة فلا يشك فإنه لا يخسر شيئاً . من تأخر إلى الساعة التاسعة فليتقدم غير مرتاب . من وصل الساعة الحادية عشرة فلا يخف الإبطاء فإن السيد كريم جوّاد ، يقبل الأخير مثل الأول ، ويريح العامل من الساعة الحادية عشرة مثل العامل من الساعة الأولى . يرحم الأخير ويرضي الأول . يعطي ذاك ويهب هذا. يقبل الأعمال ويسر بالنية . يكرم الفعل ويمدح العزم . فادخلوا إذاً كلكم إلى فرح ربكم . أيها الأولون والأخيرون خذوا أجوركم . أيها الأغنياء والفقراء أطربوا معاً فرحين . أمسكتم أو توانيتهم أكرموا هذا النهار . صمتم أو لم تصوموا أفرحوا اليوم . المائدة ملآنة فتمتعوا كلكم . العجل سمين واف فلا يخرجن أحد جائعاً . تمتعوا كلكم بوليمة الإيمان . تمتعوا كلكم بوليمة الصلاح . لا ينوحن أحد عن فقر فإن المملكة العامة قد ظهرت . لا يندبن أحد على إثم فإن الصفح قد بزغ من القبر . لا يخف أحد الموت فإن موت المخلص قد حررنا . فإنه قد أخمد الموت حين قبض الموت عليه ، وسبى الجحيم بنزوله إليه . مرمره لما ذاق جسده . هذا ما سبق أشعياء ونادى به قائلاً : تمرمر لما التقاك أسفل . تمرمر لانه بطل . تمرمر لأنه

هُزِئ به . تمرمر لأنه قد أُميت . تمرمر لأنه قد أبيد. تمرمر لأنه قد ربط. تناول جسداً فصادف إلهاً . تناول أرضاً فألفاها سماء. تناول ما نظر فسقط من حيث لم ينظر. أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا جحيم؟ قام المسيح وأنت صرعت . قام المسيح والجن تساقطت. قام المسيح والملائكة جذلوا . قام المسيح والحياة انبعثت. قام المسيح ولا أحد ميت في القبر . قام المسيح من الأموات فصار باكورة الراقدين فله المجد والعزة إلى دهر الداهرين. آمين.



٣ - إشتراكنا في صليب الرب وقيامته

* إن ما فعله الرب باجتيازه الموت الذي قاده إلى القيامة ، إنما فعله من أجلنا . ذلك أن الإنسـان كان عليه ، كي يخلص من شقائـه وتفككه ، أن يقبل بالتخلي عن تعبده للأنا ، فيلاقـي اللـه من جديد وينعم بحياته . ولكن الإنسان الساقط لم يعد قادراً على هذا التخلي لأن في ممارسته شعوراً بالإنسلاخ والفراغ وضياع الذات . بعبارة أخرى ، إذا شاء الإنسان ان يعرض عن إتخاذ الأنا محوراً لكل شيء ، شعر وكأنه يموت ، كأن حياته تفلت منه . لذا يتمسك الإنسان بأنانيته مخافـة من الموت . ولكنه بذلك يبقى بعيداً عن الله ، ينبوع الحياة ، وبالتالي يبقى أسير الموت (بمعناه العام ، أي بمعنى التفكك الكياني الذي ليس الموت الجسدي سوى مظهر من مظاهـره) . **إذاً الإنسـان يبقـى أسـير الموت بداعي خوفه من الموت** . تلك هي المفارقة الكبرى التي هي في صميم مأساة الإنسان والتي يمكن لكل واحد منا أن يختبرها .

فلنتساءل : لماذا نخطىء ، فنجعل حاجـزاً بـين اللـه وبيننـا ؟ الجواب العميق عن هذا السؤال هو أننا نخطىء مخافة من الموت . لماذا يسرق الإنسان ؟ لأنـه مثـلا يخـاف من الحرمـان ، والحرمـان نوع من الموت . لماذا يكذب ؟ لأنه مثلاً يخاف من العقاب ، والعقاب نوع من الموت . لماذا يزني ؟ لأنه في كثير من الأحيان يخاف من العزلة ، والعزلة

نوع من الموت . لماذا يتباهى ؟ لأنه يخاف ان لا يعجب به الناس ، أن يهملوه ، وإهمال الناس له نوع من الموت . مجمل الكلام أننا نستعبد أنفسنا للخطيئة ، وبالتالي للموت ، الذي هو على حد تعبير الرسول بولس « أجر الخطيئة » (روميه ٦ : ٢٣) (لأن الخطيئة تفصل عن الله مصدر الحياة) ، بسبب خوفنا من الموت . هذا ما عبّر عنه الكتاب المقدس في الرسالة الى العبرانيين بقوله أن البشر « كانوا طيلة حياتهم خاضعين للعبودية خوفاً من الموت » (عبرانيين ٢ : ١٥) .

ولنا نموذج لذلك في علاقاتنا البشرية . كل إنسان يحلم بأن يعيش صداقة كاملة أو حباً كاملاً ، لأن قلبه يتوق إلى شركة إنسانية كهذه يروي بها عطشه الى حياة كاملة . ولكن الصداقة الكاملة والحب الكامل أمران يسعى إليهما الإنسان دون أن يتمكن من إدراكهما كليا . إنه في أحسن الإحتمالات يقترب من تحقيقهما ولكنه ، حتى في هذه الحال ، يبقى على شيء كثير من العطش والعزلة . إن إتحاده بمن يحب لا يمكن أن يكون كاملاً . لماذا ؟ لأن إتحاد الإنسان بمن يحبه لا يتم إلاّ إذا قبل الإنسان بأن لا يكون أناه محوراً لوجوده ، بأن يتخلى عن تملك ذاته ، وبعبارة أخرى إذا قبل الإنسان بأن يمر بخبرة الموت . ولكن الإنسان في وضعه الساقط ، وأن قبل جزئياً بتلك الخبرة ، لا يستطيع أن يقبلها كلياً وفي الصميم . أنه يخاف الموت ولذا يبقى أسير العزلة وبالتالي أسير الموت .

* يسوع المسيح وحده تمم بناسوته ما لم يكن بوسع أي إنسان أن يتممه . **الإنسان يسوع المسيح استطاع وحده أن يتخلى بالحقيقة عن تملك ذاته ، وبعبارة أخرى استطاع وحده أن يقبل الموت بالكلية وفي الصميم . ولذا استطاع وحده أن يلج بإنسانيته إلى مجد الله** . لقد كان رئيس الكهنة عند اليهود يدخل مرة في السنة إلى قدس الأقداس (الذي

كان يمثل السماء) حاملاً دم الذبائح . الرسالة الى العبرانيين تقول لنا أن ذلك كان رمزاً للمسيح الذي كان في الآن نفسه الكاهن والذبيحة ، وقد دخل بدمه المسفوك إلى مجد الله : « أما المسيح ، فإذ قد جاء حبراً للخيرات الآتية ، إجتاز المسكن الأعظم والأكمل ، الذي لم تصنعه يد ، أي ليس هو من هذا العالم . وبدمه الخاص ، لا بدم تيوس وعجول ، دخل الأقداس مرة واحدة فوجد فداء أبدياً » (عبرانيين ٩ : ١١ و ١٢) . هذا الدخول الى مجد الله إنما ظهر بالقيامة .

* **ولكن يسوع المسيح قد أتم هذا العطاء الكامل لا من أجل نفسه بل بالنيابة عن البشر أجمعين** . عندما قبل الموت كلياً إنما قبله كممثل عن البشر الذين لا يستطيعون هم قبوله . هذا ما عبّر عنه الرسول بولس بقوله : « إذا كان قد مات واحد عن الجميع فالجميع إذاً ماتوا » (٢ كورنثوس ٥ : ١٤) . **عطاؤنا ناقص لا يمكن أن نبلغ به الى الله** ، إنه مشوب بالأنانية المستحكمة فينا بسبب خوفنا من الموت . **ولكننا نستطيع أن نلج إلى الله من خلال عطاء يسوع المسيح الكامل** . يسوع ، بما أنه قربان كامل لله ، يشفع بضعفنا وعجزنا ويقربنا من الله ، كأننا طيور مكسورة الأجنحة يحملها نسر قوي ويحلق بها الى أقصى الفضاء : « هو قادر ان يخلص على الدوام الذين يتقربون به إلى الله إذ هو حي كل حين ليشفع فيهم » (عبرانيين ٧ : ٢٥) . بذبيحة الرب يسوع إذاً ، تلك الذبيحة التي تبلغ وحدها السماوات ، ننال القيامة التي هي تدفق الحياة الإلهية في كياننا المتفكك ، المائت .

* **ولكن الفداء لا يفعل فينا بشكل سحري** . الله لا يخلّص الإنسان بالإستقلال عن إرادة الإنسان لأنه يحترم حريته . **لذا لا ينال القيامة من يرفض الإشتراك في صليب المسيح ، أي من لا يقبل أن يدخل**

في طريق الموت عن الذات التي سلكها يسوع حتى النهاية . لقد علّمنا الرب صراحة أنه لا يسعنا الإشتراك معه في الحياة الإلهية (أي في قيامته) إن لم نسلك في أثره طريق الموت : « من أراد أن يتبعني ، فليكفر بنفسه ، وليحمل صليبه ، ويتبعني . من أراد أن يخلص نفسه أضاعها ، ومن أضاع نفسه من أجلي وجدها » (متى ١٦ : ٢٤ و٢٥) . وقد علّمنا الرسول بولس أن إشتراكنا في الصليب ضروري إذا شئنا أن نكون منتمين الى المسيح وبالتالي أبناء القيامة : « الذين هم للمسيح يسوع صلبوا الجسد (أي الخطيئة ، أي عبادة الذات) مع الأهواء والشهوات » (غلاطية ٥ : ٢٤).« إن كنا قد متنا مع المسيح ، نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه » (روميه ٦ : ٨).« نحمل في الجسد (أي : في شخصنا) ، كل حين ، موت يسوع ، لتظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا » (٢ كورنثوس ٤ : ١٠) ، « فمنيتي إذاً أن أعرفه هو وأعرف قدرة قيامته ، والشركة في آلامه ، فأصير على صورته في الموت ، على أمل البلوغ الى القيامة من بين الأموات » (فيليبي ٣ : ١٠و١١).

* إننا في وضعنا الساقط لا نستطيع بالطبع ان نقدم ذواتنا بالكلية، ولكن المطلوب منا أن **نجتهد في هذا السبيل، أن ننوي بصدق السير في طريق نكران الذات وراء المعلم . تلك هي التوبة في الأساس** . إنها سير في طريق إسلام الذات لله . وهذا السير يدوم الحياة كلها لأن عطاءنا يبقى ناقصاً ما حيينا . لذا فالكنيسة ليست كنيسة الصديقين بل كنيسة التائبين أي العائدين من عبادة ذواتهم الى عبادة ربهم . ولنا في هذا السير دافعان يشددان عزمنا :

أ ـ **محبة المسيح لنا** : لقد تجلت محبة المسيح لنا بشكل باهر في بذله ذاته من أجلنا . وقد قال هو عن نفسه : « ليس حب أعظم من هذا أن

يضع الإنسان نفسه عن أحبائه » (يوحنا ١٥ : ١٣) وأيضاً : « أنا هو الراعي الصالح وأبذل نفسي عن الخراف » (يوحنا ١٠ : ١٤ و١٥) . هذا الحب المبذول يثير حبنا ويدفعنا الى أن نحيا فيما بعد لا لذواتنا بل للذي مات عنا حباً . بهذا المعنى كتب الرسول بولس : « إن محبة المسيح تحثنا . . . إنما مات المسيح لأجل الجميع لكي لا يحيا الأحياء لأنفسهم فيما بعد بل للذي مات وقام من أجلهم » (٢ كورنثوس ٥ : ١٤ و١٥) . وفي مكان آخر كتب : « وما أحياه الآن في الجسد ، إنما أحياه في إيمان ابن الله الذي أحبني واسلم ذاته عني » (غلاطيه ٢ : ٢٠) . أي أنني أسلم ذاتي (هذا هو المعنى العميق للإيمان) لذاك الذي أسلم ذاته لأجلي . هكذا فالحب الذي تثيره فينا محبة المسيح المبذولة لنا حتى الموت يساعدنا على التغلب على الخوف من الموت ، ذلك الخوف الذي يحول دون تقدمة ذواتنا . هذا ما تنشده الكنيسة عن الشهداء : « لأن المحبة قد غلبت الطبيعة (أي مخافة الموت المتأصلة في طبيعتنا) وجعلت العاشق ان يتحد بواسطة الموت بالمعشوق » (خدمة عيد القديس جاورجيوس) .

ب ـ **ثقتنا بانتصار المسيح على الموت** : ومن جهة أخرى فإن حدة الخوف من الموت تخف فينا لمعرفتنا ان المسيح قهره بمروره فيه . فيما كان يتحدث عن قيامة السيد ، هتف الرسول بولس بلهجة الإنتصار : « أين شوكتك يا موت ؟ » (١ كورنثوس ١٥ : ٥٥) . ونحن إذا شئنا التخلي عن أنانيتنا ومررنا من جراء ذلك في خبرة الموت يهدأ جزعنا لعلمنا أننا لسنا نجتاز هذه الخبرة وحدنا ، بل بمعية ذاك الذي اجتاز الموت قبلنا وقهره : « إني ولو سلكت في وادي ظلال الموت لا أخاف سوءاً لأنك معي » (مزمور ٢٢ : ٤).

*** إننا نتمرس إذاً على تقدمة ذواتنا مدفوعين بالحب الذي تثيره فينا محبة الرب لنا وبثقتنا بانتصاره على الموت . ولكن الرب أيضاً يعين ضعفنا** . ذلك أننا إذا قبلنا ان نشترك في صليبه ، فإن تقدمتنا هذه ، وإن كانت لا تزال ناقصة ، مشوبة بالأنانية ، تبلغ إلى الله محمولة على أجنحة تقدمته هو ، كما رأينا . وبعبارة أخرى فإن قبولنا الإشتراك في صليب المسيح يجعلنا مشتركين في قيامته أيضاً ، أي في الحياة الإلهية التي اجتاحت إنسانيته المقربة الى الله . وإذا تدفقت الحياة الإلهية فينا ، أصبحنا أكثر قدرة على المحبة والعطاء . تلك هي النعمة الإلهية التي تجددنا باستمرار بفعل صليب الرب وقيامته .

*** هذا ما يجري خاصة عند إقتبالنا الأسرار الإلهية** . فعند إقامة سر الشكر مثلاً ، في القداس الإلهي ، يأتي المؤمنون إلى الله بتوبتهم (أي بعزمهم على إسلام ذواتهم لله) ولكن هذه التقدمة لا تبلغ إلى الله إلاّ لكونها تندمج في التقدمة الكاملة الوحيدة ، تقدمة المسيح المصلوب التي يشكل كل قداس إمتداداً لها . إستحالة الخبز والخمر (اللذين يمثلان تقدمة البشر) إلى جسد ودم المسيح معناها أن المسيح إتخذ توبة البشر الناقصة ودمجها بتقدمته هو ليوصلها إلى الآب . هكذا يبلغ المؤمنون بالمسيح الى الله وينالون بتناول القرابين الحياة الإلهية فيصيرون مشاركي القيامة التي تجددهم وتؤهلهم لأن يكونوا بدورهم قرابين .

* هكذا بالتوبة التي هي عملية تستمر العمر كله ـ لأن طاعتنا لله ناقصة ما حيينا ـ وبالأسرار ، نشترك أكثر فأكثر بصليب المسيح وقيامته . بالتوبة والاسرار يتصور المسيح اكثر فأكثر فينا على حد تعبير الرسول ، أي نصبح أكثر فأكثر مساهمين في انفتاحه التام للآب وفي تدفق الحياة الإلهية فيه . وهكذا شيئاً فشيئاً نصبح على حد تعبير الرسول «أمواتاً للخطيئة» (روميه ٦ : ١١) وشيئاً فشيئاً نستطيع أن نتبنى قول

الرسول : « أني قد صلبت مع المسيح ، فلست أنا حياً بعد بل المسيح يحيا فيّ » (غلاطية ٢ : ١٩ و٢٠) .



أسئلـــة

١ ـ هل بإمكان الإنسان ، لو ترك نفسه ، أن يتخلى عن عبادة الأنا ليعيد الإتصال بالله ويستعيد الحياة الإلهية ؟ ما الذي يحول بينه وبين هذا التخلي ؟

٢ ـ أليست إذاً التقدمة الوحيدة الكاملة التي تبلغ وحدها إلى الله هي تقدمة المسيح ؟ (أنظر عبرانيين ١٠ : ٥و٧و٩: ١١و١٢).

٣ ـ ولكن هل تمم المسيح العطاء من أجله هو أم بالنيابة عن البشر أجمعين ؟ (أنظر ٢ كورنثوس ٥ : ١٤).

٤ ـ ألا يعني ذلك أن تقدمتنا الناقصة تبلغ إلى الله محمولة على جناحي تقدمة المسيح الكاملة ؟ (أنظر عبرانيين ٧ : ٢٥).

٥ ـ ولكن هل يمكننا أن نستفيد من الفداء إن لم نكن مزمعين على الإشتراك في تقدمة المسيح ؟ (أنظر متى ١٦ : ٢٤ و ٢٥ ، غلاطية ٥ : ٢٤ ، ٢ كورنثـوس ٤ : ١٠ و١١ ورومية ٦ : ٨).

٦ ـ أليست التوبة (وهي تعني في العربية : عودة) إذاً في الأساس هذا السير في طريق إسلام الذات لله مع المسيح ؟ هل ينتهي هذا السير طالما نحن على قيد الحياة ؟

٧ ـ كيف تدفعنا محبة المسيح الذي بذل ذاته لأجلنا (أنظر يوحنا ١٥ : ١٣ ، يوحنا ١٠ :١٤و١٥) الى السير في هذا الطريق؟(انظر ٢ كورنثوس ٥ : ١٤و١٥ وغلاطية ٢ : ٢٠).

٨ ـ في طريق نكران الذات ، الذي فيه شيء من خبرة الموت ، الا تشدد ثقتنا بإنتصار المسيح على الموت عزائمنا ؟ (أنظر مزمور ٢٢ : ٤ و١كورنثوس ١٥ : ٥٥).

٩ ـ إذا كانت التوبة تفتح لنا باب القيامة لأنها تشركنا بصليب المسيح ، أليس صحيحاً من جهة أخرى أن قوة القيامة إذا تسربت إلينا تجعل توبتنا اكمل؟

١٠ ـ أليست الأسرار ـ التي لا تفعل فينا إلا بالتوبة ـ إشتراكاً في صليب المسيح وقيامته ؟ كيف يتم ذلك في المعمودية ؟ (أنظر رومية ٦ :٣ ـ ١١). كيف يتم ذلك في سر الشكر ؟



٤ ـ الفداء ومحبة القريب

* **إن محبة الفادي لنا تلهم محبتنا للناس** : محبة الفادي التي تجلت في بذله ذاته عنا هي بمثابة النار التي لا بد لها أن تلهب ما حولها . إنها حريّة بأن تضرم فينا بدورنا نار المحبة . لقد قال الرب بهـذا المعنـى : « لقد جئت لألقي على الأرض ناراً ، وكم أود لو تكون قد اضطرمت » (لوقا ١٢ : ٤٩) . الحب يستدعـي الحـب . لقـد بيـنّ علـم النفس الحديث أن الطفل يستمد من محبة والديه له المقدرة على أن يحب بدوره الناس ، وبعبارة اخرى إن حب والديه له يوقظه إلى الحب ، يفجر فيه طاقة الحب . هكذا المحبة الفائقة التي أبداها الرب نحونا تنتزعنا من إكتفائيتنا لتلقي بنا بدورنا في مجازفة الحب . هذا الجواب الحبي على محبة السيد يتخذ ، كما رأينا ، شكل الحب لشخصه ، ولكنه يتخذ أيضاً شكل محبة البشر . ذلك لأنـه لا يسعنـا ، إذا كنـا مؤمنــين ، إلاّ أن نرى في كل إنسان ، أياً كان ، « ذاك الأخ الذي لأجله مات المسيح » (١ كورنثوس ٨ : ١١) . عند ذاك يصبح كل إنسان ، في نظرنا ، ذا قيمة لا تقدر ، قيمة الدم الإلهي الذي سكب من أجله .

* **إن محبة الفادي لنا تعين نوعية محبتنا للناس** : محبة الفادي لا تلهم محبتنا للناس وحسب ، ولكنها أيضاً تعين نوعيتها . ذلك أنه ينبغي لنا أن نحب الناس بالمحبة التي أحبهـم بهـا المسيح . تلك هي وصية

السيد في خطابه الوداعي : « هذه وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم » (يوحنا ١٥ : ١٢) . هذا يعني أنه ينبغي أن تكون لمحبتنا للناس الصفات التالية :

أ ـ مبنية على بذل الذات : يكثر الناس من إستعمال كلمة « أحب »، ولكن هيهات ان يكون الحب الذي يتحدثون عنه في كثير من الأحيان هو الحب الأصيل الذي عاشه السيد . « أحب التفاح » يعني أنني أتلف التفاح من أجل لذتي . ولكن « حب » الناس للناس كثيراً ما يتخذ شكلاً ليس ببعيد كثيراً عن « حب » التفاح . « أحب » إنساناً يعني في كثير من الأحيان ، إذا شئت أن أواجه حقيقتي ، أنني أريد تسخيره وإستغلاله لشهوتي أو مصلحتي . أما المسيح فقد أحبنا من أجل أنفسنا وعوض أن يسخرنا له سخر نفسه لأجلنا . لقد اعتبر ان لنا من الأهمية ما يبرر سفك دمه الإلهي عنا . فأتاح لنا هكذا ان نكتشف المحبة الحقة التي تقوم على العطاء . ولذا نرى الرسل يحثوننا على اقتفاء آثار السيد في محبتنا للناس . فقد كتب الرسول يوحنا : «بهذا قد عرفنا المحبة : أن ذاك قد بذل نفسه لأجلنا ، فيجب علينا ، نحن أيضاً ، أن نبذل نفوسنا ، لأجل الاخوة» (١ يوحنا ٣ : ١٦) . «أن نبذل نفوسنا» : يسوع لم يعطِ فقط أشياء مما له ، إنما أعطى ذاته للناس ، طيلة حياته أولاً ، التي كانت مسخرة لخدمتهم ، ثم في تقدمته الكبرى على الصليب . ما يطلب منا أن لا نكتفي نحن أيضاً بإعطاء بعض الوقت أو المال للغير ، بل ان يكون الغير شغلنا الشاغل وموضوع إهتمامنا الدائم . المطلوب ان لا نعود نحن مركز إهتمام ذواتنا بل أن يصبح الغير هم مركز الإهتمام ، كما كتب الرسول بولس : «فعلينا نحن الأقوياء ان نحتمل أوهان الضعفاء ولا نرضي أنفسنا . فليرض كل واحد منا القريب للخير لأجل البنيان . لأن المسيح

لم يرض نفسه بل على ما هو مكتوب : «تعييرات معيريك وقعت عليّ» (رومية ١٥ : ١ ـ ٣) .

ب ـ **تتجلى بالمشاركة** : المسيح إذ أحبنا شاركنا حياتنا وآلامنا وموتنا . ومحبتنا نحن أيضاً يجب أن تتجلى بالمشاركة . قد يكون في الشفقة ترفّع عن الغير ، ولذا فقد تجرح الناس وتضيف إلى آلامهم ألماً جديداً ومرارة . ولكن المشاركة تضمد الجراح لأننا بها نكون مع المتألم وليس فوقه . لذلك أوصى الكتاب : « إفرحوا مع الفرحين وابكوا مع الباكين » (روميه ١٢ : ١٥) ، وأيضاً « أذكروا الأسرى كأنكم مأسورون معهم » (عبرانيين ١٣ : ٣) . وقد عاش الرسول بولس المحبة الى حد المشاركة الصميمية في المآسي التي أحسها : « من يضعف ولا أضعف أنا! من يعثر ولا أحترق أنا!» (٢ كورنثوس ١١ : ٢٩) .

ج ـ **توجه الإرادة والعمل** : ولكن هذه المشاركة لا قيمة لها إن لم تتعدّ صعيد العاطفة . فقد نريح ضميرنا بشكل رخيص مكتفين بأن « نشعر » مع الناس . ولكن مشاعرنا لا تهم الله كثيراً . أن ما يهمه إرادتنا . المسيح لم يتلهَّ بتعابير غنائية عن المحبة وإنما عاشها في عرق وجهاد وفي النهاية بتسليم ذاته للموت . لذا فليس المهم ان «احسّ» نحو الناس بانعطاف إنما المهم أن أوجه إرادتي بالفعل نحو خدمتهم . هذا ما علمنا إياه الرسول يوحنا بقوله : «يا أولادي لا تكن محبتكم بالكلام ولا باللسان بل بالعمل وحقا» (١ يوحنا ٣ : ١٨) .

د ـ **مجانية ، غير مشروطة** : لقد كان الله هو البادىء بالمحبة ، إذ أن الإله المتجسد بذل نفسه عنا بغض النظر عن عدائنا له ، عن رفضنا إياه . لقد أحبنا مجاناً ، دون قيد أو شرط ، لا لسبب آخر سوى حبه

المجاني . هذا ما حدثنا عنه الرسول بولس بقوله : « إن المسيح ، ونحن بعد ضعفاء ، قد مات ، في الأوان المعيّن ، عن الكافرين . ولا يكاد أحد يموت عن بار ، وقد يقدم أحد على الموت عن صالح . وأما الله فقد برهن على محبته لنا بأن المسيح قد مات عنا ونحن بعد خطأة » (روميه ٥ : ٦ ـ ٨) . وبالمعنى نفسه كتب الرسول يوحنا : « على هذا تقوم المحبة : لا إننا نحن أحببنا الله ، بل هو نفسه أحبنا وأرسل إبنه كفارة عن خطايانا » (يوحنا ٤ : ١٠). هكذا يجب ان تكون محبتنا للناس مجانية كمحبة يسوع لنا . يجب ان نحبهم مهما كانت صفاتهم ، مهما كان إنسجامهم أو عدم إنسجامهم معنا ، مهما كانت علاقاتهم بنا وتصرفاتهم نحونا : « إن أحببتم من يحبكم فأي فضل لكم ؟ فالخطأة أيضاً يحبون من يحبهم ، وأن أحسنتم الى من يحسن إليكم فأي فضل لكم ؟ فالخطأة أيضاً يفعلون كذلك . وأن أقرضتم من ترجون ان تستوفوا منهم فأي فضل لكم؟ فالخطأة ايضاً يقرضون الخطأة، لكي يستوفوا منهم المثل. ولكن، أحبوا أعداءكم، وأحسنوا، وأقرضوا غير مؤملين شيئاً، فيكون أجركم كبيراً، وتكونوا بني العلي، فإنه هو منعم على غير الشاكرين وعلى الأشرار» (لوقا ٦ : ٣٢ ـ ٣٥) .

المسيحي هو دوما البادىء بالمحبة كما أن المسيح هو المبادر بالحب نحونا . لقد كنا غرباء عنه ، ضائعين في متاهات عبادة الذات ، ولكنه أتى إلينا ـ ولا يزال يأتي ـ فجعلنا قريبين إذ غمرنا بحبه المبذول . هكذا علمنا من هو القريب . لقد كان اليهود يعتقدون أن القريب ، الذي تتوجب عليهم محبته ، هو من كان يشاركهم في الجنس والدين . وذات يوم سأل أحد معلمي الناموس يسوع قائلاً : « من هو قريبي »؟ فلم يجبه مباشرة بل روى له مثل ذاك الإنسان اليهودي الذي جرحه اللصوص بين أورشليم وأريحا وتركوه بين حي وميت ، فمر به كاهن ولاوي (أي أحد

مساعدي الكهنة) يهوديان فأهملاه ولكن سامرياً اعتنى به ، مع أنه كان غريباً عنه بالجنس والدين ، ثم سأل يسوع معلـم النامـوس : « فـأي هؤلاء الثلاثة تحسبه صار قريباً للذي وقع بين اللصـوص؟ » فأجابـه : « الذي صنع معه الرحمة» ،فقال له يسوع : « أمض أنت واصنع هكذا » (أنظر لوقا ١٠ : ٢٥ ـ ٣٧) . هنا فجّر يسوع وصية المحبة التي كانت في العهدالقديم ،إذ أعطاها أبعاداً شاسعة وجعلها تتخطى كل الحدود . علمنا ان القريب ليس من هو قريبي ، أي من تربطني به روابط اللحم والدم ، روابط العاطفة أو المصلحة ، روابط الرأي الواحـد والمجتمع الواحد ، إنما قريبي هو من أصير أنا قريباً منه بمحبتي له . القريب هو من أقترب أنا منه بالمحبة. إنني أصبح قريباً لكل إنسان ـ ويصبح كل إنسان قريبي ـ إذا أحببته، ولـو لم يكن بـين هذا الإنسـان وبينـي أي رابـط بشري . أكثـر من ذلك ، إذا كان إنسـان ما عدوّي، فمحبتـي غـير المشروطة له تجعله قريباً، كما أن المسيح صار قريباً لي ، وقد كنت عدوّه، إذ بذل نفسه عني.

هـ ـ موجهة بصورة خاصة الى المتألمين : تلك المحبة للقريب يجب ان تشمل بنوع خاص البشر المتألمين ، الذين هم بحاجة خاصة إليها . إن كنا نحب المسيح فلنا أن نرى في كل معذبي الأرض وجهه الدامـي المكلل بالشوك وجسده الممزق وكرامته المداسة من الناس ونفسه الحزينة حتى الموت . ذلك ان الرب نفسه جعل تلك المطابقة بين المتألمين وبينه ، فأقام وحدة حال بينه وبين الجائعين والعطاش والعراة والغرباء والمرضى والمسجونين : « كنت جائعاً فأطعمتموني ومحبوساً فأتيتـم إليّ » (متـى ٢٥ : ٣٥ و ٣٦). هذا ما سوف يقوله الرب للأبرار في اليوم الأخير،

مضيفاً : « كل ما فعلتموه بأحد أخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه » (متى ٢٥ : ٤٠). والصغار هؤلاء هم البؤساء والضعفاء، الذين هم بنوع خاص أخوة يسوع إذ لم يشارك الرب البشر أمجادهم وغناهم إنما ارتضى ان يشاركهم بؤسهم وفقرهم . المتألمون إمتداد للمسيح المتألم . ولذلك كان أحد الآباء الروحيين يقول : إن شئتم أن تلمسوا اليوم جراح المسيح كما لمسها توما ، فما عليكم إلا أن تحتكوا بإنسان بائس .

لذا فموقفنا من البائسين لا يمكن ان يكون بحال من الأحوال موقف الترفع والتفضل ، إنما هو موقف إحترام عميق لهؤلاء الذين ، وإن لم يدروا ، وأن جدّفوا ، هم في بشاعة بؤسهم صورة لذاك الذي ارتضى أن يصبح « لا صورة له ولا بهاء فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه ، مزدرى ومخذولا من الناس ، رجل أوجاع ومتمرسا بالعاهات . . . مزدرى فلم نعبأ به . . . » (أشعياء ٥٣ : ٢و٣).

يروى عن القديس يوحنا الذي كان بطريركا للاسكندرية في أوائل القرن السابع ودعي يوحنا الرحوم ، انه عندما استلم مسؤوليته البطريركية طلب من أعوانه أن يضعوا له لائحة بأسماء « سادته ». وعندما سألوه مستغربين من عسى يكون هؤلاء السادة ، أجابهم بإنهم فقراء الإسكندرية . هذا هو الموقف المسيحي الأصيل .

ولكن محبة البؤساء والمحرومين لا يمكن ان تتخذ طابع العمل الفردي وحسب ، لأنها عندئذ تكون ناقصة . محبتنا المسيحية للبائسين تدعونا لرفض كل ما يكرس بؤسهم وحرمانهم في الأنظمة الإقتصادية والسياسية والإجتماعية . تلك المحبة تدعونا للنضال من أجل إقامة مجتمع يؤمّن لمعذبي الأرض العدالة وشروط حياة كريمة . هذا ما فهمه

عدد متكاثـر من المسيحيين في عصرنـا الـذين في كل أقطـار المعمـورة يناضلون من أجل العدالة وكرامة الإنسـان ، مدفوعـين لا باعتبـارات إنسانية وحسب بل بقناعتهم بأن كل ظلم يلحق بالإنسان إنما هو طعنة للمسيح في الصميم : « كل ما فعلتموه بأحد أخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه . . . كل ما لم تفعلوه بأحـد أخوتـي هؤلاء الصغـار فبـي لم تفعلوه » . أمام الدماء النازفة من جراح محرومي الدنيا ، لا يسع المسيحيين إلا أن يتذكروا عبارة باسكال الشهـيرة : « المسيح في نزاع إلى منتهـى الدهر ، فكيف يسعنا أن ننام ؟ » .

* **من قيامة المسيح نستمد المقدرة على محبة القريب** : ولـكن محبة القريب ، كما حددناها ، تلك المحبة غير المشروطة التي تتجه الى الآخر من أجل ذاته وتبذل ذاتها من أجله ، تلك المحبة لا تنسجم مع متطلبات « الإنسان العتيق » فينا ، ذلك الإنسان الساقط ، أسير الأنا ، الذي يعتبر ذاته مركزاً للكون ولا ينظر الى الآخر إلا كوسيلـة لإشبـاع شهوته أو حاجز دون بلوغ مأربه .

المحبة المسيحية تفرض أن نتخلق بأخلاق الله وهذا لا يتم لنا إلا باشتراكنا بقيامة المسيح التي بها نصبح مساهمين في حياة الله وبالتالي في أخلاق الله . المحبة المسيحية ثمرة من ثمار القيامة التي نشترك بها كما رأينا بالتوبة وبالأسرار . « الإنسان العتيق » ،وهو في كل منـا كامـن ما حيينا ، لا قدرة له على المحبة المسيحية لأنه بعيد عن الله ، في تفكك وموت . الحياة الإلهية إذا تدفقت في كياننا تكوّن فينا إنسانـاً جديداً ، مستعيداً صورة خالقه ، وتجعلنا بالتالي قادرين على محبة القـريب . لذا

كتب الرسول يوحنا الى المسيحيين قائلاً لهم ان المحبة التي تجمع بينهم هي برهان خروجهم من الموت الى الحياة ، أي برهان مساهمتهم في قيامة المسيح : « فنحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة ، لأننا نحب الأخوة » (١ يوحنا ٣ : ١٤).

وقد كتب الرسول نفسه أيضاً : « إن المحبة من الله ، وكل من يحب فهو مولود من الله ويعرف الله (بالمعنى الكتابي : أي هو متحد بالله) . من لا يحب لم يعرف الله ، لأن الله محبة » (١ يوحنا ٤ : ٧ و٨) .لذا تربط الكنيسة بين القيامة ومحبة الناس فتنشد في خدمة الفصح : « اليوم يوم القيامة . . . فلنقل « يا أخوة » ونصفح لمبغضينا عن كل شيء في القيامة » ، وكأنها تذكرنا بذلك ان إشتراكنا في القيامة ينبوع محبتنا للآخرين .

ولكن إذا كانت محبة الأخوة ثمرة اشتراكنا في القيامة ، فمن جهة اخرى التمرس عليها والجهاد من أجل إكتسابها هو مظهر أساسي لذلك المجهود ، مجهود التوبة ، الذي به ، كما رأينا ، نقبل الإشتراك بصليب الرب فنصبح مشتركين بقيامته . إن جهاد إسلام ذواتنا للرب لا ينفصل عن الجهاد في سبيل محبة القريب : « من ثبت في المحبة ثبت في الله ، وثبت الله فيه » (١ يوحنا ٤ : ١٦).مجمل الكلام ان محبة القريب هي ثمرة القيامة وطريق القيامة في آن .

لقد كتب الفيلسوف الملحد سارتر في إحدى مسرحياته الجملة المشهورة : « الجحيم هو الآخرون ». ويروى أن الفيلسوف المسيحي كبريال مارسيل كان يحضر تمثيل تلك المسرحية ، فعندما أطلقت العبارة المذكورة آنفاً ، سمعه احد الجالسين الى جانبه يتمتم : « كلا ! السماء هي الآخرون ». إن الإعتراف بالآخر شخصاً مستقلاً عن أهوائنا

ومصالحنا ، مهماً بحد ذاته ، وبعبارة أخرى الإعتراف به على أنه آخر وليس مجرد إمتدادلشخصي ،هذا الإعتراف الذي تفترضه المحبة المسيحية ، « جحيم » بالفعل « للإنسان العتيق » فيّ ، إنسان الشهوة ، أسير عبادة الذات . إنه إنسلاخ وموت . ولكن من قبل أن يجتاز هذا الموت يشترك في صليب المسيح ويبلغ الى اللـه من خلال إنفتاحـه للآخـر فتتحقـق «السماء» في قلبه .



أسئلـة

إقرأ لوقا ١٠ : ٢٥ ـ ٣٧ ومتى ٢٥ : ٣١ ـ ٤٦ .

١ ـ كيف تلهم محبة الفادي لنا محبتنـا للنـاس ؟ (أنظـر لوقـا ١٢ : ٤٩ و ١ كور ٨ : ١١).

٢ ـ ألم يطلب الرب منا ان تكون نوعية محبتنا للناس كنوعية محبته لنا ؟ (أنظر يوحنا ١٥ : ١٢).

٣ ـ هل كل ما يسميه الناس « حباً » هو حب بالمعنى الأصيل ؟ ألا تختفي في كثير من الأحيان وراء هذه العبارة رغبة في تسخير الناس وإستغلالهم ؟ أليست المحبة المسيحية مختلفة جذرياً عن « حب » كهذا ؟ (أنظر ١ يوحنا ٣ : ١٦ ، رومية ١٥ : ١ ـ ٣).

٤ ـ ألا تقتضي المحبة المسيحية مشاركة الناس ؟ ألا تنفي المشاركة ذلك الترفع الذي كثيراً ما يشوه الشفقة ؟ (أنظر رومية ١٢ : ١٥ وعبـرانيين ١٣ : ٣ و٢ كور ١١ : ٢٩).

٥ ـ هل يمكن أن تكون المحبة المسيحية مجرد عاطفة ؟ (أنظر ١ يوحنا ٣ : ١٨ ولوقا ١٠ : ٣٤ و٣٥).

٦ ـ هل كان بذل المسيح ذاته عنا مشروطاً بموقفنا نحن من الله ؟ (أنظر رومية ٥ : ٦ ـ ٨ و ١ يوحنا ٤ : ١٠) . ألا يعني ذلك ان محبتنا للناس يجب أن تكون أيضا مجانية ؟ (أنظر لوقا ٦ : ٣٢ ـ ٣٥).

٧ ـ ألا ينتج عن ذلك مفهوم جديد لمن هو القريب ؟ كان اليهود يعتقدون أن القريب الذي تتوجب عليهم محبته هو ابن جنسهم ودينهم . ألـم يقلـب المسيح هذا المفهوم في روايته لمثل السامري الشفوق (لوقا ١٠ : ٢٥ ـ ٣٧) ؟ ما هو تحديد القريب حسب هذا المثل ؟ (أنظر لوقا ١٠ : ٣٦ و ٣٧) . ألا يعني ذلك ان المحبة ليست لها حدود ؟

٨ ـ ألم يوحِّد المسيح ذاته مع كل معذبي الأرض (أنظر متى ٢٥ : ٤٠) ؟ ماذا يعني هذا بالنسبة لموقفنا نحن منهم ؟ أيجوز أن يكون في ذلك الموقف شيء من الترفع والتفضل ؟ هل تقف محبتنا للمتألمين عند تقديم المعونة الفردية لهم ؟ ألا تفرض علينا نضالاً إجتماعياً ؟

٩ ـ هل تنسجم المحبة المسيحية ومتطلبات « الإنسان العتيق » فينا أي مع متطلبات عبادة الأنا المتأصلة في طبيعتنا الساقطة ؟

١٠ ـ ألا ينتج عن ذلك ان المحبة وليدة تجددنا باشتراكنا في القيامة التي تبثّ فينا حياة الله وبالتالي تجعل فينا أخلاق الله ؟ (أنظر يو ٣ : ١٤ و٤ : ٧ و٨).

١١ ـ أليس صحيحاً من جهة أخرى أن ممارسة المحبة ، إذ تنتزعنا من عبادة الذات ، هي طريق إلى الإتحاد بالله أي الى القيامة ؟ (أنظر يوحنا ٤ : ١٦).



ملحق

١ ـ كان يوحنا الذهبي الفم ، بطريرك القسطنطينية (الذي جرد دار البطريركية من كل مظاهر الترف وعاش فيها فقيراً وتوفي سنة ٤٠٧ في المنفى لتوبيخه الملوك) يخاطب بجرأة أغنياء عصره ، معلناً لهم إن إهمالهم للمساكين في سبيل ترفهم هو إهمال للمسيح نفسه ، ومن أقواله :

« لقد أعطاكم الله سقفاً دون المطر لا لترصعوه ذهباً في حين ان الفقير يموت جوعاً . **وأعطاكم ملابس لتتستروا لا لتزركشوها بترف في حين أن المسيح العاري يموت برداً** . أعطاكم منزلاً لا لتسكنوه وحدكم بل لتستقبلوا فيه الآخرين ، والأرض لا لتبددوا مواردها على الجواري والراقصات والممثلين وعازفي المزمار والقيثارة ولكن لتسعفوا الجياع والعطاش . . . » .

« **ماذا ينفع تزيين مائدة المسيح بأوان ذهبية إذا كان هو نفسه يموت جوعاً ؟ فأشبعه أولاً حينما يكون جائعاً ، وتنظر فيما بعد في أمر تجميل مائدته بالنوافل** . . . » .

« فلا تزين الكنائس إن كان ذلك لإهمال أخيك في الشدة . هذا الهيكل أكثر جلالاً من ذاك » .

« **بينما كلبك متخم ، يهلك المسيح جوعاً** » .

« إنك تحترم هذا المذبح حينما ينزل إليه جسم المسيح ولكنك تهمل وتبقى غير مبال حينما يفنى ذاك الذي هو جسم المسيح ».

يوحنا الذهبي الفم

٢ ـ وفي يومنا هذا ، لا تزال الروح عينها تلهم المسيحيين الحريصين على أن يعوا الإنجيل في أعماقه . إنهم يرون المسيح في ضحايا المظالم السياسية والإجتماعية ، وأن كان مرتكبو هذه المظالم « مسيحيين » وضحاياها غير منتمين الى الإيمان المسيحي . ففي سنة ١٩٥٤ ، حين كان المغربيون المناضلون من أجل إستقلال بلادهم يسامون التعذيب من الشرطة الفرنسية ، ألقى الكاتب الفرنسي المسيحي الشهير ، فرنسوا مورياك ، الحائز على جائزة نوبل في الأدب ، محاضرة أمام إثنين أو ثلاثة آلاف شخص في باريس بمناسبة أسبوع المفكرين الكاثوليك ، عنوانها : « الإقتداء بجلادي المسيح » ،قال فيها بألم :

« أياً كانت مبرراتنا وأعذارنا ، أقول انه ، بعد تسعة عشر قرن من المسيحية ، لا يظهر المسيح أبداً، لجلاّدي اليوم، في المعذَّب، لا ينكشف الوجه المقدس أبداً في وجه هذا العربي الذي يهوي عليه مفوض الشرطة بقبضته . ألا تجدون غريباً أن لا يفكروا أبداً،خاصة أمام أحد هذه الوجوه السمراء ذات الملامح الساميّة ، بإلههم المقيّد بالعمود والمسلّم الى الجند ، أن لا يسمعوا ، من خلال صراخ ضمائرهم وأنينها ، صوته المعبود يقول : « بي تفعلونه ». ذلك الصوت الذي سيدوي يوماً ، ولن يكون عند ذاك متوسلاً ، وسيصرخ بهم وسيصرخ بنا كلنا نحن الذي قبلنا وربما أيدنا هذه الأشياء : « كنت هذا الشاب المحب لوطنه والمحارب من أجل ملكه ، كنتُ هذا الأخ الذي كنتَ تريد أن ترغمه على خيانة أخيه ». كيف لا تعطى هذه النعمة أبداً لأحد هؤلاء

الجلادين المعمَّدين ؟ كيف لا يلقي جنود الفرقة أحياناً سوط الجلد ليركعوا عند أقدام ذاك الذي يجلدونه ؟ » .

فرنسوا مورياك

٣ ـ قلب المسيحية هو الإيمان بأن ابن الله اتخذ في ذاته آلامنا طوعاً ليحررنا من الآلام . ليست المسيحية إذاً ، كما يقول البعض ، ديانة تدعو الى الخنوع أمام الألم والظلم . ليست المسيحية ديانة الألم ، إنما هي ديانة الفداء . لا قيمة للألم في نظرنا إلا إذا اقتُبل ، كما اقتبله المسيح ، محبة بالله وبالآخرين . المسيحي ، إذا أراد ان يسير في طريق سيده ، لا بد له أن يكون مستعداً لإحتمال الألم والموت من أجل تحرير المتألمين والمظلومين والمستعبَدين ، لا بد له أن يناضل حتى الدم من أجل العدالة . هذا ما أوضحه الاستاذ البير لحام في محاضرة ألقاها في الندوة اللبنانية ضمن سلسلة محاضرات « العدالة في المسيحية والإسلام » . وفيما يلي نثبت مقطعاً منها :

« في وسط الجناح المخصص للمسيحية في متحف الإلحاد في مدينة لينينغراد يقوم تمثال كبير للسيد المسيح يرزح تحت وطأة صليب ثقيل . هذا التمثال ، يقول لك الدليل ، هو رمز المسيحية التي تدعو الناس الى حمل الصليب والرضوخ للظلم والقبول بالألم والإستسلام للطغيان بانتظار حياة الآخرة . هذا التعريف الكاريكاتوري للمسيحية ، كم يذكرني بقول بولس الرسول « أن كلمة الصليب عند غير المؤمنين جهالة . وأما عندنا نحن المخلصين ، فالصليب قوة الله » (١ كو ١ : ١٨) . فالصليب ليس عنوان الذل والخمول والإستسلام ، بل عنوان المحبة الإلهية الفادية ، والتضامن المطلق مع جميع الناس ،

والمشاركة التامة للرازحين تحت الظلم والطغيان ، والمجازفة الجريئة حتى الموت لتحريرهم جميعاً . لأنه ، كما تقول الرسالة الى العبرانيين : « لما كان الأبناء يشتركون في اللحم والدم ، أشترك هو (المسيح) أيضاً فيهما لكي يبيد بموته ذلك الذي له سلطان الموت ، ويعتق جميع الذين كانوا ، خوفاً من الموت ، يعيشون كل حياتهم تحت العبودية » (عب ٢ : ١٤ - ١٥).

« فإذا كان المسيحي يلتزم قضية العدالة السياسية في مجتمعه ، فلأنه يسير في خطى ذلك الذي التزم بؤسنا وشقاءنا إذ لبس طبيعتنا وخاض معنا ، كواحد منا ، معركة الموت والحياة ، وفتح لنا بصليبه طريق النصر والرجاء وهو القائل « جئت لتكون لهم حياة ، وتكون لهم أوفر » (يو ١٠ : ١٠).

البير لحام : العدالة السياسية في المسيحية

(مجلة « محاضرات الندوة » : السنة العشرون ، النشرة ١١ ـ ١٢ ، ١٩٦٦، ص ٤٤).

٤ ـ هذا ليس مجرد نظريات ، إنما هو واقع عاشه ويعيشه المسيحيون الذين أرادوا أن يكونوا أمناء لرسالة سيدهم . فقد ناضل باسيليوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم بجرأة من أجل العدالة الإجتماعية وقُتل فيلبس مطران موسكو بأمر القيصر الروسي إيفان الهائل لأنه كان يوبخه على طغيانه ، وفي أيامنا هذه عدد متكاثر من المسيحيين يناضلون ، محتملين أحياناً الشتائم والسجن والموت ، من أجل معذبي الأرض من ضحايا الطغيان السياسي أو الإجتماعي او العنصري .

٥ ـ تتكاثر وتتكثف في عصرنا المواقف المسيحية الشاهدة لحق المظلومين بحياة كريمة ، والمجاهدة من أجل «بناء عالم جديد لا قاهرين فيه ولا مقهورين ، وفقاً لتصميم الله». ففي كل اقطار الارض عدد متزايد من المسيحيين يواجهون الاضطهاد والسجن والتعذيب والموت نفسه ، شهادة لمحبة المسيح ومساهمة منهم في عمله المحرّر . ولكن اميركا اللاتينية هي المكان المتميز لتلك الشهادة ، ففيها تُكتب من جديد ، باحرف من دم ونور، اعمال الشهداء الاولين . فقد قُدّر عدد الاساقفة والكهنة والرهبان والراهبات الذين سُجنوا أو عُذبوا أو اغتيلوا او اختُطفوا وغابت آثارهم ، في اميركا اللاتينية ، بين ١٩٦٨ ومطلع ١٩٧٨ ، بثماني مئة وخمسين (حسب الجريدة المكسيكية UNO MAS، بعددها الصادر في ٣ آذار ١٩٧٨) . ومن هؤلاء الاسقف أنريكو أنجلّلي ، مطران لاريوجا في الارجنتين الذي ذهب ، في ٤ آب ١٩٧٦ ، ضحية حادث مشبوه يحمل كل شيء على الاعتقاد بانه اغتيال مموّه ، والمطران اوسكار روميرو رئيس اساقفة السلفادور الذي اغتيل علناً في ٢٤ آذار ١٩٨٠ اثناء اقامته القداس الالهي . والجدير بالذكر ان هذا الاضطهاد الذي لا يوفّر رجال الدين في اميركا اللاتينية (حتى انه في السلفادور نال ٢٥ بالمائة منهم) رغم المكانة التي يتمتعون بها واتخاذ معظم الدول هناك الصفة المسيحية ، يطال ايضاً آلاف العلمانيين الملتزمين، بوحي من ايمانهم ، قضية العدالة في تلك البلاد.

هذا ونثبت فيما يلي مقاطع من رسالة وجهها الى اصدقائه، في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٥ ، من سجنه في شمالي الارجنتين، الاب Jacques Renevot ، المعتقل من اجل مساندته للفلاحين المقهورين:

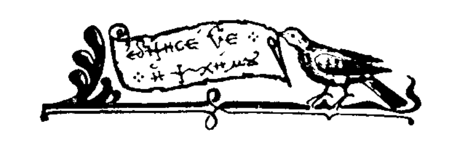
«يهمني اولاً أن اقول لكم انني سعيد جداً لانني
وُجدت أهلاً للتألم من اجل انجيل يسوع ، لان كل
الاتهامات الموجهة اليّ باطلة. انكم تعرفونني وقد

شمعتموني، وتعرفون جيداً أنني لم ابشر قط بالعنف او قلب النظام، بل ان كلماتي كانت دوماً دعوة الى الرفق والسلام والمحبة والصفح. لقد دعوت الى النضال من اجل العدالة، الى ازالة الظلم من بيننا، ولكنني لم ادعُ ابداً الى استخدام العنف في هذا السبيل (. . .) اعتقد انه ينبغي للمسيحيين، اليوم كما في الامس، ان يمروا بالمحنة والسجن ليشهدوا للانجيل. اعتقد انه يمكنني اليوم ان اعتبر نفسي سجيناً من اجل الانجيل (. . .) أتأمل كثيرا بالقدوة التي اعطانا اياها ذاك السجين الكبير من اجل الانجيل، الذي هو الرسول بولس (. . .) انتم تعلمون انني سجين بصفتي تلميذاً للمسيح. ارجو ان يؤول هذا الامر الى تشديد عزائمكم وانكم ستتمكنون من اعلان رسالة الانجيل دون خوف وبثقة اوفر».

راجع:

Michel Duclercq: Cris et Combats de L'Eglise en Amérique Latine, Ed. Du Cerf, Paris, 1979.

Charles Antoine: Le Sang et L'Espoir. Ces Chrétiens D'Amérique Latine, Ed. Du Centurion, Paris, 1979.



٥ ـ الصعود

* الصعود تتويج لعملية الفداء . فالمجد الإلهي ، كما رأينا ، إجتاح إنسانية يسوع لما أسلمت ذاتها بالكلية على الصليب . **هذا المجد الإلهي نفسه الذي أقام يسوع من الموت كان كفيلاً بأن يصعده الى السماء ، أي بأن يهب لإنسانيته الإشتراك التام بالحياة الإلهية وبالسيادة الإلهية على جميع الكائنات** . هكذا دخلت طبيعة يسوع الإنسانية ، عندما بلغت الكمال بالصليب ، في ذلك المجد الإلهي الذي كانت طبيعته الإلهية تتمتع به منذ الأزل . هذا ما أشار إليه الرب عندما خاطب الآب قبيل ذهابه الى الآلام قائلاً له : « فالآن ، أيها الآب ، مجدني أنت عندك ، بالمجد الذي كان لي لديك من قبل كون العالم » (يوحنا ١٧ : ٥) . هكذا كان إنحدار المسيح باختياره الى دركات الموت طريقاً لبلوغه ذروة المجد . هذا ما أشار إليه الرسول بولس عندما كتب : « الذي نزل هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السموات . . . » (أفسس ٤ : ١٠) . عندما ابتعد ابن الله المتجسد بتواضعه الفائق ، إلى أبعد حد عن أصله الإلهي ، عند ذاك ، وبفعل هذا التواضع بالذات ، عاد بجسده الى ذلك الأصل الإلهي . هذا ما انشده الرسول في رسالته الى أهل فيليبي : « الذي إذ هو في صورة الله (لأن الإبن صورة تامة عن لاهوت الآب) . . . أخلى ذاته ، آخذا صورة عبد ، صائراً شبيهاً بالبشر وموجوداً كإنسان في الهيئة . ووضع نفسه وصار طائعاً حتى

الموت ، موت الصليب . لذلك رفعه الله وأنعـم عليه بالإسـم الـذي يفوق كل إسم ، لكي تجثو لإسم يسوع كل ركبة . . . » (فيليبي ٢ : ٦ - ١٠) .

* تلك هي « السماء » التي صعد إليها يسوع والذي كان إرتقاؤه في الفضاء أمام التلامذة صورة ورمزاً لها . إن عدداً من المؤمنين يخلطون بين السماء المادية « وسماء » الله . يعتقدون أن الله كائن يقبع في أجواء الفضاء العليا . ويشاركهم عدد من غير المؤمنين هذا التفكير . هكذا صرح رائد الفضاء تيتوف أن الله غير موجود لأنه لم يجده أثناء رحلته الفضائية . هذا تصور صبياني لا يليق بالعقل الإنساني ولا بطبيعة الله . فالله ليس قابعاً في أجواء الفضاء العليا ، إنه كائن لا يحده مكان وهو حاضر بمعرفته وقدرته وحبه وعنايته في كل مكان . إنما الإنسان ، لكونه كائناً حسياً ومحدوداً ، لا يستطيع ان يعبّر عن الله إلا بصورة حسية ، ناقصة . السماء المادية تعلو عن الأرض ، لذلك اتخذت في كل الأديان صورة عن تعالي الله . عبارة « سماء » نفسها مستقاة من « سما » التي تعني علا . السماء المادية رمز إذاً لتعالي الله . هذا ما عبّر عنه أشعياء النبي عندما كتب : « ليست أفكاري كأفكاركم يقول الله ولا طرقي كطرقكم . لكن كما تبعـد السماء عن الأرض ، هكذا تبعد أفكاري عن أفكاركم وطرقي عن طرقكم » (أشعياء ٥٥ : ٨ و ٩) . **صعود المسيح الى السماء يعني إذاً إشتراك إنسانيته في تعالي الله ، في حياة الله ، في مجد الله ، في سيادة الله .**

* **ولكن يسوع صعد إلى السماء ليصعد البشرية معه .** نزعة الإنسان العميقة هي أن يبلغ الى السماء ، أي إلى الإشتراك في الحياة الإلهية . هذا هو المعنى العميق لحنينه الى القدرة والمعرفة والعدالة والحب

والسعادة والخلود . ولكنه يطمع بأن يبلغ السماء بفعله الذاتي . فأتباع الديانات الوثنية كانوا ولا يزالون يعتقدون ان الإنسان يستطيع ان يبلغ الى عالم الألوهة بواسطة طقوس يقيمها او تقشفات ينصرف إليها . كذلك نرى الكثيرين من البشر في عالمنا الحديث يحلمون بتأليه الإنسانية بوسائل بشرية بحتة كالإختراعات العلمية والأنظمة الإجتماعية . تجاه تلك المواقف تعلن المسيحية أن الإنسان لا يستطيع بفعله الذاتي أن يتخلص من حدوده ويبلغ إلى التأليه ، إنه لا يسعه بمجرد مبادرته الذاتية إن يتحرر جذرياً من الشقاء والخطيئة والعزلة والموت . السماء لا تقتحم إقتحاماً إنما تنحدر إلينا هبة حب مجانية . **لم يكن باستطاعة الإنسان أن يبلغ إلى الله لو لم ينحدر الله الى الإنسان ليرفعه إليه** . هذا ما عبّر عنه الرب يسوع عندما قال لنيقوديموس : « لم يصعد أحد الى السماء إلا الذي نزل من السماء ، إبن البشر الكائن في السماء » (يوحنا ٣ : ١٣).

طريق السماء أي الحياة الإلهية بما تتضمنه من إنتصار نهائي على الخطيئة والشقاء والعزلة والموت ، إنما فتحه لنا المسيح عندما عاد بالجسد الى أصله الإلهي . بصعوده دشن صعودنا نحن . هذا معنى صلاته الى الآب قبل الآلام : « أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا » (يوحنا ١٧ : ٢٤) . بصعود يسوع بدأ تأليهنا نحن : « إن الله ، لكونه غنيا بالرحمة ، ومن أجل فرط محبته التي أحبنا بها ، وحين كنا أمواتا بزلاتنا ، أحيانا مع المسيح . . . ومعه أقامنا ومعه أجلسنا في السموات » (أفسس ٢ : ٤ - ٦).

*** لقد فتح لنا يسوع بصعوده طريق السماء أي طريق التأله بالاشتراك بالحياة الإلهية . بقي علينا أن نسلك هذه الطريق . ولكن طريقنا لا يمكن ان تكون غير طريق يسوع ، وطريق يسوع إلى القيامة**

ثم إلى الصعود كانت طريق الإنسلاخ المعطاء، طريق نكران الذات في إتجاه محب الى الله والناس . لذا من أراد الإشتراك في الصعود وجب عليه ان ينسلخ ، بجهاد هو عملية الحياة كلها ، عن التمتع الأناني بخيرات الدنيا ،كي يتجه ، مع المسيح وبمؤازرة نعمته ، إلى فوق ، أي الى تلك الشركة مع الله التي أعدت لنا . هذا ما علمنا إياه الرسول بولس عندما كتب إلى أهل كولوسي : « لقد قمتم مع المسيح ، فاطلبوا إذاً ما هو فوق ، حيث يقيم المسيح جالساً عن يمين الله . اهتموا لما هو فوق ، لا لما هو على الأرض ، لأنكم قد متّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله» (كولوسي ٣ : ١ - ٣).

* ولكن عبارة الرسول : «اهتموا . . . لا لما هو على الأرض » لا تعني، كما يعتقد البعض ، انه ينبغي للمسيحيين ان يهملوا الأرض ، أن يتركوها وشأنها . هذا التفسير بالطبع مرفوض لأنه ينافي محبة القريب التي بدونها ، كما رأينا ، لا يمكننا ان نقترب من الله . محبة الأخوة تفرض أن نهتم بشؤونهم ليس الروحية وحسب بل الأرضية أيضاً (كما أشبع المسيح الجياع وشفى المرضى) ، أن نعالج إذاً من أجلهم شؤون الدنيا (بالعمل والعلم والنضال الإجتماعي مثلا) . عبارة الرسول تعني إذاً ان نعرض عن التمتع الأناني ، النهم بخيرات الأرض . من انشغل بهذا التمتع تغرّب عن الله وعن الآخرين لأنه غارق في شهوته . اما المسيحي الذي يكافح أنانية الشهوة فانه بمشاركته صليب الرب ، يساهم في صعوده ، وإذ ينال هكذا الحياة الإلهية لا يصبح غريباً عن الناس وهمومهم بل قريباً منهم كل القرب بتلك المحبة التي فيه ، المستمدة من محبة الله لخلائقه .

الصعود لا يعني إذاً هروباً من الأرض وواجباتها ومشاكلها وآلامها . هذا الهروب ، أياً كانت مبرراته ، يدل بالعكس على أننا لم

نصعد بعد ، على أننا لا نزال أسرى « الإنسان العتيق » فينا الذي يؤله راحته وطمأنينته . **الصعود هو بالعكس التزام كلي لكل قضايا الإنسان في الأرض ، إنه حضور كله حب وبذل . ذلك** أن السماء ، كما سبق فقلنا ، ليست فوق الغيوم ولكنها ، في صميم كياننا ، إشتراك ، منذ الآن ، في حياة الله . لقد قال الرب يسوع : « **إن ملكوت الله في داخلكم** » (لوقا ١٧ : ٢١) . وملكوت الله هو الحياة الإلهية ، هو بعبارة أخرى السماء . إذاً المسيحي الحقيقي يصعد إلى السماء دون أن يترك الأرض ، إنه يعيش على الأرض سماوياً أي مشتركاً في حياة الله الى ان تكتمل فيه في اليوم الأخير . هذا ما عبّر عنه الرب يسوع عندما قال عن تلاميذه ، مخاطباً الآب : « إنهم في العالم . . . (لكنهم) ليسوا من العالم ، كما أني لست من العالم . لا أطلب أن تخرجهم من العالم ، بل أن تحفظهم من الشر » (يوحنا ١٧ : ١١و١٤و١٥) . المؤمن المشترك في صعود ربه يتخلق بأخلاق الله « فيحفظ نفسه من دنس العالم » (رسالة يعقوب ١ :٢٧) . ولكن الحياة الإلهية الكامنة فيه هي في جوهرها حب وعطاء ، لذلك لا يسعها إلا ان تنسكب وتنبثّ فيما حولها ، ناشرة في الأرض عدلاً وسلاماً وفرحا وإخاء . هكذا يشعّ الملكوت من المؤمنين ليحوّل الأرض كما تخمّر خميرة صغيرة العجنة كلها : « يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال من الدقيق ، حتى اختمر الجميع » (متى ١٣ :٣٣) . بهذا المعنى دعا الرب المؤمنين به « ملح الأرض » (متى ٥ :١٣) . الملح يختلف عن الطعام ولكنه يختلط بالطعام إختلاطاً صميمياً ليطعمه كله . هكذا يحمل المؤمن في ذاته حياة الله التي تفوق العالم ولكنه يبثها في كل مرافق الوجود الأرضي ، في الحياة العائلية والمهنية والإجتماعية والسياسية . حبه للناس وإشتياقه الى رؤية الملكوت قد تحقق تماماً يدفعانه الى رسم صورته في

الـكـون . لذلك لا يسعـه إلا ان يجاهـد من أجـل كل حق وخـير في الأرض ، من أجل العدل والسلام والإخاء بين البشر ، من أجل كرامة كل إنسان ونمو شخصيتـه ، من أجـل تقهقـر الشقـاء والألـم والمرض والموت .

* **ولكن المسيحي يعلم ان تحوّلـه هو وتحول الكون لن يكتملا إلا عند مجيء الرب الثاني ، في نهاية الأزمنة** . بصعود المسيح ألقي نور الله في صميم الدنيا وبدأت الأرض تتحول إلى سماء ، ولكن في نهاية الأزمنة « سينفجر النهار » (٢ بطرس ١ : ١٩) ويجدَّد الكون فتصبح الأرض سماء إذ يصير الله « كلا في الكل » (١ كورنثوس ١٥ : ٢٨) . **صعود الرب إذاً مقدمة لمجيئه الثاني الظافر** كما يتضح من الحادثة نفسها (أنظـر أعمال الرسـل ١ : ١ - ١١). لذا ينتظـر المؤمـن هذا الـكون الجديد : « إننا ننتظر ، على حسب وعده . . . أرضاً جديدة فيها يسكن البر » (٢ بطرس ٣ : ١٣) ، هذا الكون الذي وصفه يوحنا في الرؤيا قائـلاً : «رأيت المدينة المقدسة ، أورشليم الجديدة ، نازلة من السماء ، من عند الله . . . وسمعت صوتاً جهيراً من العرش ، يقول : « هوذا مسـكن اللـه مع النـاس ، سيسـكن معهـم ، ويكونـون له شعبـاً ، وهو . . . يكون إلههم ، ويمسح كل دمعة من عيونهم ، ولا يكون بعد موت ، ولا نوح ، ولا نحيب ، ولا وجـع ، لأن الأوضـاع الأولى قد مضت » وقال الجالس على العرش : « ها إني أجعل كل شيء جديداً» (رؤيا ٢١ : ٢ - ٥) . **تلك الأرض المتجـددة التـي أصبحـت سماء بحضور الله الكامل فيها هي موطننا الحقيقـي** . بهـذا المعنـى ورد في الرسالة الى العبرانيين : « ليس لنا هنا مدينة باقية بل إنما نطلب الآتية » (عبرانيين ٢٣ : ١٤) ، وفي الرسالة الى أهل فيليبـي : « أمـا نحـن

فموطننا في السماوات التي منها ننتظر مخلصنا الرب يسوع المسيح ، الذي سيحوّل جسد هواننا إلى جسد على صورة جسد مجده ، بتلك القدرة التي تمكنه من ان يخضع لنفسه كل شيء » (فيليبي ٣ : ٢٠و٢١) .

* **ولكننا ندخل هذا الكون المتجدد منذ الآن ، كما رأينا** . بهذا المعنى قال الرب يسوع : « إنها ستأتي ساعة وهي الآن حاضرة . . .». التجديد سيكتمل في اليوم الأخير ولكنه منذ الآن قد بدأ . ينبغي أن ندخل فيه منذ الآن حتى يتحقق فينا كاملاً عند مجيء الرب الثاني . المسيحي لا ينتظر مجيء يوم الرب وحسب ولكنه « يستعجل مجيئه» أيضاً على حد تعبير الرسول بطرس (٢ بطرس ٣ : ١٢) أي أنه يبدأ بتحقيقه ، بنعمة الرب ، فيه وحوله ، مستنزلاً على الأرض ، حسب تعبير الكاتب خليل رامز سركيس ، « بعض أيام السماء» .وفي جهاده ، المرير أحيانا ، من أجل الحق والخير والفرح في الأرض ، يشعر بثقة لا تعادلها ثقة لأنه يعلم ان جهوده لن تضيع وأن الشر والموت سيقهران نهائيا بنعمة الإله الذي تجسد وصلب وقام وصعد الى السماء ليحرر الإنسان ويؤلهه .



أسئلــة

إقرأ أعمال الرسل ١ : ١ ـ ١١ .

١ ـ ما معنى الصعود بالنسبة لإنسانية المسيح؟ (أنظر يوحنا ١٧ : ٥). أليس هو بهذا المعنى إمتداداً وتتويجاً للقيامة ولعملية الفداء كلها ؟

٢ ـ ما هي العلاقة بين إخلاء الذات الذي تممه يسوع وبين صعوده ؟ (أنظر فيليبي ٢ : ٦ ـ ١٠ وأفسس ٤ : ١٠).

٣ ـ هل « السماء » التي صعد إليها يسوع تعني أجواء الفضاء العليا ؟ (أنظر أشعيا ٥٥ : ٨و٩).

٤ ـ هل يستطيع الإنسان بقواه الخاصة أن يصعد الى تلك « السماء »؟ هل إختراق الصواريخ للفضاء يحقق صعوداً كهذا ؟ (أنظر يوحنا ٣ : ١٣).

٥ ـ ألم يصبح حلمنا بالصعود الى السماء محققا بالمسيح يسوع ؟ (أنظر يوحنا ١٧ : ٢٤ ويوحنا ١٢ : ٢٦ وأفسس ٢ : ٤ ـ ٦).

٦ ـ هل يعني ذلك انه ينبغي ان لا نكترث بشؤون الأرض ؟ هل المطلوب من المسيحي ان يخرج من العالم او أن يحفظ نفسه من شر العالم ؟ (أنظر يوحنا ١٧ : ١١ ـ ١٥ ويعقوب ١ : ٢٧). إذا كان الصعود إشتراكاً في حياة الله وإذا كانت حياة الله هي حياة محبة ألا يعني ذلك ان المؤمن الصاعد اصبح قريباً من الناس الى أبعد حد ومهتماً بشؤونهم كلها بما فيها الشؤون الأرضية أقصى إهتمام ؟ ما هي أقوال الرب يسوع التي تثبت ان المؤمن يعيش صعوده منذ الآن ويصعد معه العالم ؟ (أنظر لوقا ١٧ : ٢١ ، متى ٥ : ١٣ ، متى ١٣ : ٣٣).

٧ ـ ما هي العلاقة بين صعود المسيح ومجيئه الثاني ؟ هل يكتمل تجديدنا وتجديد الكون قبل هذا المجيء ؟ (أنظر ٢ بطرس ٣ : ١٣ وفيليبي ٣ : ٢٠ و٢١ ورؤيا ٢١ : ٢ ـ ٥). أليس هذا الكون المتجدد هو وطننا الحقيقي ؟ (أنظر فيليبي ٣ : ٢٠ و٢١ وعبرانيين ١٣ : ١٤).

٨ ـ هل يكفي ان ننتظر هذا الكون المتجدد ؟ (أنظر ٢ بطرس ٣ : ١٢). ما معنى أن « نستعجل يوم الله »؟



ملحـــق

المسيحي مواطن السماء التي صعد المسيح إليها بالجسد مصعـداً البشرية معه . ولكنه يعلم ان السماء ليست مكاناً فوق الغيوم بل حياة إلهية وضعت فيه ليتجدد بها ويغيّر بها وجه الأرض والتاريخ ، مستعجلاً هكذا يوم الرب الذي سيكون فيه الله « كلا في الكل » « في أرض جديدة يسكن فيها البر » .هذا ما تذكرنا به ثلاثة نصوص نثبتها فيما يلي :

١ ـ النص الأول من محاضرة ألقاها **الأستاذ ألبير لحام** في النـدوة اللبنانية بعنوان « العدالة السياسية في المسيحية » يقول فيها :

« إن المسيحي يعلـم جيداً ان المدينـة الفاضلـة ليســت من هذا العالم . إنها أورشليم السماوية ، الأرض الجديدة ، التي يتوّج بها الله عمل خليقته في آخر الأيام ، ولكن المسيحي يؤمن أيضاً ان تلك الأرض الجديدة ، ملكوت الله ، ليست حدثـاً أخـروياً وحسـب ، ننتظـره في الصلاة بل هي حدث دخل التاريخ البشري في يسوع المسيح وما زال حاضراً في التاريخ وفاعلاً فيه كقوة بعث وتجديد وتحويل . « إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة . الأشياء القديمة قد مضت ، هوذا الكل قد صار جديداً » (٢ كو٥ :١٧) . لذلك فالمسيحي ، وقد أضحى عضواً في تلك الخليقة الجديدة إذ خبر موت الصليب وقـوة القيامـة ، مدعـو الى تطوير المجتمع وتغيير وجه التاريخ » .

ألبير لحام

(عن مجلة «محاضرات النـدوة»، السنـة ٢٠ ، النشرة ١١ و١٢ ، ١٩٦٦).

٢ ـ **النص الثاني للفيلسوف الفرنسي المسيحي عمانـوئيل مونييه** مؤسس مذهب الشخصانية . يظهر فيه ان رجاء السماء يدفع الى تحويل الأرض لأن الآخرة لن تكون إبادة للكون بل تتـويج للتجـديد الـذي أطلقه المسيح فيه والذي لا بد للمسيحيين ان يساهموا به منذ الآن :

« . . . إن الرجاء المسيحي الحقيقي ليس هروباً . رجاء الآخرة يوقظ مباشرة إرادة تنظيم الدنيا . إن كل أمثال الكتاب ، مثل العذارى العاقلات والعذارى الجاهلات ، مثل المدعو الى العرس الذي لم يرتد لباس العرس ، مثل الوزنات ، وأمثال أخرى كثيرة أيضاً ، كلها تنصبّ في هذا الموضـوع : أمـا أن تكون الآخـرة منـذ الآن حاضرة بينـكم وبواسطتكم ، وأما لن تكون لكم أبداً . تذكرون أنه في اللحظة التي كان الرسل فيها ، بعد ان شاهدوا المسيح ينطلق في الغيوم ، لا يزالون رافعين رؤوسهم بذهول الى السماء ، اقترب منهم رجلان بلباس أبيض وقالا لهم ما معناه : « ما بالكم لابثين هنا وأنوفكم في الهـواء ؟ الـذي ذهب سوف يعود . فعملـكم إذاً هو عنـد إقدامـكم». هكذافبالنسبة للمسيحي الذي ينتظر الآخرة ، ليست فكرة نهاية الأزمنة فكرة إبادة ، ولكنها انتظار إستمرار وإكتمال ».

Emmanuel Mounier: La Petite Peur du XXe siècle (1949), in Œuvres, T. III, p. 346, Seuil, Paris, 1962.

٣ ـ أما النص الثالث ، فهو **للاّهوتي البروتستانتي السويسري الشهير كارل بارت . فيه يظهر ان ثقتنا باندحار قوى الشر والموت نهائيا**

في يوم الرب تمدنا بالشجاعة اللازمة للنضال من أجل بناء عالم أفضل ، لأننا نعلم ان جهودنا لن تضيع وان للتاريخ الإنساني معنى :

« إذا كنا نؤمن بان للحوادث وللتاريخ معنى ، وكنا نؤمن أيضاً بالتطور والثورة ، وبإصلاح المجتمع وتجديده ، بإمكان الأخوّة في الأرض وتحت السماء ، فلأننا ننتظر شيئاً أفضل ، أعني السماء الجديدة والأرض الجديدة . وإذا كنا نكرس أنفسنا ، بكل قوانا ، لأعمالنا اليومية مهما صغرت ، وإذا كنا نعمل بلا هوادة لنبني (بلاداً) جديدة ، فلأننا ننتظر أورشليم الجديدة النازلة من عند الله . وإذا كانت لنا الشجاعة ، في عالمنا ، لنحتمل القيود والعقبات والمثالب، لا بل إذا كانت لنا الشجاعة لتحطيمها أيضاً ، فلأننا ، سواء احتملناها او حطمناها ، نؤمن بالتدبير الإلهي الذي يقضي بدحر آخر الأعداء وأقوى القيود ، أعني الموت ذاته ».

كارل بارت



٦ ـ المسيح الكوني

المسيح الكوني

Cosmos، أي الكون ، لفظة يونانية تدل على الزينة ، على الجمال وعلى الإنسجام . من هنا عبارة produits cosmétiques وهي تعني مواد الزينة عند النساء والرجال . مواد الزينة هذه مواد كونية لأن الكون منسّق وجميل .

المسيح الكوني هو المسيح الذي ، بعد قيامته من بين الأموات وصعوده إلى السماء ، صار مالئاً هذا العالم المادي ، حاضراً فيه وجاذباً إليه عناصره . والديانات القديمة بصورة عامة ، قبل المسيح وبعده ، والتي أتت من الشرق الوثني ، كانت تتكلم عن ملء كوني وتقول أن هذا العالم ، من السماء الى الأرض ، معبأ بالأرواح . بالتالي ، وباستعمال لغة ذلك العصر ، عندما صعد المسيح الى السماء كان يجب أن يمر بمراحل حيث مساكن الأرواح ، هذه الأرواح التي في الجوّ والتي تكلم عنها بولس الرسول حيث قال : « فلسنا نكافح أعداء من لحم ودم ، بل أصحاب الرئاسة والسلطان وولاة هذا العالم ، عالم الظلمات : نكافح الأرواح الخبيثة التي في الجوّ » (أفسس ٦ : ١٢) . والسلاطين والقوات لا يقصد بها رؤساء الدول ولكن رؤساء العالم الروحاني ، إذا جاز التعبير ، وهي هذه المجموعة من الأرواح المبعثرة في الجو والتي كان على السيد أن يجتازها ويتغلب عليها ليصل إلى الآب -

هذا بلغة الرسل ـ ولذلك كان هاجس بولس الرسول أن يَقول أن المسيح تغلب على هذه الأرواح وسكن في السماء وهو يأتي من السماء وأن الكنيسة تنزل من السماء . وبالتالي فإن جسد المسيح ، في تصور بولس ينمو من الرأس . أي أن الرأس هو في السماء والجسم ينزل علينا ويحوي ، بالتالي ، الكون وهذه الأرواح ويتغلب عليها . هذا هو التصور الذي وراء كلام الرسول إلى أهل أفسس .

فالمسيح الكوني هو المسيح المنتصر على كل قوة أخرى في هذا العالم ، وهذا ، طبعاً ، ليس بالانطلاق من هذه الأساطير التي كانت وراء حديث بولس إلى أهل أفسس . فإن هذه الأساطير كانت في أدمغة اليهود المتنصرين ، واليهود المتنصّرون كانوا من ذوي العرفان (الغنوصية) . وهم الذين يعتبرون أن الإنسان يخلص بالمعرفة ، بهذه المعرفة ان العالم هو مجموعة هذه الأرواح وأنه نتيجة فيض إلهي وليس نتيجة خَلق . ذوو العرفان هؤلاء يعتبرون أنفسهم من أهل المعرفة لأنهم يعلمون ما لا يعلم الجهال . لم يكن هَمّ بولس في هذه المرحلة ان يقول أن هذا خطأ . كان همه أن يعالج وضعية نفسية عقلية عند الناس ، فيقول لهم إذا كنتم تعتبرون أن هذا العالم ملء روحاني أي مملوء من الأرواح فإن المسيح قد تغلب على هذه الأرواح وعلى هذا الكون ، وأن هذا الكون ليس هو إنبثاقاً عن الله أو صدوراً عنه . وطالما ان المسيح هو السيد ويبقى هو السيد فهذا العالم صار خاضعاً له . أي أن همّ بولس ، هنا ، همّ وجودي ، كياني ، وهو أنه من الآن فصاعداً ، بعد ان نزل المسيح في التاريخ ، صار كل شيء خاضعاً له . تبقى القيامة ، إذاً مركز الفكر في الكنيسة المسيحية ، وبالإضافة إليها نبحث في الفكر والفلسفة والديانات وما إلى ذلك .

يبقى من كل هذا ان للمسيح جسداً منتصراً ، ناسوتاً مُجلّىً ، ممجداً. فإذا أردنا ان نتكلم بلغتنا ، اليوم ، نقول أن ناسوت المسيح من

ناسوت إمرأة وهو ناسوت كل الجنس البشري . ولكون جسد الإنسان من التراب أي من مادة هذا الكون فيصح ، بمعنى من المعاني ، أن نقول أن مادة هذا العالم متصلة بناسوت المسيح . إذ حيث أن جسد المسيح من هذا التراب فإن التجسد ينعكس في كل هذا الكون . أو ، بحركة عكسية ، عندما تجسد إبن الله تجسد في الكون ، والكون مذيّل لجسد ابن الله وتابع له . لم يعد عندنا إذاً في هذا العالم قوى مفصولة عن المسيح ، وكل هذا الكون بالتالي ، هو طرحة المسيح . من هنا انه يمكننا أن نتكلم عن المسيح الكوني أي عن المسيح الممتد .

المسيح يطلع من الكون

يبقى ، طبعاً ، أن هذا العالم لا يزال تحت الخطيئة ولا يزال في أنين ، وهو يتمخض ليلد المسيح . ما معنى هذا الكلام ؟ الإنسان يلد المسيح لأن العذراء ، وهي إنسان ، ولدت المسيح . إقتبلت العذراء كلمة الله فجاء منها المسيح . كل نفس بشرية معمّدة هي والدة للمسيح . عندما تنطق أنت بالإلهيات ، عندما تصبح إنساناً روحياً أخذك المسيح، فنفسك عذراء أي هي غير ملوثة ،غير مديونة لشخص آخر ، وأنت إذ ذاك مديون للمسيح ومشدود إليه ، ونفسك ، بالتالي ، عذراء تتقبل زرعه هو، وبالتالي أنت للمسيح في هذا العالم أي أنك تخرجه منك .المسيح ولد من مريم ويولد من كل المريمات أي من كل البشر الذين هم على منهج مريم بالعذرية أي بالطهارة والطاعة .

ولكن ، إمتداداً لهذا الفكر ، الأرض كلها والدة للمسيح . ماذا يعني هذا طالما أن الأرض جسد المسيح ، طرحته ، ثوبه (« إن مسست ولو ثوبه أبرأ »).كيف تلد الأرض المسيح ؟ الأرض ، هنا ، يمكن القول أنها الجمال Cosmos، الإنسجام ، الزينة. المسيح يولد من الجمال أولاً ولذلك فاهتمام الفن إهتمام أصيل . إن الحس الفني إنقداح للنفس

البشرية إذ هي تعلو فوق إهتماماتها الجسدية . من هنا أن الفن إستعداد للإيمان . لذلك فالتربية الفنية أساسيةجداً لتفتيق الإيمان .

المسيح يطلع من التاريخ

والمسيح يطلع من التاريخ ، ثانيا . الكون عندما حكى صنع تاريخاً ، أي صنع علاقات بشرية إجتماعية وصنع ، بالدرجة الأولى ، معرفة ، جمالاً ، فلسفة . . الخ . تمخضات البشر ، آلامهم وصرختهم من أجل العدالة هذه كلها تعني ان الكون برمته يئن ويتمخض ، وبهذا المخاض يلد المسيح . من هذا أن المسيح أتى من السماء ويأتي أيضاً من الكون وليس فقط من السماء . المسيح ينزل ويطلع في نفس الوقت . يطلع من الجمال والتاريخ ومن كل نفس عذراء . المسيح ، في النهاية ، يطلع من التاريخ عندما يتوق هذا الأخير إلى العذرية . أي أنه على قدر ما تصير المدنية متصلة بالحياة الروحية فعلى هذا القدر يطلع منها المسيح .

المدنيـــة

ولكن ما هي المدنية ؟ إنها ، أصلاً ، قوة ضاغطة على الغرائز المتفلتة توجهها وتضبطها حتى لا يقتل بعضها البعض . المدنية تبتدىء من الأمن ، تبتدىء لما تبطل البداوة ويبطل الثأر ، تبتدىء بالإستقرار . المدنية تبتدىء عندما يكون ثمة تنسيق لقوى الإنسان ، تبتدىء في الترتيب . إلا أن هذا لا يمنع أن تصير المدنية ضد الإنسان . وهذا ما يحدث . المدنية ملتبسة . كل ما في التاريخ ملتبس ، فيه خير وفيه شر . ولكن يبقى هذا الصراع ضمن المدنية ، ضمن المجتمعات حتى تكون خاضعة لحكم العقل والمحبة بحيث يتوفر لكل إنسان المأكل والملبس والإستشفاء والتعلم . . . فيكون ثمة مجتمع عادل ومحب . يجب أن

يكون ثمة ترتيب في المجتمع السياسي حتى يظهر المسيح من هذا التاريخ . إنما هناك ، دائماً ، أشراف ـ وهذا الكلام لا يصح كثيراً ولكن للإيضاح ـ أشراف من المسيح ـ المسيح التاريخ . وبتعبير آخر ، أن القيم الصادرة عن تمخض التاريخ لا بد وأن تشرف عليها كلمة الله وتفحصها حتى يتبين ما إذا كانت هي ، بالحقيقة ، المسيح . مقابل ذلك قد يتيه الإنسان اللاهوتي عندما يتحذلق ويتفلسف،ولهذا ايضاً فالمسيح الطالع من التاريخ يهذب الانسان اللاهوتي، أي يضبطه حتى يكون فكره صالحاً وموجهاً لواقع التاريخ .

الكون يفرز أدياناً

في هذا الكون الذي يحتضنه الله ظهرت فلسفات وأديان . الكون يفرز أدياناً . فالدين الأفريقي ، مثلاً ، الذي هو إفتقاد لأرواح الأجداد دين «نَسَمي»Animiste وهو متعلق بالقبيلة الأفريقية وفيه، طبعاً ، الطبول والزمور والرقص وما إلى ذلك . كل الأديان الوثنية القديمة أفرزها الكون . أخذ الإنسان شهواته ودعمها بآلهة : فقال بإله الحرب المريخ (مارس Mars) لأن عنده غريزة العدوان.وقال بفينوس Vénus وعشتروت وعشتار وما إليها من آلهة الحب أو الخصب لأنه يريد الجنس وتكبير الجنس . وقال أيضاً بـ باخوس إله الخمر . أخذ الإنسان بالتالي كل شهواته ووضع لها آلهة في السماء .

الهندوسية والبوذية

إلى أن وصل هذا الكون إلى ديانات راقية مثل الدين الهندوسي . هذا الدين يقوم على حياة روحية ويقول العلماء اليوم ، أنه يقوم على نوع من التوحيد وأن كانت رموز هذا التوحيد متعددة في أكثر من إله ، في الظاهر . ولهذا الدين كتب تتضمن مستوى من الحياة الروحية رفيعاً . حتى البوذية التي لا تؤمن بالله هي دين لأن منهجها روحي وهي تسعى

الى الحياة الروحية عن طريق التقشف ، عن طريق الإنسان . إنها تؤمن بألوهة بلا إله إذا صح التعبير . وقال الآباء ان الله احتضن الهند ورعاها قبل الميلاد ، رعاها بملائكة ، أي عند الله ترتيباً لهذه الهند . ولقد كان بوسع الآباء أن يقولوا ، استطراداً أو توسعاً ، أن لله رعاية لكل الأديان السابقة .

علاقة الله مع هذه الديانات

«لم يترك نفسه بلا شاهد ». هكذا يقول العهد الجديد إذ يتحدث عن الأمطار والطبيعة على أنها شاهدة لله . ويقول أيضاً ، مستشهداً بشاعر يوناني ، « نحن من نسل الله ». هكذا اعتبر البشر أنفسهم . وقال الآباء ان هذه الملائكة التي كانت ترعى الأديان القديمة هي التي جاءت الى بيت لحم وخضعت للسيد عند مولده ، أي وضعت حداً لنفسها . الأديان القديمة قد انقرضت وجاءت الى المخلص ، إلا أن هذا لا يعني إنكاراً لهذه الأديان أساسياً . فكما ان الله رعى شعب اليهود هكذا رعى الهند . صحيح أن ترتيبه الأساسي أو تدخله التاريخي كان مع العبرانيين باختياره لإبراهيم ، إلاّ أنه كان له أيضاً ترتيب كونيّ غير تاريخي كما في الهند . وقال الآباء ، ولا سيما الإسكندرانيون منهم ، أن الفلسفة اليونانية كانت من حكمة الله وان أفلاطون توصل إلى شيء من معرفة الله ولذلك سُمي بأفلاطون الإلهي ، حتى أنه صارت تُصنع في بعض الكنائس الأرثوذكسية ، على الجدران الخارجية وليس في الداخل ، أيقونات لأفلاطون وأرسطو ولكائنات أسطورية من الميتولوجيا اليونانية. وكذلك في الغرب، ففي كاتدرائية شارتر على الحائط الخارجي نرى تمثالاً لأفلاطون . وتكلم الآباء أيضاً عن « قديسين وثنيين » و « أبرار وثنيين »، لذا جاز أن نتوسع ونتحدث عن إتصال بين الله والأديان عموماً .

يذهبون أن مريم هي صاحبة الله وأن الله استولدها المسيح . وجاء « لم يتخذ الرحمن ولـداً ». هذه نظـرية التبنـي وهـي ان المسيح إنسـان في الأساس وأن الله رفعه وجعله إبنه . والقرآن يقول كيف يكون هذا أن الله يأخذ ولداً من لحم ودم ويجعله إبنه ؟ نحن لم نقل هذا ، قلنا ان المسيح كان إبن الله وبعدئذ جعله الله إنساناً ، أي أننـا قلنـا بعـكس نظرية التبني ، وهذا يعني انه ، في شوارع مكة والمدينة واليمن ، كانت تسري آراء عن الثالوث الأقـدس ليسـت لهـا أية علاقـة بالأرثـوذكسية ويدحضها القرآن ونحن ندحضها معه ودحضها الآباء معه قبل ظهوره .

بسبب من ذلك فإن كثيراً مما كتب عند المفسرين المسلمين وعند المبشرين البروتستانت ليس أبداً ذا موضـوع . طبعـاً هذا لا يعنـي أن القرآن يؤكد أن المسيح إبن الله الحي ، ولكن القرآن يسـكت عن هذا الموضوع .

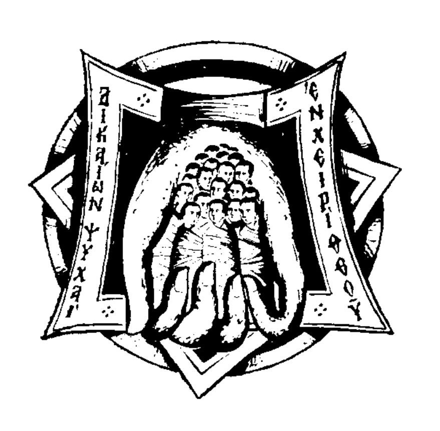
حضور المسيح في الأديان الأخرى

إذاً يمكننا القول أن ثمة شيئاً من حضور المسيح في الأديان القديمة وفي بعض من اليهودية الأرثوذكسية وبنوع خاص في الإسلام . وبالتالي فموقفنا تجاه هذه الأديان والأديان عموماً موقف مزدوج . أي كما ان هناك حرباً على ما هو خطأ كذلك هناك إستدعاء لما هو إيجابي . ثمـة عنـد الألمان مثل شائع يقول ما معناه أنك إذا كنت تغسل الطفـل في وعـاء ورميت بالماء الوسخ فاحترز أن لا ترمي بالطفل مع الماء . ولذلك فهذا الأمر مهم جداً في معالجة الأديان . فإذا أردتم ، إفتراضـاً ، أن تكبـوا المغسول الإسلامي ، إذا جاز التعبير ، عليكم أن تنتبهوا إلى أن لا تكبوا الحقيقة التي في الإسلام، لأن مَن كبّ الحقيقة التي في الإسلام فقد كب المسيح، ومن كبّ الحقيقة التي في الصوفية اليهودية فقد كب المسيح، ومَن كبّ الحقيقة التي في غاندي وفي طاغور . . . وما الى ذلك فقد كبّ

المسيح. علينا إذاً أن نسهر لمعرفة أين هو المسيح.

في الإصحاح الثالث من « نشيد الأناشيد » تخرج العروس للقاء عريسها الذي كان قد مشى في الشوارع ليلاً وتذهب لتطلبه من الحراس قائلة لهم : « أرأيتم من تحبه نفسي ؟ » (نشيد الأناشيد ٣ : ٣).

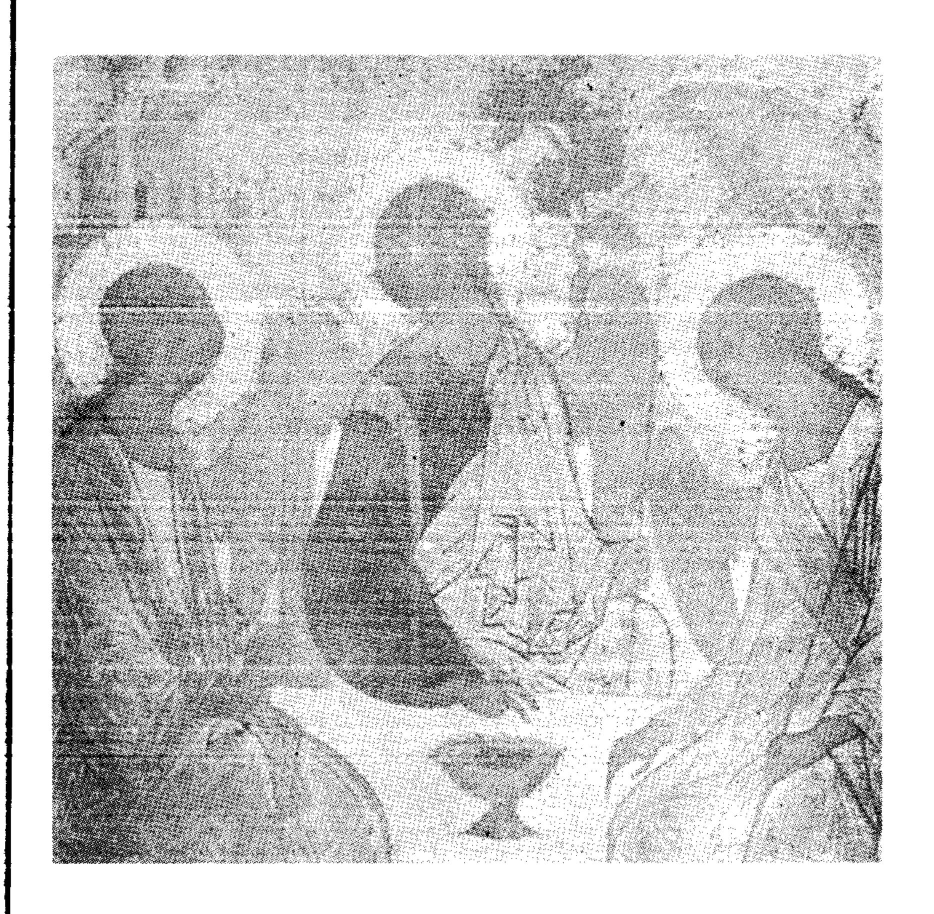
الإنسان المسيحي ، حتى يقيم علاقة بين كلمة الله والكون ، - ونحن مرميون في هذا الكون مسيحيين وغير مسيحيين - يجب أن يسأل هذا السؤال : أين المسيح ؟ فإذا كان المسيح نائماً في الأديان وفي الفلسفات وفي النضالات الإجتماعية يجب ان نسعى إليه : « في الليالي على مضجعي التمست من تحبه نفسي فما وجدته . أنهض وأطوف في المدينة ، في الشوارع وفي الساحات (أي في الأحزاب السياسية ، في الفلسفات ، في الأدب ، في الشعر ، في الفن . . . الخ) ألتمس من تحبه نفسي. اني التمسته فما وجدته. صادفني الحراس الطائفون في المدينة. أرأيتم من تحبه نفسي. فلما تجاوزتهم قليلاً وجدت من تحبه نفسي فأمسكته ولست أطلقه حتى أدخله بيت أمي وخدر من حبلت بي» (نشيد الأناشيد ٣ : ١ - ٤). يجب إذاً أن نسعى إلى المسيح في كل شيء وإذا وجدناه أن ندخله الى البيت.



الفصل السابع

الثالوث القدوس

« . . .اؤمن بآله آب. . . وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل الدهور. . . وبالروح القدس المنبثق من الآب. . . »



ليس الثالوث فلسفة

إن الكثيرين من المسيحيين يظنون أن عقيدة الثالوث هي نظرية فلسفية وهي قضية معقدة لا يفهمها أحد ، وبالتالي هي موجودة ونقول بها ، إلاّ أنها لا تمت بصلة الى الناس وإلى ما يعيشون . ولكن عندنا القديس غريغوريوس اللاهوتي الذي يقول : « الثالوث فرحي ». إذاً وُجد أناس ليس الثالوث بالنسبة إليهم شرحاً فلسفياً ، ليس تعليماً للأذكياء ولكنه حياة تُعطى للناس جميعاً ، وكل الناس يمكنهم الإشتراك في حياة الثالوث . ليس عند المسيحيين تعليم إلاّ وله علاقة بحياة البشر الأقرب إلى معيشتهم ، أي ان حياتي تكون مختلفة كلياً إذا كان هناك ثالوث أو لم يكن . ليس المسيحيون فلاسفة وليس ثمة عنصر فلسفي في ديانتهم ، وهم يجلّون إيمانهم عن أن يكون فلسفياً . هذا يعني انه ليس هناك عنصر أرضي يكوّن إيمانهم . هم يقولون ان الألف والياء في إيمانهم هو الثالوث القدوس . وبالتالي ، لا مهرب من أن نواجه هذا الذي يقال عنه في المسيحية انه البداية والنهاية .

ما يُنسب للإنسان لا يُنسب لله

يجب القول ، بادىء ذي بدء ، تمهيداً لبسط العقيدة ، أننا إذا تحدثنا في اللّه فإنما يكون للكلمات معانٍ غير المعاني المألوفة . اللّه

يتحدث عنه بتنزيهه عن المخلوق . اللّه ليس مثلـه شيء ، ليس مثلـه مخلوق . فالحديث عنه يكون إذاً بكلمات - طبعاً لا يستطيع الإنسان إلا أن يتكلم ، وهذا العلم الإلهي نقول عنـه إنـه التكلـم بالإلهيات - ولكن ، حتى إذا تكلمنا في أمور الله فنحن نضمّن الكلمات معاني غير المعاني المعروفة ؛ لها ، طبعاً ، صلات بالمعاني المعروفة ولكنها غيرها في النهاية . مثلاً : إذا قلنا أن هذا الإنسان واحد وليس إثنين فليس بهذا المعنى نقول إن الله واحد . الله واحد ولكن ليس تشبيهاً بأن هذا من الناس أو ذاك هو واحد . هناك ، طبعاً ، شيء من القرابة بين أن الله واحد وأن هذا من الناس أو ذاك واحد . ولكنها فقط قرابة . لا نعني الشيء نفسه إذا قلنا واحد عن إنسان وإذا قلنا واحد عن اللـه . ليس هناك مدلول واحد . عندنا مدلولات مختلفة . إذا قلنا أن هذا الإنسان جميل ، بمعنى ان ثمة تناسقاً بـين عينيه ومنخـريه وفمـه وقامتـه . . . الخ . . فليس بهذا المعنى نقول أن الله جميل .

ماذا نعنـي عندمـا نقـول أن اللـه جميل ؟ هذا يفـرض حركة في القلب ، حركة تطهّر كبيرة . وندرك في الصلاة ، في التأمل الروحي ، أن الله جميل . الله هو الذي يُتصل به ويُعبد وفي النهاية ، لا يُتكلـم عنه . ولكن لا بد من الكلام . فنقول ، إذاً ، كلاماً منزهاً عن الكلام البشري . نقول عن الله ما ليس هو ، ولا نقول عنه ما هو . نقول ، مثلاً ، الله ليس بواحد ، ليس بجميل وليس بموجود ، إذا كان الإنسان موجوداً بمعنى أن له عظاماً ولحماً ونفساً . . . ألخ . أي أننا إذا حددنا كيان الإنسان فليس بهذا المعنى اللّه موجود . ولا يمكننـا ، بمعنـى من المعاني،أن نتكلم عن الله مثلما نتكلم عن الإنسان . صحيح أن اللـه موجود أي هو قائم ، ولكن هل هو موجود مثلما الإنسان موجود ؟ كلاّ . دائما هناك كلاّ عندما نتكلم عن الله . ليس هو موجوداً بنفس الوجود

الإنساني . إذا كان للإنسان جوهر فهل للّه جوهر ؟ نقول في نشيد عيد الميلاد : إن « العذراء تلد الفائق الجوهر ». لم نقل أن له جوهراً ولكن أنه يفوق الجوهر . فإذاً ، إذا كان الإنسان ذا جوهر فاللّه ليس ذا جوهر . ما يُنسب للإنسان لا يُنسب للّه ، اللّه ينزه دائماً و يُرفَّع ويعلى .

الثالوث يتعدى العدد

بناء على ما تقدم ، إذا قلنا أن اللّه مثلث الأقانيم وإذا قلنا انه واحد في الجوهر فهذا ليس معناه ، على الإطلاق ، أنه هو ثلاثة أو أنه واحد . ليس هو ثلاثة بمعنى العدَد . العدَد لا علاقة له باللّه . لا يستطيع الانسان إلا ان يَعِد المحسوسات . الله لا يُعَد لان من عدَّه فقَّد حَدّه . ولذلك ، عندما يقول شهود يهوه أو المسلمون أو اليهود ، عندما يقولون عنا أنّ عندنا ثلاثة آلهة ، لأننا نقول : واحد وثان وثالث ،(وهم يعنون بذلك أن عندنا ثلاثة آلهة) ، فالجواب على ذلك هو أننا لا نعد الله ثلاثة . ليس هذا عداً . أحدهم اسمه الآب وأحدهم اسمه الأبن وأحدهم اسمه الروح القدس . إذ أنه يُجاب على المسلم واليهودي وشهود يهوه بأنه إذا كان إلهك واحداً وأنت تعده واحداً فهذا كأنك تعده ثلاثة أو أربعة أو خمسة عشر . . . الخ لأنك إذا عدَدْته واحداً معنى هذا أنك حدّدْته بواحد . الله لا يُحَّد. فإذاً ، واحد ليس أقل من ثلاثة . إذا كان ثلاثة عدداًفواحدعدد أيضاً. الله ليس واحداً إذا قصدنابهذا انه ليس إثنين . هو واحد ، هكذا قال عن نفسه بمعنى لا أعرفه عقلياً ولا يمكن أن أعرفه عقلياً . ولكن هكذا كشف هو نفسه . وأنا أستطيع ، بالإتصال الروحي ، بالصلاة ، بخبرة القديسين وخبرة الجماعة أن أذوق كيف هو ثلاثة ، كيف هو واحد . ولكن يبقى ان القضية ليست إحصاء .

موقف روحي صوفيّ

تلاحظون أننا أُرجعنا الآن إلى موقف روحي ،صوفيّ،إلى موقف يفوق كل إدراك عقلي ، لأننا نحن لا نستوعب الله ولكنه هو يستوعبنا . وبالتالي لا مبرر للسؤال : كيف ان الثلاثة واحد والواحد ثلاثة . لأنه ليس همّي أن أفهمك هذا ولا يمكنك أن تفهم هذا . وأكثر من ذلك ، لا يمكنك ان تفهم ، حتى ، كيف أن الله واحد . ولكن عقل الإنسان حسابيّ وهذا بالنسبة إليه بسيط أكثر من أن تجعله يقارن بين شيئين فيلتبس عليه الأمر وتتعقد بساطته العقلية . ولكن ، في حقيقة الحال ، عقلياً ، الواحد ليس أبسط من ثلاثة . ويبقى فهمك للواحد على نفس صعوبة فهمك للثلاثة . فإذاً لا يفتخرن أحد علينا بأن عنده ديانة عقلية . وهل فهم أن الله واحد هو موقف عقليّ ؟ كل وجود الله ، في الأساس ، ليس عقلياً . العقل البشري لا يفرض عليك الوجود الإلهي . ويرتاح العقل البشري ، كلياً ، إن بوجود الله أو بعدم وجوده . إذ يمكن لهذا العقل ان يصعد إلى القمر وأن يصنع مختبرات وصواريخ سواء كان الله ، بالنسبة إليه ، موجوداً أو غير موجود . ولا يستطيع العقل البشري ، بقدرته الوحيدة ، إلا أن يعدّ . والفيزياء الصحيحة والسليمة هي ، في النهاية ، العدّ ، هي حساب . كلْ شيء ليس هو حساباً ليس علماً . كل شْيء ليس هو حساباً ليس معرفة . الله ليس حساباً لذلك فهو لا يُعرف ولا يُستدل عليه .

من هو إله المسيحيين ؟

من هو إله المسيحيين ؟ في سفر الرؤيا آية تقول عن المسيح أنه « الحمل الذبيح قبل إنشاء العالم» .إذاً قبل أن يخلق الله العالم كان عنده

في جوفه حمل مذبوح وهو الإبن الذي أعدّه لخلاص العالم . هذا قبل أن ينشأ العالم . هناك ، إذاً ، عملية حُب في داخل الثالوث . الله أعد ابنه ليكشف للعالم بأنه محبوب ، أي بأن هذا العالم محبوب . ويحذرنا الآباء ، طبعاً ، من أن نتحدث في الثالوث القدوس إذا كنا نريد ان نتكلم عن علاقة الله بالعالم . هذا الحديث ، يقول الآباء ، هو خارج عن المبحث الثالوثي . ثمة شيء إسمه « ثيولوجيا » Théologie وهو الكلام عن الله في أزليته ، بحد نفسه ؛ وثمة شيء إسمه « إيكونوميا » Economie وهو التدبير ، أي هو كيف أن الله يريد أن يدبّر هذه الدنيا عن طريق الخلاص . ويقول لنا الآباء أيضاً أن البحث في الثيولوجيا هو غير البحث في الـ « إيكونوميا » أي في تدبير الخلاص .

الإله الواحد الأحد لا يُحِبّ . الواحد تعني ، في العربية ، واحداً بالعدد ، والأحد تعني الذي ليس بعده ثانٍ ، هذا في العربية .« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يَلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ».هذه آية من سورة « الإخلاص » وليست هي ، في الحقيقة ، موجهة ضد المسيحيين . ليس معناها أنها تنكر الإبن والروح القدس . إذا أخذناها

نصاً فقط وليس بمدلولها القرآني، يمكننا القول، من حيث النص، أن الإله الأحد اي المنغلق على نفسه، المحدود بأحديته، هذا الإله لا يَلد ولا يولد، أي أنه لا يُحِب ولا يُحَبّ . عندما يكون الواحد واحداً فقط وغير قادر ان يصير إثنين وأن يحاور شخصاً أمامه فهو ليس منفتحاً. حتى الراهب الساكن في صومعته هو في حوار مع المؤمنين الذين ليسوا معه في صومعته، ذلك أنه يصلي من أجلهم ويصلون من أجله.

لا يوجد إنسان طالع من صخر . كل إنسان يحاور حتى يوجد .

قبل أن يحاور ليس هو موجوداً . الله موجود لأنه يحاور ، لأنه غير منغلق على نفسه ، لأنه فاتح نفسه . هذا الإله الفاتح نفسه للحديث ، لحديث حب ـ ولا حديث غير هذا ـ هذا الإله هو الآب وهو مصدر الوجود الإلهي ، أي مصدر اللاهوت ، مصدر الألوهة . قبل ان يكون العالم وبالإستقلال عن العالم الله قائم . كان يمكن للعالم ألاّ يكون . العالم موجود عرضاً ويمكن ان يفنى ، ويقول العلماء أنه سيفنى . الله موجود بصرف النظر عن العالم ، عن وجود العالم وزواله .

الإبن مولود من الآب والروح القدس منبثق من الآب

هذا الإله الموجود ، القائم في نفسه والمنفتح من نفسه أيضاً ، هذا الإله الذي لا بدء له ولا نهاية ولكنه بدء كل شيء ونهاية كل شيء ، هذا الإله ، قبل أن يَخلق وبالإستقلال عن الخلق ، جاء منه الإبن ، فاض منه الإبن ـ الكلمة وفاض منه ، أي من الآب ، أيضاً الروح القدس . والكلمات التي تُستعمل في التراث المسيحي ، في هذا الشأن ، هي أن الآب غير مولود وغير منبثق ـ هذه صفته الخاصة به والتي تميزه عن الإبن والروح ـ والإبن مولود من الآب ، والروح القدس منبثق من الآب . الفرق بين الإبن والروح هو ان الإبن مولود والروح القدس منبثق . هاتان الكلمتان ـ مولود ومنبثق ـ موجودتان في الكتاب المقدس. نحن نعرف أن الإبن مولود من الآب وقرأنا أن الروح القدس منبثق من الآب . ما هو الفرق بين المولود والمنبثق ؟ هذا ما لا نعرفه . هذا النشوء : نشوء الإبن عن الآب ونشوء الروح القدس عن الآب ،هو نشوء أزلي أي بلا زمان ، قبل الزمان ، لأن الزمان مخلوق . قبل الزمان وبدونه ، بدون إنفعال ، بدون مخاض وبدون أزمة، صدر الإبن عن

الآب وصدر الروح عن الآب ، هذا بدون بَعْدية ، أي أن الواحد لا يأتي بعد الثاني في الزمن . من هذا القبيل فإن هذا لا يُشبَّه، إطلاقاً بالولادة الجسدية لأن الأب الجسدي هو قبل ابنه فبينهما إذاً بَعدِية . ليس من بعدية بين الآب والإبن ، فالواحد ليس قبل الثاني في الزمن ولكن ، إذا صح التعبير، يمكننا أن نقول أن الآب هو قبل الإبن ليس بالزمان ولكن بالنطق ، أي بالتسلسل ، بتسلسل غير زمني . الآب قبل الإبن بالنطق لا بالزمن أي أن الواحد يجيء من الثاني . ولكن نعود فنقول أنه مذ كان الآب في الأزل ، كان إبنه معه وكان روحه معه . فإذاً ليس بينهم إنفصال ولا فجوة ولا بُعد ولكن ، في نفس الوقت ، الواحد ليس الآخر . الآب ليس الإبن ، الإبن ليس الروح القدس ، الروح القدس ليس الآب . هناك تمايز ـ وهنا يمكن أن تكون كل الكلمات ثقيلة جداً ـ بينهم ، تمايز بلا أفضلية. التمايز يعني،في العربية ، أن الواحد غير الثاني ، مثلاً : هذه البنت غير تلك . الآب لا يمكن ان يكون الإبن ولا الإبن الروح القدس ولا الروح القدس الآب، العلاقة بينهم علاقة الصدور. الإبن صدر عن الآب والروح القدس صدر عن الآب، الإبن بالولادة والروح بالإنبثاق وما يجمعهم هو الجوهر الواحد. الذي يجمع الأقانيم الثلاثة هو الجوهر الواحد أي الطبيعة الواحدة، أي أن كل ما بينهم مشترك ما عدا صفات تخص الأقنومية. كل ما بينهم مشترك ما عدا الصفات الأقنومية. الجلسة واحدة أي الملوكية واحدة أو الربوبية واحدة أو، باللغة الإسلامية، الحاكمية واحدة. والخالقية واحدة أي أن الثلاثة اشتركوا في خلق العالم؛ كل هذه العبارات تأتي تحت كلمة الربوبية. الربوبية، الأزلية، الأبدية، الرحمة، المحبة. .الخ ،كل الصفات مشتركة ما عدا الصفات الخاصة بكل منهم .أي أن الصفة الخاصة بالآب هي الأبوة أي هو غير مولود وغير منبثق، هذه هي الصفة الأقنومية للآب. والصفة الأقنومية للإبن هي المولودية أي أنه مولود. والصفة الأقنومية

للروح القدس هي الإنبثاق أي أنه منبثق. فإذاً كل ما بينهم مشترك ما عدا الصفات الأقنومية. وهذه قاعدة أساسية في اللاهوت المسيحي.

لـذلك ترون في الإنجيل أحـاديث وأن هذه الأحـاديث تدور، تارة، على أن الإبن مولود من الآب وإذاً هو خاضع له وعائد إليه ـ هذا في موضوع التجسد ـ وبالتالي هناك نوع من الرّوتبية، من المرتبية بين الآب والإبن، وتارة تدور هذه الأحاديث على التساوي بينهما. ثمـة أحاديث، إذاً، تدلّ على التساوي بين الآب والإبن وثمة أحاديث أخرى تدل على أن الإبن مولود من الآب وبالتالي على انه تابع من حيث انه ليس هو المصدر ولكنه آت من المصدر بدون زمان. ولكن، حتـى إذا جاء الإبن من المصدر الأول بلا زمان فهذا لا يمنع أنه تابع. هو تابع ليس بمعنى أنه عبد للآب ولكن بمعنى انه متصـل بالتبعية. الإبـن والـروح القدس متصلان بالتبعية مع الآب بلا زمان، بلا تفريق، بلا فجوة وبلا بُعد. ولكن هناك ثانٍ وثالث مقابل الأول وهو الآب الذي يبقى مصدراً للاهوت.

علينا اذاً أن نستوعب في نفسنا المؤمنة، وفي نفس الوقت، أن بين الأقانيم الثلاثة تساوياً، ولذا فثمة أحاديث تدور حول التساوي، وأن بينهم تسلسلاً أو إرتباطاً أو صلة ولذا، أيضاً، ثمة أحاديث عن الصلة. من أجل ذلك مردودة هي هذه الدعاوي: «كيف يتكلم عن الآب انه أهم من الإبن أو أعلى منه وأن المسيح يظهر نفسه بأنـه خاضـع؟» المسيح خاضع لأنه تابع، لأنه إبن، والمسيح خاضع أيضاً، فيما بعد، في الإنجيل، لأنه تألم، لأنه إنسان، ولكن ليس فقط لأنه إنسان، بل أيضاً، لأنـه ابـن وسيكون اللـه الآب الـكل في الـكل، وفي الآخـر سيخضع المسيح للآب لأنه، أي المسيح، يأتي بالإنسانية جمعاء الى الله الآب. ولكن، بصرف النظر عن المخلوق وبصرف النظر عن الفداء

فالمسيح متجه إلى الآب لأنه أتى منه .

المعنى الأخير للثالوث

لماذا كل هذه « الكركبة » ، كل هذه «الشغلة» لماذا ؟ فقط لأن الله هكذا قال وما قاله صحيح . ولكن ما هو المعنى الأخير للثالوث ؟ المعنى الأخير للثالوث هو أن الله محبة . أي ، هذا الإله الأول ، كما تسميه الطقوس الأرثوذكسية ، هذا الإله الأول ، وهو الآب ، الأول في النطق ـ وليس الأول في الزمن ـ الأول من حيث أنه المصدر ، هذا الإله الأول ، لكونه محبة ، صدر عنه إبنه وروحه صدور حب ، صدوراً لا زمنياً، صدوراً حبياً كما يقول القديس مكسيموس المعترف. اللهّ الآب يحب بهذا المقدار أنه صدر عنه هذان الأثنان أي الإبن والروح. وهذا يعني أن الإبن هو الآب مسكوباً كلياً في الأقنوم الثاني. الإبن معناه جوهر الآب ، طبعاً، وليس أقنوم الآب وفرد الآب كفرد، أي معناه جوهر الآب ، طبيعة الآب وحياة الآب . وبكلمة عصرية، حياة الآب التي فيه انسكبت كلياً في الإبن. فإذاً يمكننا القول ان الآب نفسه مُضَحىّ بالابن وكذلك انسكب كلياً في أقنوم ثالث، وهو الروح القدس، حتى تكتمل دورة المحبة. هذه فكرة لمتصوف فرنسي من القرون الوسطى H.de Saint-Victor هذا كان أرثوذكسي التفكير وقد قال: الآب يحب الإبن هكذا أن الروح القدس جاء من الآب حتى يكون الإبن محباً للروح القدس وحتى يكون الإبن محبوباً من الروح القدس. يظهر أن هذه هي فلسفة الحب أنك إذا كنت تحب إنساناً ما يجب أن تحبه، أولاً ، ويجب أن تجعل أحداً آخر يحبه. أي يجب على الإنسان أن يحب وأن يكون محبوباً فتكتمل هكذا المحبة. هكذا أحب الآب الإبن أنه صدر من الآب الروح القدس ليحب الروح القدس الإبن والإبن الروح القدس،

فيكتمل هكذا حوار المحبة في الثالوث القدوس. ولـذا فالمحبـة، في النهاية، هي التي تشكل الثالوث القدوس. وليس من الغريب، بالتالي، أن يكون إله المسيحيين هو الذي تجلت المحبة فيه ومنه بأسطع بيان. وبالتالي، المسيحية جعلت الله في حوار مع نفسه.

من هنا أنه، بعدئذ، في التجسد، الله يأتي ليكلم النـاس. يقول نيقولاوس كابازيلاس أن الله هو الخطيب وهو كمن يخطب بنتاً فيأتي ويخطب ودّها، كما يقولون في العربية: الخطيب هو من خطب الودّ، من طلب الود. المسيح خطيب للجنس البشري. جاء ليبـذل الحب للناس حتـى يذعـن النـاس لهـذا الحـب. المسيح أحـب، في النهاية، لكي يدرب الإنسانية، حتى يفتح قلبهـا على اللـه. المسيح هكذا فعل لأنه مفوض. وهو مفوض أن يفعل هذا لأنه هو هكذا، لأن من طبيعته أن يحب. الأمور كلهـا مضبوطـة بشـكل أن من لا يقبـل الثالوث لا يقبل المحبة.

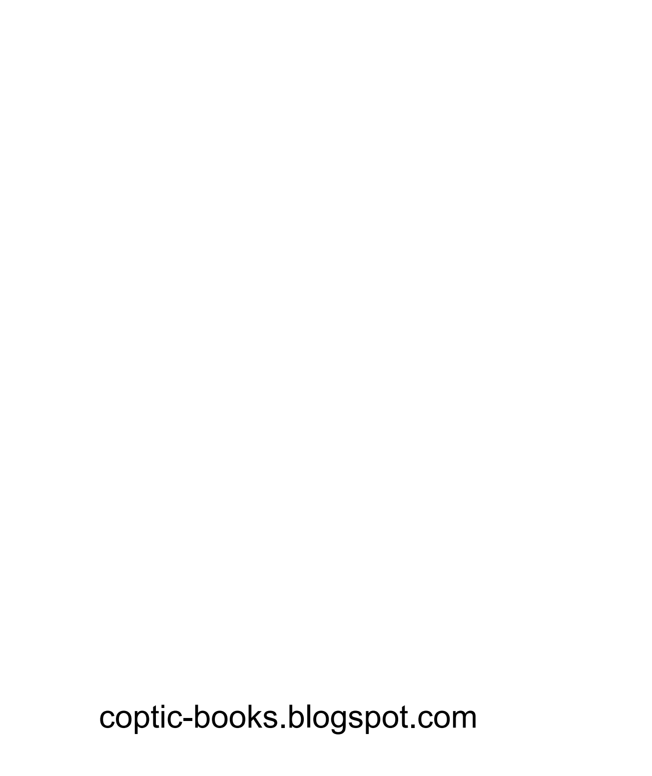
الثالوث متجلى الله

وبالتـالي، الثالـوث القـدوس هو المتجلى وهـو التعليم الكامـل والسليم عن الله في حياته والذي هو وحـده الأسـاس والضابـط لكل شيء.

من هنا ترون أن الثالوث ليس فذلكة عقلية وليس هو أن الآباء أرادوا أن يتسلوا لأنهم درسوا الفلسفة اليونانية فركبوا الأمـور هكذا. القضية ليست أننا فلاسفة أذكياء ونرتب الأمور هكذا. كلا. ذلك أن هذه القضية،قضية الثالـوث، وصلنـا إليهـا أو هي كشفـت لنـا، في النهاية، على الصليب.

الحمل الذبيح قبل إنشاء العالم والذي رأيناه مذبوحاً ، في وقت ما ، على تلة من تلال أورشليم ، هذا الحمل كشف لنا أن هذه العملية التي هي موته وحبه ، عملية لا تفهم ولا تدرك إلا لأنها عملية تامة منذ الأزل . الله ، منذ الأزل ، أحب الجنس البشري وأرسل الإبن . الله أحب لأنه كان يستطيع أن يحب . والله أحب لأنه ، من طبيعته ، من حين ظهر إلى الوجود ـ وهذا مجرد تعبير ـ أي قبل الوجود ، سرمدياً ، ظهر إلهاً محباً ، محاوراً نفسه ويحرك الحب في نفسه حتى يستطيع أن يكشفه للناس ، جوهراً ، بهذا المعنى .

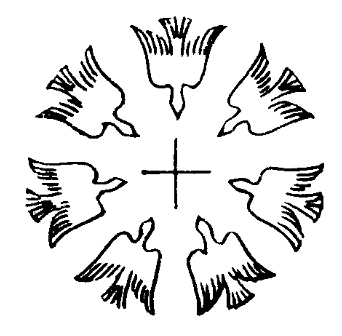




الفصل الثامن

الكنيسة

« . . . وبكنيسة واحدة ، مقدسة ، جامعة ، رسولية . . . »



الروح القدس يحقق الكنيسة جسد المسيح

في الكنيسة مهمتان : مهمة للمسيح ومهمة للـروح القـدس . فالمسيح بتجسده ، بأبعاد التجسد الكاملة أي الفداء والقيامة ، وضـع الأساس . « ولا يستطيع أحد أن يضع أساساً آخر غير الذي وُضع الذي هو يسوع المسيح »(١ كور٣ : ١١) .

والأساس يصل الينا نحن عن طريق الكلمة ايضاً ، الكلمة المعبّر عنها بشتى المظاهر أي الانجيل مقروءاً ، مدروساً ، ممثَّلاً ومسكوباً في طقوس ، في خدمة وفي عبادة . هذا هو الأساس .

هذا الأساس ينقله الروح القدس ويبني عليه. الروحُ القدس هو الذي يُنشيء في العالم هيكل الله أي الكنيسة . هيكل الله ، حضور الله في العالم ، مؤسّس وقائم على هذه الكلمة الواردة الينا في الانجيل والتي ظهرت ، أولاً ، بشخص يسوع . وهذا الهيكل له نمـوٌ بالـروح القدس الذي يشكّل في هذا العالم جسدالمسيح .أي ان هذه الكنيسة هي جسد المسيح أي هي محضر المسيح ومكان تجليه . من هنـا أنـه يوجـد عملان لا ينفصلان : عمل المسيح البنيانيُّ ،الأساسي،ثم عمل الروح القدس الذي لا يأتي بمسيح جديد ، بل يشكل المسيح فينا ، ونفحتـه هي التي تنشيء هذا المسيح فينا . لهذا كانت الأسرار وهـي مبنية على

كلمة المسيح ولكنها محقّقة بالروح القدس . مثال على ذلك : المسيح عندما قال: « خذوا كلوا هذا هو جسدي . . . واشربوا منه كلكم هذا هو دمي . . . لمغفرة الخطايا» ، أسّس سرَّ الشكر. كلامه هذا هو كلام التأسيس الذي أوجد هذا السر . أما اليوم ، بعد صعود المسيح ، فالروح القدس هو الذي يبني على هذا الأساس . أي هو الذي يحوّل الخبز الى جسد المسيح والخمر الى دمه . إذاً فالمسيح يظهر ويشكّل انطلاقاً من خبز وخمر ، بنفحة الروح القدس وبنزول هذا الروح على القرابين وعلى الجماعة . كما أن كلام الله للانسان في الفردوس : « تكثران وتملآن الأرض » أسس الزواج فجعله ممكناً ، الا انّ اتصال الرجل بالمرأة هو الذي يحقق كلمة الله . الروح القدس هو ، إذاً ، المحقق لحضور المسيح .

الكنيسة شركة المؤمنين في مواهب الروح

هذا الروح هو الذي يوحّد أعضاء الكنيسة وقد صاروا أعضاء فيها بالمعمودية . ولكن يجب أن تتعمق عضويتهم وان يقوى انتسابهم للمسيح بالقداسة . ما كانت المعمودية سوى مدخل الى الكنيسة ، ولُوج اليها . ولكن لا يصل الانسان الى ملء قامة المسيح ، أي لا يحقق الانسان في نفسه كلّ أبعاده المسيحية ، كل قامته الا بالنمو اليومي الدائم بالروح القدس . ومعايشة المسيحيين بعضهم بعضاً وتسانُدهم بالمحبة هما اللذان يجعلان هذه الكنيسة شركة الروح القدس . يقول بولس الرسول : « نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب وشركة الروح القدس لتكن معكم » . من هنا اننا نصبح جسداً للمسيح أي نصبح واحداً له ومتجلى وامتداداً ليس فقط بالمعمودية ولكن على قدر هذا النمو الذي هو ، أصلاً ، حصيلة سر الميرون . هذا يعني ان نموّنا يأتي

بالميرون وأننا به ندخل في الميثاق مع الله . فكما ان الانسان في العهد العتيق كان يولد وفي اليوم الثامن يختن أي يدخل في ميثاق الله ، هكذا ، في العهد الجديد ، يولد الانسان للمسيح بالمعمودية ولكن بالميرون يدخل في ميثاق الله أي العهد. معاهدة الله بهذا السر وختم الله علينا، ختم موهبة الروح القدس.

روح القداسة هو الأقنوم الثالث . وهذه القداسة تتمّ عن طريق توزيع المواهب المختلفة . الكلمة المستعملة في اللغة اليونانية والتي ترجمت في العربية بكلمة موهبة هي Charisma وهي مشتقة من لفظة Charis أي النعمة . والنعمة تعني ، طبعاً ، العطاء المجاني ، أي ان الواحد يعطي الآخر لقاء لا شيء . Charisma تعني ، حرفياً ، **حصيلة النعمة فينا** وهي التي ترجمناها بموهبة . **وكلمة موهبة ، في العربية ، تدل على الفاعلية والمفعولية** . تدل على الواهب ، الله الواهب ، ـ ولهذا يقال ان فلاناً عنده موهبة للدلالة بذلك على ان الله هو الواهب ـ ، وعلى الشيء الموهوب . والمقصود بـCharisma هنا هو هذا العطاء الذي وُهِبه الانسان من الروح القدس ، **بل ان هذا العطاء هو الروح القدس نفسه . ومعنى هذا ان عطاء الروح القدس لنا ليس شيئاً خارج الله ، مستقلاً عنه ولكنه قوة تفيض من الله نفسه . لذلك كل من أخذ موهبة فقد أخذ الله : « أخذنا الروح السماوي »** ، ولكن الله له مفاعيل مختلفة .

الاكليريكي والعلماني وعضوية شعب الله

يصف بولس الرسول ، في رسالته الأولى الى أهل كورنثوس ، مواهب الروح القدس . وثمة في مواضع أخرى ذكر لموهبة الشفاء ، مثلاً ، وموهبة التدبير وموهبة ترجمة اللغات وموهبة النبوّة وما الى ذلك .

هناك إذاً مواهب متعددة ومنها الموهبة العامة التي هي أن يكون الانسان عضواً في شعب الله ، ويسمى في العامية **علمانياً**. وربما أتت هذه اللفظة من السريانية **عُولِم** ، أو هي فقط من **علم** أي الاهتمام بأمر هذه الدنيا . **العلماني** ، في العامية ، تعني من ليست له علاقة بالعلوم اللاهوتية الروحية ولكنه يتعاطى العلم الاعتيادي . وإذا أتت من **عُولِم** فهي تعني من يتعاطى شؤون هذه الدنيا . هذا التفسير لكلمة **علماني** خاطىء ، طبعاً ، وهو صادر عن التفكير اللاهوتي الغربي . **علماني** تعني laïcos وهذه كلمة يونانية مشتقة من laos التي تعني **شعب**. و laïcos اليونانية تعني **العضو** ، ومن الأفضل تعريبها بكلمة **عامّي** أي بالنسبة لعامّة الشعب . وهكذا فان العامي ، أي الذي من الشعب ، هو عضو في الشعب الالهي ، **والحقيقة ان كل انسان ، حتى الاكليريكي ، عضو في الشعب الالهي . الاكليريكي عامي أيضاً** ، والقول الذي شاع في هذه البلاد ، منذ كانت المجالس الملية ، وهو ان هناك اكليريكياً وعلمانياً ، قول لا أساس له . فكل من نال الميرون صار من شعب الله ، والاكليريكي عندما صار اكليريكياً لم يبطل أن يكون من شعب الله أي علمانياً .

ضمن هذه الشركة المواهبُ متنوعة ، الله ينوّعها . هو الذي يجعل كلاً منا عضواً في شعب الله ، وهو الذي يعطي الحياة الأبدية للمؤمنين ، أي ان حياة الله فيهم يعطيها هو بدفق دائم . **وإذا تآزرت هذه المواهب تتشكل الكنيسة** . أي يخرج المؤمنون من كونهم جماعة زمنية تعيش في هذا التاريخ ، جماعة سوسيولوجية ، يخرجون من وضعهم الاجتماعي الى وضع أبدي . **أي انهم يأخذون حجمهم الالهي عن طريق الروح القدس** . أي كما ان ثمّة قوة فيهم حتى يشهدوا في العالم ، هكذا

أيضاً ،وبعكس ذلك ،فيهم قوة حتى يتصفّوا من تقلبات هذا العالم ، من خطايا هذا العالم ليصبحوا شعباً لله . وعلى قدر ما يصيرون شعباً لله يعودون ليشتغلوا في هذا العالم باستقلال عنه ، أي تكون هناك ، بينهم وبين العالم ، فسحةٌ من الحياة الأبـدية . **فالحياة الأبـدية التـي فيهـم تجعلهم يحكمون في شؤون هذا العالم ويوجهونه .**

ولكنّ ثمة وجهاً الى الله أولاً . الروح القدس هو الذي يوجّهنا الى الله . يوجهنا تعني ، في العربية ، يلفت وجوهنا الى الله ، يديرها حتى تتطلع اليه . وعلى قدر ما تنظر هذه الوجوه باتجاه واحد ، على هذا القدر ، نكون كنيسة . **نصبح كنيسة على قدر ما يلتفت وجه كل واحد منـا ليتطلـع الى الله** . ولـكن ، عندمـا نتطلـع الى الله ونحـن نمـارس الخدمة ، تبقى لكل منا موهبته الخاصة . عندنا جميعاً موهبة العلمانية أي موهبـة الميرون ، وهـي ان نكون مختومـين لله ، محفوظـين للمسيح ، مخصصين له . فإذاً ، إذا كنا نحن مختومين ليسوع المسيح معنى هذا اننا نتفتح له فقط ، فبهذا الاتجاه الواحد الى الله ، ونحن في هذا العالم ، نشكل الكنيسة . الكنيسة إذاً ، **هي** ، دائماً ، **متجهة الى الله الآتي اليها** ؛ **وهي** ، بسبب الخدمة من أجل **تحويل هذا العالم** ، **متجهة الى العالم** .

مواهب الروح ومعيّة الكنيسة

من هنا أننا نحتمل بعضُنا بعضاً ، كما يقول بولس الرسـول في رسالته الى أهل رومية ، ليس لمحاكمة أفكار ، ونحمل بعضُنـا أثقـالَ بعض ولا ندين أحداً بل نقبل الموهبة التي في الآخر . نقبل ، مثلاً ، أن فلاناً واعظ كبير وأن فلاناً مدبِّر صالح . ولذلك لا يفتش الواعظ الكبير عن ان يصبح مدبِّراً أي إدارياً ، وإذا فعل ذلك فانما هو يضيع وقته لأن

الروح القدس لم يعطه هذه الموهبة . وايضاً لا يفتش الاداري الكبير عن ان يصبح واعظاً . الانسان لا يستطيع أن يأخذ شيئاً لم يعطه إياه الله ، أساساً . تبقى هناك ، طبعاً ، جهودٌ بشرية . كل الأمـور التـي بمتناول الانسان يجب السعي اليها . الوعظ ، مثـلاً ، يُتعلَّـم كتقنية ، كفن ، ولكن قد يستمر الواحد عشرين سنة في تعلّم الفن وقـد يتقـن خطاباً سياسياً أو أدبياً دون ان يتوصل الى اتقان عظة دينية إذا لم تكن عنده النفحة لذلك . أنا لا أقول أن لا يدرس الانسان الفنون المختلفة التي تسند المواهب لتنفَّذ ؛ ولكن ، في الأساس ، يجب أن يعرف كل انسان موهبتـه وان يضعهـا في خدمـة الكنيسـة . من هذه المواهـب : الكهنوت أو الاسقفية .

الأسقفية ، أساساً ، تجمع مواهب في الكنيسة مختلفـة كالتعليم والادارة وما الى ذلك . **والأسقفية ليست سلطة أو امتيازاً ولكنها موهبة .** والانسان لا يعمل ، في الأساس ، شيئاً حتى ينـال الموهبـة . فهـو لا يستطيع أن يصنع نفسه كاهناً . فإما ان يكون ، من بطن أمه ، كاهناً أو لا يكون . وهو يستطيع أن يكتشف ذلك فيما بعد اذا كان موهوباً له ، والمطران يقول له ذلك والكنيسة جمعاء تستطيع أن تقول له ذلك . يبقى ان أصحاب المواهب يتبنّون بعضهم بعضاً ، يقبلـون بعضهـم بعضـاً ويقبلون تنوّعهم . هذه **عملية من أصعب ما في الدنيا** : **ان أقبـل أن يكون فلان إدارياً بينما انا لست إدارياً . أو أن يكون فلان معلماً بينما أنا لست معلماً . والخطأ يكون عندما يهيّج كل منا نفسه ليجمع المواهب كلها . نحن نقبل التنوع لأننا نقبل الله مصدراً للكل .**

لا شك أننا ، في الكنيسـة ، حتـى نكون معيّة يجب أن ننمـي المواهب في كل انسان . فالذكي مثلاً يجب أن لا نطمسه حسداً ولكن

نظهره لأن المسيح يستفيد من ذكائه ، ولأن القضية التي نحملها تنجح بالاشتراك . بالمحبة إذاً والتشجيع نجعل الآخرين يتقدمون . اذا كانت تهمنا ، فعلاً ، مصلحة المسيح ، فيهمّنا بالتالي ان يبقى فلان تقياً لا ان نقص له جوانحه وننمّ عليه . ومن أجل هذا نستر بعضنا عيوب بعض . من واجبنا ، طبعاً ، أن نوقظ المواهب في الناس ، ذلك ان الانسان لا يعرف نفسه موهوباً . المحبة الأخوية هي القوة التي توقظ المواهب . فنحن ، إذاً ، نحيط الناس بعناية وعطف حتى تستفيق فيهم مواهب الروح القدس لتنمو بالتنوع . من هنا أننا لا نستطيع ، اعتباطاً ، ان نقرر ما هو الأكثر فائدة للكنيسة في هذا الظرف أو ذاك . أي اننا لا نستطيع نحن ان نقرر ، مثلاً ، ان الكنيسة ، اليوم ، بحاجة الى اداريين فنأتي بأحسن الاداريين ونجعلهم رؤساء ، أو اكليروساً أو غير ذلك . هذا تفكير خاطىء . لا نستطيع نحن ان نقرر أن الكنيسة بحاجة الى لاهوتيين أكثر مما هي بحاجة الى ناس عمليّين . الكنيسة بحاجة الى مواهب متنوعة ومتعددة كما رسمها الله على لسان الرسول . نحن ليس لنا ان نقرر ما هو المهم وما هو غير المهم . ما يكشفه الله انه مهم هو المهم . وبالتالي فان هذه المواهب تتآزر ونوقظها نحن في الناس .

شركة المواهب وشركة المائدة

إذا عرفنا ذلك فنحن نعرف أن هذه الشركة بين أصحاب المواهب تتوطد على قدر التفافنا حول المائدة ، مائدة القرابين حيث يتغذى أصحاب المواهب لينتقلوا الى العالم . عندما نأكل جسد المسيح ونشرب دمه نكون ، بالتالي ، في حالة التقوّي بمواهب الروح كل حسبما وُهب .

في المادة الخامسة من النظام الأساسي الجديد للكرسي الانطاكي ان الاكليروس والعلمانيين يشتركون معاً في حياة الكنيسة حسبما أُعطي كل منهم من مواهب الروح . **الاشتراك الأمثل والضروري جداً والذي لا حياة لنا بدونه هو الاشتراك بجسد ابن الله في كل قداس الهي حيث تكون الـ « يرارخيا »** Hiérarchie . والـ « يرارخية » كلمة يونانية ليست لها ترجمة في أية لغة ، وهي تعني الجماعة المتشاركة . انها مشتقة من كلمة تعني القدسي . وهي تعني هنا المبدأ القدسي . وباتصال الكلمتين صارت تعني المشاركة حسب رتب مختلفة . الـ « يرارخيا » ، عندما صوّرها ديونيسيوس الاريوباغي ـ راهب عاش في القرن السادس وهو ، على الأرجح سوري ـ صوّر المائدة المقدسة وحولها الأسقف والكهنة والشعب المؤمن وتسعَ طغمات منها المعمودية والميرون ، وهذه الطغمات صورها واقفة حول المائدة . وفي السماء ايضاً تسع طغمات ملائكية حول العرش الالهي . الرتب هنا على الأرض تناسب التي في السماء . هذا يعني ، بكلمة ثانية ، ان عمل الله ينبث من القرابين، من المائدة ، وهكذا الى هذه الحلقات المحلقة حول جسد ابن الله . هذا ما يسمى الـ « يرارخيا » . فيما بعد أسيء استعمال الكلمة وصارت تُطلق على الاكليروس وحده فحددوا الرتب الكنسية بالمطران ، الكاهن والشماس ، وهذا التحديد ليس في الكنيسة ما يشير اليه . **الرتب الكنسية رتب ضمن الحياة الكنسية** ، والعلمانية ، ايضاً ، رتبة من رتب الميرون . والذي نال بالميرون النبوة صار في الـ « يرارخيا » العامة في الكنيسة . فجسد ابن الله ، إذاً ، هو المصدر ، ولكنه يأتي ايضاً بنزول الروح القدس أي يشكله الروح القدس . وبالتالي ، فان تناولنا لجسد ابن الله هو تناولنا للروح القدس ، لقوة الروح القدس . بالنتيجة ، ان جسد ابن الله يجمعنا بمعنى ان كلا منا يزداد في موهبته ، وهكذا يرتفع

مستوى الكنيسة .

ليست غاية المناولة ، إذاً ، ان يُسر الواحد بها أو يشتاق اليها ، غاية المناولة ان تتشكل الكنيسة ، ان تصير موحدة لأننا بتناولنا الجسد ننضم الى ابن الله الجالس في السماوات . ينمو جسده وينمو كل منا بموهبته الخاصة وتنتقل الكنيسة من جسم مبعثر غارق في الدنيويات والشهوات الى جسم مُرَوْحنٍ أكثر فأكثر أي مُعبأ بقوة الروح .

القداسة هي الهدف

المسيحي إذاً هو من يسلك درب القداسة في شركة الأخوة . ليس من أحد يفهم إلا على قدر ما يتقدس . ليس الفهم بالدماغ ، إنه بالروح القدس إذا حلّ عليك . دماغك لا يقدم في هذا ولا يؤخر ، هو يفسر لك بعض الأمور ويوضحها ، والتوضيح والتفسير هما فقط لتنظيم الأشياء وترتيبها ولا يخلقان فيك فاعلية إلهية . كما أنه إذا شرحت أمامكم لوحة فنية فمجرد الشرح لا يخلق عندكم شعوراً بالجمال ما لم يكن فيكم حس للجمال . ليست القضية بالشرح ، والحياة المسيحية ليست بالمحاضرات ولكنها أن ينزل الله عليك أو لا ينزل. القضية قضية نعمة إلهية تأتي إلى الإنسان وعلى قدر قداسته يفهم. ولكون الإنسان لا يستطيع أن يتقدس لوحده وجب عليه أن يحُب لكي يتقدس ـ فالذي لا يحب ليس عنده شيء ـ وعليه أن يعيش مع الجماعة في خدمة عملية . وعلى قدر ما يتساند والجماعة هذه ، كلهم بعضهم مع بعض ، يصبحون إنساناً واحداً أي يصبحون المسيح .إذا أحبّت هذه الجماعة الموجودة هنا بعضها بعضاً حقيقة وفي الأعماق ، وإذا تطهر كل واحد فيها من شهواته تصبح هي المسيح وتصبح ، بالتالي ، قادرة على الفهم

لأن المسيح يفهم . العملية الأرثوذكسية هكذا تكون : « **لنحب بعضنا بعضاً لكي ، بعزم متفق ، نعترف مقرين بآب وإبن وروح قدس . . .** » المحبة شرط المعرفة ومفتاح المعرفة . ولذلك أن أتعاطى شهواتي المختلفة ، والبغض والحقد والحسد والإغراء وما إلى ذلك وأن أذهب بعد ذلك لأقوم بإجتماع ديني فهذا غير ممكن ، ذلك أن الناس الذين هم على شيء من البصيرة يدركون أن كلامي مكرر ، مجترّ وأنه مجرد نقل عن الكتب ولم يصدر من داخلي أو يمر في عظامي كلها لأنني ما زلت محافظاً على شهواتي وبالتالي لا يمكنني أن أتكلم ولا أن أخدم . ولذلك فالسؤال : لماذا المسيحيون متقاعسون ومتكاسلون، جوابه: لأنهم لا يحبون الله أو لأن خطاياهم تمنعهم من النشاط . لا يوجد تفسير ثان . وليس في الأرثوذكسية غير هذا التفسير الوجودي .

اذاً فهذه الشركة وهذه المعية تقويان بالمحبة اليومية العملية .

معيّة القديسين

إن المشاركة بين المؤمنين ، بالروح القدس الواحد فيهم ، لا يقطعها الموت . « **المحبة أقوى من الموت** » (نشيد الانشاد) . وما سمّي شركة القديسين ، ونترجمه هنا معيّة القديسين ـ والمعيّة كلمة عربية جميلة جداً لا ترادفها كلمة في أية لغة ، وهي تعني هنا القديسين الذين على الأرض والقديسين الذين في السماء ، بحيث أن الرسول بولس يسمي المسيحيين ، هنا على الأرض ، قديسين ، وحيث أن القديس هو الذي خُصّص للمسيح وكُرس له ، والقديس ليس هو البطل ، والمسيحية ليس فيها ما يسمى بطولة ـ هذه المعيّة تعني أن ثمة عُرى لا

تنفصم بين الذين هم على الأرض والذين انتقلوا إلى الله . إن البروتستانتية ، حين ألغت ذكر القديسين الممجدين، حرمت نفسها من كنز لا يثمن . حرمت نفسها من أن تبقى واحدة مع المواكب ، مع هذه الأجيال البارة التي سبقتنا لأنه إذا كان المسيح واحداً،إذا كان المسيح غالباً الموت فغلبته تفعل الآن وإلا فليست شيئاً . إذا قلنا أننا كلنا أموات ونفنى في القبور وأن المسيح سوف يعيدنا إليه فقط في اليوم الأخير فهذا القول يعني أن ثمة فجوة بين قيامة المخلص واليوم الأخير وأن هذه الفجوة لا يسدها أحد .

خطأ البروتستانتية الأساسي أنها لا تعرف الشركة . هي تعرف أن الإنسان مع ربه فقط . ولكن حقيقة الإنسان أنه مع الإنسان الآخر والله بينهما جامع . ليس صحيحاً أني أنا مع الله لوحدي . أنا معكم وكلنا ، بعضنا مع بعض ، مع الله . هذه هي الإنسانية ، هذا هو جسد المسيح . المسيح هو في الذين يحبونه ، وهؤلاء أعضاء لا ينفصل بعضها عن البعض الآخر . والله الآب هو أبو هذه العائلة والمسيح يشكلها والروح القدس مبثوث فيها . هذه حقيقة الإنجيل . فإذا كان المسيح قد قام حقاً فهو ، من الآن ، مُهيمن على هذه الجماعة ؛ أي أن قيامته ، إنقاذه الإنسان من الفساد ، من الخطيئة ، هذه القيامة فاعلة وإلاّ فمعنى هذا أن اليوم الأخير مفصول عن القيامة وكأن المسيح ذكرى نلهج بها . أي أن ثمة هوّة هائلة بين المجيء الأول والمجيء الثاني إذا لم يكن هناك قديسون ، إذا لم يوجد أناس موصولون بعضهم مع بعض . الكنيسة ، بالتالي ، في جانب من جوانبها ، هي هذه الموصولية بين المجيء الأول والمجيء الثاني ، وهي هذه الموصولية بين كنيسة الأرض وكنيسة الأبكار المكتوبين في السماء . وهذه الموصولية تمثّلها الكأس

المقدسة عندما نضع فيها أجزاء الأحياء والأموات ، بعد مناولة المؤمنين ، فتمتزج الأعضاء الحية ، أي الأحياء العائشون هنا ، والأعضاء الذين انتقلوا الى الله ، الذين ذُكروا ، والقديسون ممثلين بتسع طغمات عن يسار الحمل ، ووالدة الإله التي هي عن يمين الجوهرة في الصينية . يتحد هؤلاء بالدم الإلهي . هذا يعني أن دم المسيح الذي سُكب انبثّ في الدنيا ويجمع الأحياء والأموات ، يجمع الذين مجدوا في قداسة مُعلنة والذين انتقلوا ولم يُمجّدوا في قداسة مُعلنة ولكنهم يساهمون في حياة الله والذين ، هنا على الأرض ، يسعون سعياً . هؤلاء كلهم مربطون بعضهم مع بعض بدم الحمل الإلهي وهم معيّة .

ولذا فالإنسان ليس هو ، فقط ، إبن اليوم . الإنسان مسنود . أنا موصول ، منذ ألفي سنة ، بأناس سبقوني ، بهذه المواكب التي تتعاقب بالشهادة والدم والأسقفية والذبيحة المستمرة .

شفاعة القديسين

من أجل هذا فالدعاء للقديسين ـ وهو ما يسمونه الشفاعة وهو ، هنا ، بمعنى الصلاة ـ هو نتيجة منطقية لكونهم « أحياء عند ربهم يرزقون » . « الله ليس اله أموات بل إله أحياء » (لوقا ٢٠ : ٣٨) . ويقول صاحب نشيد الانشاد : « أنا نائم وقلبي يقظان » (نشيد الانشاد ٥ : ٢) . إذاً فهؤلاء النائمون في القبور ليسوا أمواتاً ، قلوبهم يقظة . وإذا أردتم تمييزاً فلسفياً بين النفس والجسد فنفوس هؤلاء ، منذ الآن ، قائمة من الموت . نفوسهم قائمة بفعل المسيح وأجسادهم منحلة وهذه المقبرة ختمناها بالماء المقدس فأشرنا بهذه الطريقة الرمزية الى أنها إستهلال للقيامة ، إنها بدء ، إنتظار . هذا الإنتظار هو تطلع إلى ما سوف يكون .

ولكن عندنا ، هنا ، أمران : عندنا ـ وهذا رأي أرثوذكسي وليس عقيدة ـ أن بعض الأجساد لا تفنى ولكن تبقى طرية ، مثل على ذلك : المطران صدقة الموضوع في دير مار الياس ـ شويا ، وقد توفي منذ ما يقرب من مئة وخمسين سنة ولم يزل اللحم على جسده وكذلك شعره . عن حالة كهذه يقول سمعان اللاهوتي الحديث أنها حالة وسط وأن ثمة إنتظاراً لملكوت السماوات بحيث أن الجسد لا ينحل ويبقى في حالة وسطى للدلالة على أن هذه الأجساد سوف تبعث . وبصرف النظر عن هذا الرأي المعمول به ليس في كل الكنيسة بل في بعضها ـ مثل الكنيسة الروسية التي تأخذ به كلياً ـ بصرف النظر عن هذا الرأي ثمة أمر آخر مهم هو أن بقايا القديسين وبقايا الشهداء محفوظة في الكنيسة وتوضع في الأنديمنسي وفي المائدة المقدسة ، أيضاً ، عندما تبنى ، للدلالة على أن هذه الأجساد سوف تقوم وان الروح القدس يحضنها .

المهم هنا أننا نؤكد هذه المعية بكل هذه الرموز والأعمال ، نؤكد هذه المعية الواحدة بيننا وبين الذين ذهبوا ، نؤكد أن الروح القدس الواحد يجمع بينهم وبيننا .

ولهذا فالموقف الأرثوذكسي في إستشفاع العذراء والقديسين ، أي طلب دعائهم لنا ، الموقف الأرثوذكسي في ذلك ليس أنهم جسر يوصلنا إلى الله ـ ذلك ان الله أقرب إلينا مما هم إلينا ، وهذا التصوير أن الله بعيد وانهم هم يقربوننا إليه تصوير خاطىء ـ إنما هو أنهم هم معنا في صلاة واحدة . والقضية هي فقط قضية ناس مرتبين حول عرش الله . ويمكننا القول ان الذين سبقونا الى المجد الإلهي انتهى جهادهم ، أكملوا الجهاد الحسن . من هذه الناحية هم ثبتوا في سكون الله . نحسبهم كذلك بحيث أننا نعتبر أنفسنا خطأة وأننا ما زلنا في الجهاد فيما هم أكملوا

الجهاد. ولا يختلف موقف الإستشفاع هذا عن أي طلب شفاعة. فمثلاً، عندما يقدّم أحدنا تقدمة للكنيسة في عيد قديس ما يطلب الى الكاهن ان يذكر له اسمه فطلب الشفاعة باسم هذا القديس أو ذاك يكون من باب أن طلبة البار تقتدر كثيراً في فعلها. البار يصلي، طبعاً في الكنيسة، ولست أتكلم هنا على الصلاة الطقسية التي يرئسها الكاهن من حيث الوظيفة ولكني أتكلم عن الدعاء الخاص الذي نطلب فيه شفاعة الأبرار. من هذه الناحية نحن نطلب شفاعة الأولين هؤلاء الذين ينتمون إلى الصف الأول من هذه الصفوف التي، في النهاية، تتحلق كلها حول السيد.

يسوع المسيح الشفيع الوحيد

من هنا أنه يصبح سطحياً هذا السؤال : لماذا نصلي إلى مريم العذراء ونتشفع بها عند الله في حين ان الشفيع الوحيد عند الله هو الإنسان يسوع المسيح ؟ المسيح هو الشفيع الوحيد بين الله والناس ليس بمعنى أنه يقصينا ولكن بمعنى انه يقصي شفاعة العهد القديم . أي أن موسى لا يمكن ان يكون شفيعاً بين الله والناس ، فالناس في اليهودية بقوا مفصولين عن الله الى حين أتى المسيح فاتحدهم به . إذاً فالوسيط الوحيد الذي يجمع بين الله والناس هو الإنسان يسوع المسيح ، كما يقول الرسول بولس . أي هو الذي علق على الخشبة . هذا ما نعنيه بالإنسان يسوع المسيح . فلأنه رفع على الخشبة ومات ثم قام ألصق الله بالناس . هذا يعني انه لا يوجد إلتصاق بين الله والناس عن طريق اليهودية ولكن عن طريق العهد الجديد . وهكذا فعبارة الشفيع الوحيد هي ليست لاقصاء مريم أو بقية القديسين ، كلمة الوحيد هي لإقصاء الذين سبقوا اي لإقصاء شرعية اليهودية . بالتالي فالمسيح يبقى الشفيع

الوحيد بين الله والناس ونحن فيه . إذاً فهذا الشفيع الوحيد بين الله والناس هو المسيح النامي ، العملاق ، الذي ينمو من الآن وإلى آخر الدهر . والذي يتناول جسد المسيح ودمه يلتصق به ويصبح جزءا من المسيح ويصبح في المسيح . اذاً فالذي أصبح في المسيح قائماً من بين الأموات ، الذي يتغذى من القيامة ويصبح إنساناً قيامياً ، هذا الإنسان يصلي في المسيح ، من جوف المسيح يصلي ويبقى في هذه الوحدانية المتشفعة ، يبقى في هذا الكائن الوحيد المتشفع من أجل الناس .



ملحق

المناولة المتواصلة

للأرشمندريت

أفسابيوس مثوبولوس

أقوال السيد المسيح عن المناولة المتواصلة

قال السيد المسيح مبيناً الفائدة الكبرى التي نجنيها من تناولنا الأسرار المقدسة بصورة متواصلة : « من يأكل جسدي ويشرب دمي له الحياة الأبدية» . وقال أيضاً « من يأكل جسدي ويشرب دمي يحيا فيّ وأنا فيه» . فهذه الكلمات تدلنا على أن السيد المسيح يوصينا بأن نتناول الأسرار المقدسة بصورة دائمة لأنه قال : « من يأكل . . ويشرب . . . » ولم يقل من « أكل . . . وشرب . . . » . وهذه الألفاظ تظهر جلية إذا راجعنا الأصل اليوناني لأنها تدل في اللغة اليونانية على عمل متواصل .

وهكذا فسر الرسل أيضاً أقوال المسيح هذه ، فلا شك في صحة تفسيرنا لأن الرسل سمعوها من فم السيد له المجد عندما أعلن لهم سر المناولة العظيم في ساعة تأسيسه .

المناولة المتواصلة في الكنيسة منذ تأسيسها

إن التفسير الذي أعطاه الرسل لأقوال السيد المسيح خرج إلى حيز

التطبيق منذ وجود الرسل ، وإننا إذا فتحنا أعمال الرسل (٢ : ٤٢) نقرأ ما كتبه لوقا الإنجيلي : « وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات» .

فالمسيحيون الأولون الذين آمنوا بالسيد المسيح واعتمدوا باسمه القدوس ، كانوا يداومون بحرارة واندفاع على تطبيق تعاليم الرسل . كانوا يعملون الخير ويساعدون من كان منهم محتاجاً ، آخذين الخبز السماوي بواسطة سر الشكر أي من جسد الرب ودمه ، وكلهم يحب قريبه كما أمر السيد المسيح ويصلي .

وهكذا ، في القداس الإلهي ، كان المؤمنون يتقدمون لتناول جسد الرب ودمه ، ليس الحاضرون فقط ، بل الغائبون لمرض أو سبب قاهر إذ كان الشمامسة يذهبون إليهم ليناولوهم الأسرار الطاهرة . ويشهد لهذا القديس يوستينوس الفيلسوف .

القوانين الكنسية التي تفرض المناولة المتواصلة

ورثت الكنيسة منذ أول عصورها التقليد القاضي بالمناولة المتواصلة من الرسل والمسيحيين الأولين . ولم تحافظ عليه في العصور الأولى فحسب بل أوصت به وفرضته على كل مسيحي في قوانينها المقدسة . فالقانون الثامن والقانون التاسع الرسوليان اللذان أكدهما المجمع المسكوني السادس يذكران المناولة المتواصلة مشددين على ضرورتها . يقول القانون التاسع الرسولي : « كل من حضر إلى الكنيسة لسماع الكتاب المقدس ولم يمكث حتى الصلاة والمناولة ، يجب أن يفرز لأنه يخرق نظام الكنيسة ».ويعلق عليه زوناراس الشارح المعروف قائلاً : « إن هذا القانون يطلب من كل الذين حضروا القداس

الإلهي آن يشتركوا فيه حتى النهاية بالصلاة والمناولة ، لأنه في ذاك الزمان كان مطلوباً من عامة النـاس وليس فقـط من الإكليروس أن يتناولـوا الأسرار الطاهرة دون إنقطـاع . ويعلـق بالسامـون هكذا : « إن هذا القانون صارم وقطعي ، فهو يفرز كل من جاء الى الكنيسة ولم يبقَ حتى نهاية القداس ولم يتناول » . هذا وأن القانـون الثانـي لمجمـع إنطـاكية المكاني الذي ثبته المجمع السادس المسكونـي يذكر : « كل من دخـل الكنيسة . . . وامتنع عن المناولة يتصرف بصورة غير حسنة وغير نظامية و يجب أن يفرز من الكنيسة إلى أن يعترف بخطـأه ويظهـر آثـار النـدم ويطلب المسامحة ». ويعلق زوناراس على هذا القانون هكذا : « إن جميع الذين يدخلون الكنيسة ويمتنعون عن المناولة لا لسبب معقـول ولـكن للتشويش، يجب أن يفـرزوا من الكنيسـة أي أن يبعـدوا عن جماعـة المؤمنين. ولا يقصد الآباء بقولهم «يمتنع عن المناولة» من يبغضها بغضاً ولكن من يتجنبها ربما بدافع التقوى أو عن تواضع مثلاً لأن الذي يبغض الأسرار الطاهرة لا يفرز فقط بل يحكم عليه باللعن «أناثيما» .

وقد أوصت الكنيسـة بالمناولـة المتواصلـة في القانـون السـادس والستين للمجمع المسكوني السادس ، حيث يفرض على المسيحيين أن يتناولوا جسد الرب ودمه طيلة أيام الأسبوع الذي يتبـع أحـد الفصـح المجيد . ودونكم هذا القانون : « منذ يوم قيامة السيد المسيح المقدسة حتى الأحد الجديد ، وخلال كل هذا الأسبوع دون إستثناء ،على المؤمنين أن يأموا الكنائس المقدسة معلنين فرحهم بالسيد المسيح ومنشدين المزامير والتراتيل الروحية ، ومعطين إنتباههم لقراءة الكتاب المقـدس وقابلـين « بلذة » الأسرار الطاهرة » .

و إليكم تعليق بالسامون على هذا القانون : « لنلاحـظ أن جميع المؤمنين يجب أن يكونوا بحالة استعداد للمناولة كل يوم » .

أقوال الآباء القديسين حول المناولة المتواصلة

إن آباء الكنيسة المشهورين بالفضيلة والحكمة يوصون هم أيضاً بالمناولة المتكررة.فالقديس باسيليوس الكبير يقول مثلاً :«إنه لحسن جداً ومفيد أن يتناول الإنسان كل يوم جسد المسيح ودمه المقدسين، فالسيد قد قال لنا بوضوح: «من يأكل جسدي ويشرب دمي له الحياة الأبدية». فمن يشك بعد ذلك أن من يشترك بصورة دائمة في الحياة لهو يحيا بصورة متنوعة؟ونحن (أي المسيحيين القاطنين في منطقة القديس باسيليوس) نتناول الأسرار الطاهرة أربع مرات في الأسبوع ، الأحد والأربعاء والجمعة والسبت، وأيام الأعياد » . (باترولوجيا ـ ميني الجزء ٣٢ - الرسالة ٩٣) .

أما بخصوص الرهبان والعوام في الإسكندرية ومصر ، فإن القديس باسيليوس يشهد في نفس الرسالة (٩٣) بأن « الرهبان المقيمين في الصحراء حيث لا يوجد كهنة يحفظون القرابين الطاهرة عندهم ويتناولونها بأنفسهم » .

والقديس يوحنا الذهبي الفم في القسم الثالث من رسالته إلى أهل أفسس ، يندد بالذين يحضرون القداس الإلهي ولا يشتركون في المناولة .

وقد أجاب القديس إيرونيموس عندما سئل عما إذا كان من الضروري ان يتناول المسيحيون كل يوم ، بأنه يجب علينا أن نأخذ الأسرار المقدسة دون إنقطاع (الباترولوجيا اللاتينية ، جزء ٦٣ ، صفحة ٦٧٢). كما أن المغبوط أوغسطينوس يقول مخاطباً المسيحيين بأنه واجب عليهم أن يتناولوا كل يوم (الجزء ٣٨، الصفحة ١٠٩٩) .

وهـكذا فإن كل مسيحـي يستـطيع ان يسـتخلص من كلمات معلّمي الكنيسة القديسين التي أوردناها كل الأهمية التي كان يعلقها هؤلاء الآباء والمسيحيون الأولون قاطبة على المناولة المقدسة المتواصلة .

خدمة القدسـات السابـق تقديسهـا تهـدف الى المناولـة المتواصلة

إن قداس (البروجيازمينا) أي القدسات السابق تقديسها الذي تقيمه الكنيسة أثناء الصيام الكبير قد أوصى به المجمع المسكوني السادس في قانونه الثاني والخمسين وذلك لهدف واحد هو أن يستطيع المؤمنون أن يتناولوا دون إنقطاع . لأنه في الصيام لا يقام القداس الإلهي كاملاً مع الذبيحة إلاّ يومي السبت والأحد ، فأمـر الآبـاء القديسـون أن يحفـظ الكاهن جزءا من الخبز والخمر المستحيلين في قداس سبت أو أحد وأن يضعه على المائدة أثناء خدمة (البروجيزمينا) كي يستطيع المؤمنون أن يتقدموا للمناولة . وهذا ما يعني أن الآباء القديسين كانوا يعتقدون أن المناولة يومين في الأسبوع أي السبت والأحد لا تكفـي وأنـه من المفيد والضروري أن يتناول المؤمنون في يومي الأربعاء والجمعة أيضاً .

الهدف الأساسي من القداس الإلهي هو المناولة

ما هي بالفعل الغاية من خدمة القداس الإلهي ؟ إن الغاية هي أن يتمم سر الشكر ويتناول المؤمنون جسد الرب ودمه . وأن هذا الهدف الأساسي تؤكده الصلوات التي تتلى أثناء القداس. يقول الكاهن وهـو يصلي : «فليعطنا الرب نحن الذين نصلي معاً أن نتقدم في الإيمان والحياة

وفي المعرفة الروحية .أعطهم يا رب أن يسجدوا لك بطهارة وخوف ومحبة وان يشتركوا دون خزي في أسرارك المقدسة وأن يكونوا مستحقين لملكوتك السماوي» . ويقول أيضاً: «وأحسبنا مستحقين أن يوزع لنا بقدرتك جسدك الطاهر ودمك الكريم وبواسطتنا إلى كل الشعب» (أي إلى «كل الشعب» الحاضر الذبيحة) .

وبعد أن يتناول الكهنة الذين يخدمون القداس ، يتقدم الشماس أو الكاهن حاملاً الكأس المقدس ويدعو المؤمنين هم أيضاً ليتناولوا جسد الرب ودمه قائلاً : « بخوف الله وإيمان ومحبة تقدموا » .وأن هذه الدعوة (تقدموا) الموجهة الى جميع المؤمنين الحاضرين لهي إثبات واضح غير قابل للمناقشة على أن الهدف الأساسي من القداس الإلهي هو مناولة المؤمنين . ولأجل هذا فقد كان المسيحيون الأولون يتناولون جسد الرب ودمه في كل قداس ، ولأجل هذا السبب أيضاً يختتم الشماس أو الكاهن القداس بصلاة الشكر هاتفاً : « إذ قد تناولنا أسرار المسيح الإلهية المقدسة الطاهرة الغير المائتة السماوية المحيية الرهيبة ، فلنقف مستقيمين ونشكر الرب باستحقاق . . . » .

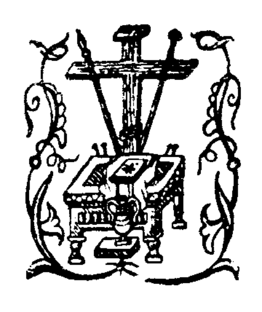
فنحن نرى هكذا أن الغاية الأساسية من القداس الإلهي هي أن يتناول المؤمنون .

الخلاصة

وهكذا فإنه يظهر مما تقدم ، أي من أقوال السيد المسيح ، وعادات الكنيسة في عصورها الأولى ، والقوانين المقدسة وأقوال آباء الكنيسة وخدمة القدسات السابق تقديسها ، وخدمة القداس الإلهي العادية ، قلت يظهر بوضوح من كل هذا أن المناولة المتواصلة ليست

فقط أمراً مسموحاً به بل هي أيضاً مفروضة على جميع المسيحيين . وأنه لمن الجهل التام وخطأ كبير أن نعتقد بأن المناولة على هذه الطريقة ممنوعة من الكنيسة .

وكنتيجة لهذا أنه يرتكب خطيئة عظيمة كل من يمنع مسيحيين مستعدين الإستعداد المناسب من أن يتناولوا بصورة مستمرة بإيمان وندامة وتقوى . إنه يرتكب خطيئة كبيرة لأنه يقاوم ما أمر به السيد المسيح بنفسه وبواسطة تلاميذه وكنيسته التي تعبر عن رأيها في قوانينها المقدسة وأقوال آبائها القديسين ونصوص خدمها الطاهرة .



ملحـــق

مقتطفات من القانون الأساسي للكرسي الإنطاكي

كتــب المطــران جورج خضر في جريدة النهــار الغــراء في ١٨/٦/١٩٧٢ معلقاً على القانون الأساسي لبطريركية إنطاكية وسائـر المشرق قائلاً: « . . . الأرثوذكسية تقوم على الجماعية والتعاون الخلاق بين المسؤولين والمؤمنين في روح الشورى . فالتسلط الإكليريكي والتحكم الغوغائي غريبان كلاهما عن تراثنا . لغتنا لغة الحوار بين الآباء والأبناء في مواجهة تبيد سوء الظن وتستعيد الثقة إذا ضعفت .

من العقيدة والمحبة نبدأ . وفي العقيدة نحن أمام تأكيدين أولهما « ان الشعب عندنا حفظ الإيمان » وثانيهما ان المجمع المقدس هو المرجع الأخير الذي لا يعلوه سوى مجمع مسكوني وذلك في كل مجالات حياتنا الـكنسية . الشعـب ، بإخلاصـه ووعيه وتطهـره ، يحفـظ الإيمـــان ، والأساقفة يسهرون بالنعمة والمعرفة اللاهوتية على سلامتـه . الأساقفـة هم المعلمون والمرشدون الذين نطيع . أننا نطيع محبتهم . فأن الـذي إئتمن على الإنجيل والخلاص والقرابين قد إئتمن على متاع الدنيا . ففي آخر المطاف المطارنة ، إذا اجتمعوا إجتماعاً مقدساً ، يقررون ما يروقهم ويروق الروح القدس . في غير هذا الجـو الإيمانـي ، يبطـل كل بحـث وندخل في اللغو .

المجمع بوصفه المرجع الأخير لا بد له أن ينظر من جديد في التشريع في ضؤ الميراث الرسولي والقوانين المجمعية القديمة التي لا يسوغ لأي عقل ، مهما تطور ، أن يحيد عنها . في هذا التراث الأرثوذكسي الأصيل للمجمع سلطة التشريع ولا شك أنه من المفيد جداً أن يستمع المطارنة إلى أصحاب الرأي والجهود الروحية ، إلى أكابر التقوى بعيداً عن الهوى . . ولا شيء يمنع أن يتسع نطاق المشاورات في الأبرشيات جميعاً وأن يأتي المطران مزوداً بفكر الفاهمين . . .

إنه من حسن الرعاية ومن باب المحبة أن يمارس المجمع المقدس إتصالا بأبنائه للوقوف على تأملاتهم وأمانيهم في موضوعات مصيرية . وللمطارنة في كل حال أن يقرروا مجمعياً ، بإطلالة من النعمة ، ما يرون موافقاً لما استلموه من الآباء القدامى وما يستحسنونه لتدبير شؤون المؤمنين وقيادتهم إلى الله . وقد منع مجمع اللاذقية في القرن الرابع قانون الـ ١٣ أن يقوم الشعب بمظاهرات وهتافات وشغب . فكان لا بد أن نحيي الشورى في مناخ من الهدوء والسلام ، في حوار يدوم . . . » .

وهاكم . . في ما يلي بعض المقتطفات من القانون او النظام الاساسي :

أحكام عامة

المادة الأولى : الكنيسة الإنطاكية المعروفة بـ « بطريركية إنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس » هي كنيسة رسولية مستقلة ، مرتبطة بباقي الكنائس الأرثوذكسية بوحدة الإيمان والأسرار والتقليد الكنسي .

المادة الثانية : تمتد ولاية البطريركية الإنطاكية الى سورية ولبنان والعراق والكويت وتركيا وإيران والجزيرة العربية وأميركا الشمالية والوسطى والجنوبية وأستراليا ونيوزيلاندا .

المادة الثالثة : إنطاكية هي المركز الرسولي القديم ، ودمشق المقام للبطريرك .

المادة الرابعة : المجمع المقدس هو السلطة العليا في الكنيسة .

المادة الخامسة : يشترك في حياة الكنيسة الإكليريكيون والعلمانيون كل حسبما أعطي له من مواهب الروح .

المادة السادسة : يدخل في مفهوم كلمة « إكليريكي » في هذا النظا[illegible] البطريرك والمطران والأسقف والكاهن والشماس .

المادة السابعة : كل إكليريكي خادم للرب ولشعبه ، وخدمته مجانية بحيث لا يتقاضى أجراً أو مالاً مقابل إقامته الخدم الروحية .

المادة الثامنة : تؤمّن الكنيسة معيشة خدامها من عطاءات المؤمنين وإيرادات الأوقاف .

الفصل الأول : المجمع المقدس

المادة التاسعة : يتألف المجمع المقدس من البطريرك رئيساً والمطارنة العاملين أعضاء .

المادة العاشرة : المجمع المقدس هو القاضي في شؤون الإيمان وهو الهيئة التشريعية في الكنيسة والمرجع القضائي الأعلى فيها .

الفصل الثاني : البطريرك

المادة السابعة عشرة : البطريرك رئيس المجمع المقدس ومنفذ قراراته ورمز وحدة الكنيسة الإنطاكية وأداة إرتباطها بالكنيسة الجامعة وممثلها لدى الكنائس الأخرى والأديان والدول .

المادة الثامنة عشرة : للبطريرك الولاية العامة على أوقاف إنطاكية ودمشق والأديرة البطريركية وله عليها كلها حق الإشراف المباشر .

الفصل الثالث : المطران

المادة الخامسة والعشرون : المطران هو راعي الأبرشية ورمز وحدتها وأداة إرتباطها بشركة الكنيسة وهو ممثلها الرسمي لدى الدولة .

المادة السادسة والعشرون : لمطران الأبرشية الولاية العامة على ما في أبرشيته من أديرة وكنائس ومؤسسات وأوقاف وله عليها كلها حق الإشراف المباشر .

المادة السابعة والعشرون : مطران الأبرشية لا يقرض أو يستقرض أو يستبدل أو يرهن أو يسترهن أو يبيع أياً من أوقاف أبرشيته

إلا بقرار من مجلس الأبرشية الملي وموافقة البطريرك .

الفصل الرابع : كاهن الرعية

المادة الثانية والثلاثون : كاهن الرعية هو الاب الروحي لرعيته .

المادة الثالثة والثلاثون : يقيم الخدم الروحية في الكنيسة المخصصة له .

المادة الرابعة والثلاثون : هو تابع لمطران الأبرشية التي ينتمي إليها وبه يرتبط مباشرة .

المادة الخامسة والثلاثون : يخضع المرشح للكهنوت للشروط التالية ، أن يكون :

أ ـ قد أتم الخامسة والعشرين من عمره وكان مشهوداً له بالسيرة الحسنة .

ب ـ حاصلاً على الشهادة الرسمية الإعدادية (التكميلية) .

جـ ـ قد حاز من مدرسة الكهنة على شهادة الأهلية للكهنوت .

الفصل الخامس : الشماس

المادة السادسة والثلاثون : الشماس يساعد المطران والكاهن في اقامة الصلوات وفي العمل الإجتماعي .

الفصل السادس : الرهبان

الماده الأربعون : الراهب من عاش في دير متمماً فيه نذوره وفق

التراث الرهباني الأرثوذكسي في نطاق أنظمة ذلك الدير .

الفصل السابع : الأبرشيات والرعايا

المادة الثانية والأربعون : أبرشيات الكرسي الإنطاكي محددة جغرافياً حسبما ورد في جدول النظام الداخلي .

المادة الثالثة والأربعون : تقسم الأبرشيات الى دوائر رعائية يسوسها الكاهن ومركز كل منها كنيسة الرعية .

الفصل الثامن : المجالس

المادة الخامسة والأربعون : ينبثق عن أبناء الرعية الواحدة مجلس منتخب وفقاً للنظام الداخلي مهمته الإهتمام بشؤونها برئاسة الكاهن .

المادة السادسة والأربعون : ينبثق مجلس الأبرشية الملي عن مجالس الرعايا بالإنتخاب ويتولى أمور أوقاف الأبرشية وأموالها برئاسة المطران .

المادة السابعة والأربعون : يدعو البطريرك كل سنة ولدى الإقتضاء إلى مؤتمر أرثوذكسي عام للكنيسة الإنطاكية تتمثل فيه الأبرشيات بإكليريكيين وعلمانيين غايته تنسيق الأعمال والتعاون بين الأبرشيات والتخطيط لتنمية الطاقات الأرثوذكسية ، ثم يرفع توصياته الى المجمع المقدس .

المادة الثامنة والأربعون : يحدد النظام الداخلي كيفية تأليف مجالس الرعية ومجلس الأبرشية والمؤتمر الأرثوذكسي وعدد أعضائها وصلاحياتهم .

الفصل التاسع

المعمودية

«. . . واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا . . .»



١ ـ الأسرار في الكنيسة

يبتدىء البحث في الأسرار من البحث عن الإنسان المؤمن ، بعد أن صعد الرب الى السماء .

نعلم أن بولس الرسول تكلم على أن هناك سراً إلهياً كان في الله منذ الأزل ، وهوسر محبة الله للبشر . هذا السر يشكل حياة الله ضمن الثالوث القدوس، أي أن الآب والإبن والروح القدس متحدون بسرّ المحبة : « الله محبة »(١ يو :٨).

تنطلق المحبة من الآب وتعود إليه في دورة دائمة ، في حركة بين الأقانيم الثلاثة دائمة. هذا السر ، سر أن الله محبة ، كشف في المسيح وحققه المسيح. حقق المسيح المحبة بالفداء ثم عاد المسيح الى احضان الآب واعاد اليه هذا الجنس البشري المتروك الذي كان قد أخطأ . بعودة المسيح الى الآب الإنسان نفسه عاد الى الله . هذا في الأساس . ثم سكب الله الروح القدس على المؤمنين لكي يعطيهم كل ما حُقق في المسيح، أي لكي يمنحهم سر محبته ويجعلهم يعيشون معه. حياة الله التي تدور ضمن الثالوث القدوس وتغلي ضمنه، حياة الله هذه كان لله ان يمد البشر بها. والروح القدس هو الموزّع لحياة الله، هو معطيها. إذاً كل الهدف من مجيء المخلص على الأرض وصعوده الى السماء، هو توزيع المواهب الإلهية على الناس. بكلمة أخرى، يجب ان يكون هناك قوم يعيشون

بحياة الله ، وهؤلاء القوم هم الكنيسة . والكنيسة تعيش بحياة الله ، بقوة الله ، كما كانت هذه القوة ظاهرة في المسيح . أي هي القوة نفسها التي كانت في المسيح أيام بَشرتِهِ ، عندما كان على الأرض . قوة المسيح هذه التي خلصت وأحبّت يجب ان تُنقل بالروح القدس . حياة الكنيسة هي ، إذاً ، حياة المسيح منقولة إلينا بالعنصرة ، بانعطاف الروح القدس على البشر وعلى الكون بواسطة الكنيسة . الكنيسة هي المحيط الذي فيه الله فاعل . الله يحرك الكنيسة ، يحييها وينعشها بالحياة نفسها التي فيها ، هذه الحياة التي كانت مسكوبة في المسيح . وتوزيع حياة المسيح والقوة التي في المسيح يتممه الروح القدس عن طريق الأسرار.

السر في الكنيسة ـ كأن نقول سر المعمودية ، سر الميرون أو سر الشكر . . . ـ السر في الكنيسة لا يعني شيئاً آخر غير السر الإلهي القديم ، الأزلي ، الذي تكلم عنه بولس الرسول ، أعني سر الحياة الإلهية ، سر المحبة ، سر محبة الآب للإبن والروح القدس ، سر عودة هذه المحبة الى الآب . وبالتالي ، كيف تظهر محبة الله لنا بالأسرار ؟ هذا هو الموضوع . أسرار الكنيسة ما هي إلا نفس السر الذي ينكشف الآن ، الذي يتحقق الآن . وهذا السر الذي تحدث عنه الرسول بولس في الرسالة الى أهل أفسس عندما قال: «أني بوحي أعلمت السر كما كتبت قبلا بالايجاز فتستطيعون اذا قرأتم ان تفهموا خبرتي في سر المسيح الذي لم يُعلم عند بني البشر في أجيال أخرى كما أعلن الآن بالروح لرسله القديسين وأنبيائه ، وهو أن الأمم هم من أهل الميراث وأعضاء الجسد وشركاء في الموعد في المسيح يسوع بالإنجيل» (أف ٣ : ٣ ـ ٦) . ثم يكمل : «وأوضح للجميع ما تدبير السر الذي كان منذ الدهور مكتوباً في الله خالق الجميع» (أف ٣ : ٩) . وهذا السر الإلهي نحن شركاؤه ، نحن شركاء هذا الشيء الخفي في أعماق الله وهو أن الأمم محبوبة

كاليهود، أن البشر جميعاً محبوبـون ويدخلـون في مـيراث الله. أسرار الكنيسة هي، إذاً، هذا الإخراج لسر الله، هذا النقل وهذه الترجمة لهذه المحبة.

ولـكن لهـذه الأسرار كلهـا، بالتـالي، علاقـة بحياة المسيح في الجسد. وهذا هو المهم جداً في البحث في الأسرار. هذه الحياة الإلهية الأزلية عاشها المسيح في الجسد، هنا. والروح يعطينا حياة المسيح كما عاشها هنا. وبالأخير إذاً، عندما نتكلم عن أسرار الكنيسة السبعـة فهذه كلها تكون إمداداتٍ لحياة المسيح في أيام بَشَرَتِـه، بحيث نعيش نحن في الجسد ما عاشه هو في الجسد.

٢ ـ سر المعمودية

المعمودية موت وحياة

سر المعمودية ماذا يُخرج إلينا من حياة المسيح، ماذا يترجم لنا؟ هنا يمكن القول، أن المعمودية تترجم لنا كل حياة المسيح إذا كانت هذه الحياة تلخص بكلمتـين: موت وحياة. حياة المسيح في البشرة، من الميلاد إلى تمجيدها عند فجر الفصح، كلها موت وحياة، لأن المسيح ولد لكي يموت وينبعث. طبعاً، وضعه في أقمطة وهذا المولد المتواضع وهذه المعمودية التي نالها من يوحنا في الأردن وهذه الآلام المعنوية التي ذاقها من اليهود وهـذه الإضطهـادات، كل هذا، قبـل إعدامـه من بيلاطس، كان طريقاً الى الموت وكان، في وقت واحـد، إنبعاثـاً من موت. معمودية يسوع في الأردن كانت نزولا تحت المياه وكانت خروجاً من المياه وظهوراً للآب والروح عليه. كذلك التجلي على الجبـل كان تمجيداً له، ولكنه، في آن واحد، حسب رواية لوقا، كان حديثاً عن

خروجه من أورشليم ، أي كان إستعداداً لموته (لو : ٩ : ٢٨ - ٣٦).
كل فصول حياة السيد هي إنبعاث من موت ، مرافقة الموت للحياة . من هذا القبيل المعمودية تعطينا كل المسيح ولهذا نقول انها الميلاد الثاني . هي الميلاد الثاني إذا قيس هذا الميلاد بميلادنا من أمنا .
هذا هو المولود الأول في الجسد ، ولكننا نولد الآن ليس من لحم ودم ولا من مشيئة رجل بل من الله . المسيح أعطانا ان نصير أولاد الله(يو :٣).
الإنسان كان في حالة الغضب، في حالة اللعنة. واللعنة تعني الاقصاء عن البركة. والبركة معناها امداد الانسان بحياة الله. الإنسان لُعن، أي أقصي عن هذه البركات بالخطيئة. هو جعل نفسه في الظلمة وجعل نفسه في العزلة عن الله وفي التشتت وفي التفتت، في التجزئة، في التلاشي وفي الاضمحلال. هذه هي الخطيئة عمقاً وكينونة. فالإنسان من جديد يولد وكأنه لم يكن. في الواقع، لم نكن نحن شيئاً قبل المخلص وقبل أن يتنزّل علينا بالمعمودية.

المعمودية في الديانات

ماذا جرى في هذه المعمودية ؟ ماذا كان يجري سابقاً ، قبل المسيح ، بالمعموديات ؟ كان للناس في كل الدنيا معموديات وفي كل الأديرة . والوضوء الاسلامي نوع من معمودية وهو يعني إغتسالا وتهيئة للصلاة . رهبان قمران ، على شواطىء البحر الميت ، قبل مجيء المخلص ، كانت لهم أحواض يغتسلون فيها كل يوم أكثر من مرة . عندنا ، أيضاً معمودية يوحنا كتهيئة للتوبة . والدخلاء الوثنيون الذين كانوا ينضمون للدين اليهودي على يد الفريسيين ، هؤلاء ، أيضاً كانوا يُعمدون . الحضارة البشرية ، قبل المخلص ، هنا وهناك ، كانت تعتمد تشوقاً منها إلي طهارة كانت تتوق إليها . كانت تتوقع هذه البشرية

ان تنال طهارة . والبشرية أحست أنها ، من أجل هذه الطهارة تستعمل ماء. طبعاً يمكن أن يقال: هذا أمر طبيعي وبديهي جداً كون الماء يغسل الجسم. ولكن الفكرة كانت أبعد من هذا. فالماء ملتبس المعنى في الحضارات القديمة ، أي أن له معنى مزدوجاً وهو لا يعني ، دائماً الطهارة . الماء مخيف. البحر مريع . الماء يدل على الغرق ، على الموت . والماء ، في كل الحضارات ، كان محيط الخطيئة ، محيط الشر . مثلاً ، في الفكر العبري: «لوياثان» التنين: هذا كان الوحش الاسطوري الذي في الماء. ولذا فخوّاض البحر يقتل التنين. الخضر يقتل التنين، وما إلى ذلك من هذه الصورة الأسطورية. الماء مخيف ثم الماء محيي. في التوراة خلق الله الدنيا من ماء (تك ١ : ١و٢) في بداية التكوين، وفي الأساطير البابلية أيضاً وفي القرآن: «وجعلنا من الماء كل شيء حي». الماء هو المحيط الذي يخرج منه الكائن الحي. الجنين يخرج من ماء. إذاً فالماء مزدوج المعنى ملتبسه. ولهذا فاتخاذ الأديان للماء لم يكن سببه فقط، أنه غاسل ولكن سببه هو أنه يميت ويحيي. وإذاً، فالغسل، هنا، ليس شيئاً سطحياً. الغسل معناه أننا نموت بشكل ما.

عندما جاء المخلص لم يخترع رمز الماء ولم يخترع المعمودية . وجدها قائمة عند أهل قمران ويوحنا المعمدان والفريسيين . ولكن موقفه منها كان أنه عبأها ، ملأها بمعنى جديد .

المعنى المسيحي للمعمودية

نعم نحن نموت بالماء ، ولكن أي موت هو المقصود ؟ ونحيا بالماء . ولكن أية حياة هي المقصودة ؟ في أواخر إنجيل متى : « إذهبوا وتلمذوا جميع الأمم» (متى ٢٨ : ١٩). اي إجعلوا من جميع الأمم لكم تلاميذ أو عمدوهم. إذاً فالمعمودية مرتبطة عند المسيح بأن الناس

يصيرون بها تلاميذ له. إذاً يتعلمون الإنجيل ويأخـذون من الإنجيل الإيمان: «من آمن واعتمد يخلص» (مر ١٦ : ١٦).

الإيمان هو الخروج من أي وضع نحن فيه إلى الله . يقول الله لإبراهيم : « أترك أرضك وعشيرتـك وبيت أبيك واذهـب الى الأرض التي أنا أريك» (تك ١٢ : ١). الإيمان هو، ايضاً، مجازفـة مع الله .هو يعني ان يطرح الانسان نفسه في كائن لا يعرفـه، ويعرفـه على قدر ما يطرح نفسه فيه. يذوقه بعد ان يرمي نفسه فيه. إذاً هناك موت بالنسبة الى الحياة القديمة التي كان فيها، هناك إنسلاخ عنها. شيء منا يموت. نُغرق في الماء. وإذا متنا تأتي حياة جديدة ليست منا. هنا كل الحديث عند يسوع عن الماء الذي هو يعطيه، في ما قاله للمرأة السامرية التـي كانت تستقي من بئر يعقوب: «من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً، من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا لن يعطش إلى الأبد» (يو ٤ : ١٣). إذاً ثمة شيء من الدنيا القديمة نتركه، نترك هذا العالم القديم، ندخل في وضع جديد مع هذا العالم الجديد. كل هذا ينكشف، فيما بعد، بصورة أوضح بعد أن قام المخلص وحدثنا بولس الرسول عن هذه الحياة التي جاءت إلينـا بالمعمـودية حيث يقـول في الرسالـة إلى أهـل رومية: «أم تجهلون أننا ، كل من اعتمد ليسوع المسيح، اعتمدنا لموته؟ فدُفنا معه بالمعمودية للموت، حتـى كما أقيم المسيح من الأمـوات بمجـد الآب، هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة . لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته عالمين هذا ان إنساننا العتيق قد صلب معه ليبطل جسد الخطيئة كي لا نعود نستعبد أيضاً للخطيئة» (رو ٦ : ٣ ـ ٦) . ما أود أن الفتكم اليه، فقط، الآن، هو هذا أن اللفظة التي يستعملها الرسول باليونانية وقد ترجمت: اعتمد، يعتمد، معمودية. . الخ هذه اللفظة هي Vaptiso (أعمد) وهي تعني، فقط، اغطـس . هذه كلمة عادية جداً صارت، بعدئذ، مصطلحاً مسيحياً. من اعتمد

ليسوع ـ اللام هنا هي، في اليونانية، حرف جر وهو يعني الحركة، أي من انتقل إلى يسوع بهذا التغطيس ـ إنما انتقل إلى موته فدفن مع المسيح بالمعمودية. مع هنا هي préfixe أي هي، في لغاتهم، أداة توضع قبل الفعل. ودفنا معه تصبح، بهذا، فعلاً واحداً عندهم أي تصبح لفظة واحدة. وإذا قرأ الواحد اللفظة ـ الفعل هذا الذي ركبه بولس الرسول والذي ليس موجوداً في اليونانية بل هو من إختراع بولس: دفن مع، فهذا يعني أنه عندما دفن المسيح كان معه الذين له، أي أن الذين له كانوا معه في القبر. إذاً، نحن عندما نعتمد فكأننا تخطينا الزمان وأبدناه وانتقلنا هذه السنين الألفين، وكأننا، أيضاً، نحن الذين متنا مع المخلص ودفنا معه وقمنا معه. إذاً، ما حصل ليسوع المسيح ربطنا مع المسيح. ما حصل له هو، بالفداء، حصل لنا أيضاً

إن الحياة الإلهية التي كانت في المسيح أبادت الموت، تفجرت في الموت فحولته الى حياة وقامت هذه الحياة من القبر لأنه لا يمكن ان يُضبط عنصر الحياة في القبر. المسيح، بعد أن مات، لا يموت ولا يتسلط عليه الموت.

يمكننا أن نقول، إذاً، أن المعمودية هي أن تتحقق فينا هذه الأشياء التي صارت، أن تُخرج. في الحقيقة، ليس هناك شيء جديد في المعمودية. المعمودية لم تبتدىء اليوم، هي ابتدأت آنذاك بموت السيد وقيامته. وأقرب صورة عن المعمودية هي ما يجري في السينما. السينما هي كناية عن مصور يصور مشاهد تُلعب. هذه المشاهد موجودة في الفيلم. هذا الفيلم يسقط على الشاشة. لا فرق إذاً بين المشهد والفيلم والشاشة. كل الفرق هو فرق زمني فقط: ثمة شيء يُلعب ثم يسجل وهذا الشيء الذي يسجل يُرى على شاشة السينما. الفرق هو، فقط، في المظاهر، في الإخراج، في الإداء. ومن هنا أن موت المسيح

وقيامته هما كحدث واحد من حيث الأصـل والطاقـة، لأن كل قيامـة المسيح موجودة في موته ولكنها تفجرت بعدئذ. أي أن كل حياة المسيح كانت مسكوبة فيه عندما مات . وهذه الحياة التي فيه هي مسجلة فينا نحن منذ أن مات وقام ، أي هي مسجلة في المؤمنين به . ونحن عندما نعمّد إنساناً نُخرج هذه الحياة ، نؤديها ، نُعبّر عنها. هي بالحـري ، لا تنتقل ، هي تنـكشف . المعمـودية هي ، إذاً ، إنكشـاف حياة المسيح فينا . لذلك نقول : دُفنا ـ وهو فعل ماضٍ ـ معه للموت أي حتى نموت. نحن نُدفن حتى نموت ، حتـى ، كما أقيم المسيح من الأمـوات بمجـد الآب ، هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة ، في حياة جديدة . إذاً هذه مشاركة كانت موجودة وحُققت الآن ، وُزعت علينا هذه المشاركة ، بالروح القدس ، في هذا السر.

القضية ، إذاً ليست قضية محو خطيئة . هي ليست أن ثمة ديناً مكتوباً علينا يمحى فنصبح بلا دين ـ هذا هو التصور العادي للمعمودية وهو أننا بها نصبح بلا دين ، بلا خطيئة جدّية. في الحقيقـة، إن الخطيئة الجدية لا تورث ، أي لا تنتقل، ولكن الإنسان يولد ميتاً ، يولد معرضاً للموت ، حاملاً في طيات نفسه وجسـده قوة الموت . الإنسـان هو في حالة موت دائم ، بمعنى أنه مقهور ، منحدر ، مهترىء . هذا وضـع نلاحظه . الموت لم يأتِ. هو لا يأتي ولا يذهب . هذا ما يلاحظ : الموت هو في الإنسان . هذا وضعه . هو إنسان في حالة إنحطاط . كل إنسان هو مولود في الإنحطاط ، في التقهقر ، في الإهتراء ، في السقوط ، في الظلمة . إذاً الموت طاقة فينا . هذا ما سماه فرويد « غريزة الموت».

فعندما ينزل المسيح إلينا ويتحد بنا بالمعمودية يضع فينا شيئاً ليس منا ، يضع قوة الحياة . فقوة الحياة التي فيه تصارع قوة الموت التي فينا . فإذا قبلنا موته هو ،نكون ، في نفس الوقت ، قابلين إفناء موتنا نحن . عندما نرتضي أن المسيح مات أي عندما نسلم إليه ، إلى صليبه ،إذ ذاك نكون غالبين لقوة الموت التي فينا . المهم هو أنه يجب أن ندرك هذا حتى ندرك كل العملية وإلا تبقى قضية سطحية . وليس هناك معمودية بدون إدراك ذلك .

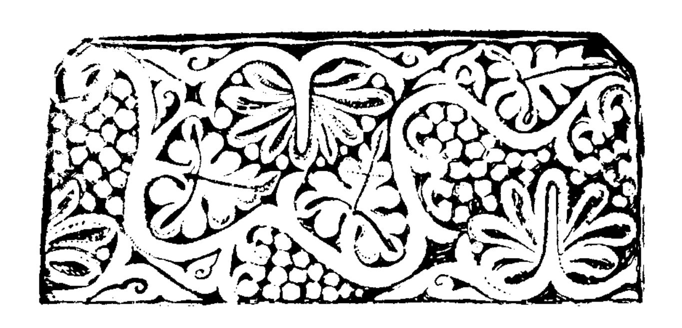
كيف خلصنا يسوع المسيح ؟ خلصنا بأنه ، وهو الذي لا يحتمل الموت ولا يحكم عليه بالموت ولا يموت ولا يستطيع ان يموت لأنه بار ، (والبار لا يموت)، ارتضى الموت. كل عملية الفداء متعلقة بهاتين الكلمتين . المسيح الذي لا يستطيع ان يموت أراد أن يموت . فإذاً هو دخّل الموت طوعاً إلى ذاته . طوعاً هي من الكلمات المسيحية الأساسية : « أيها المسيح الإله يا من أتيت إلى الآلام الطوعية . . » (من أسبوع الآلام) . فالموت الذي كان ضرورة على الجنس البشري اقتبله هو طوعاً . أطاع الله بهذا . لكونه خضع للموت كان فوق الموت . لكونه أطاع الموت صار فوق الموت وصار غالباً له ، هو سيد الموت . لكونه أطاع الله حتى الموت، موت الصليب، رفعه الله إليه: «متوفيك ورافعك إليّ». رفعه الله إليه وأعطاه إسما فوق كل إسم. ترجمة هذا الكلام في اللغة العصرية تعني: أعطاه قوة فوق كل قوة وحضوراً فوق كل حضور ونفاذاً فوق كل نفاذ . وإذاً حياة المسيح كانت فيه ـ وهي حياة الله في المسيح في هذا الجسد ـ منذ أن قبل الموت . بكلمة أخرى ، كان المسيح منبعثاً منذ أن ارتضى الموت . قوة الإنبعاث كانت فيه آنذاك . هذا يعني أنه ، عندما كان المسيح على الصليب ، بعد أن مات ، لم تكن ثمة لحظة من لحظات الزمان كان المسيح فيها مغلوباً ولا يمكن ان يُغلب .

فإذاً الله الآب أماته لأنه هو تطوع للموت. قبل الله الآب ، سمح بأن يموت الإبن وعندما قبل الإبن بهذا الموت بُعث.

مهم تأكيد هذا أنه ليس هناك لحظة زمنية كان المسيح فيها ميتاً وعبداً للموت . أذاً هذا يعني أنه مات وقام في نفس الوقت . ليس هذا أنه رُئي حياً ، كلا . لم يُرَ حياً ولكن في حقيقة الأمر ، كان حياً . لم يُرَ حياً: «رُئي حياً بعد ثلاثة أيام». القيامة هذه ، في اليوم الثالث ، هي إخراج يُلقى ، أي هي كشف لهذه الحياة التي كانت في السيد وهو معلق على الصليب . هذه القيامة كانت كشفاً لهذه الحياة التي فيه وإذاعة لها وبثاً لها على الكون وإشراكاً للمؤمنين في قوة الفداء . من هنا قول بولس الرسول: «دُفنا معه للموت» وهذا يعني أنه ربانا في الموت بالمعمودية ، حتى ، كما أقيم ، نقوم نحن أيضاً في جدة الحياة . وإذاً ، نحن أيضاً عندما ارتضينا المعمودية أو نرتضيها بعد أن تمت ، أي نرتضيها طيلة العمر - والمعمودية تُرتضى أو تُرفض - فارتضاؤنا لها يعني أننا قبلنا هذا الموت ، قبلنا موت المسيح وقبلنا أن نموت عن الخطيئة ، وبلغة اخرى ، ان نميت الخطيئة فينا ، وبهذا نفصل كياننا الحقيقي الجوهري عن الخطيئة . عندما يقول بولس: «ان نموت عن الخطيئة» ، فهذا لأن الإنسان ، في أصله ، حر من الخطيئة . والرسول اعتبر ان الخطيئة جسم غريب ، دخيل نموت عنه . فإذاً ، في اللحظة التي نعمَّد فيها ، نموت ونقوم ، نحصل على الحياة الجديدة بالمثل . وإذا كانت فينا الحياة الجديدة فالخطيئة تزول . إذاً فزوال الخطيئة فينا أو زوال قوة الخطيئة فينا هو نتيجة للحياة الجديدة . الحياة الجديدة هذه تأتي مثل الطعم . والطعم ، إذا أتى ، يحارب الجرثومة .

الحياة الجديدة التي تنسكب من المسيح علينا بالروح القدس في الكنيسة هي التي تطارد قوة الموت . فإذاً نحن في مطاردة لقوة الموت

عن طريق الحياة الجديدة . وهذا ما نحياه بوجه عام ، في العمر كله .
حياتنا هي إفناء للموت ، إماتة الموت ، إماتة الخطيئة ، إماتـة كل قوة القهر والظلم والخنوع والذل وكل ما هو فساد . وهي مطارِدةٌ الفسادَ بقوة الحياة التي انكشفت وتفجرت .



ملحـــق

معمودية الأطفال

للأب نقولا أفاناسييف

المسألة

تتوجه البشارة المسيحية إلى الناس كافة حتى يقدر كل منهم أن يؤمن بإبن الله وأن يدخل في الكنيسـة إذا تاب . والإيمـان والمعمـودية يتطلبان ذلك الرشد الذي يضمن العلاقة الـواعية بسر المعمـودية عنـد الداخل في الكنيسة . والكنيسة تقبل فقـط أولئـك الـذين أدركوا الغـاية والمعنى من إنضمامهم إليها . فهل يتبع هذا ان الأطفال والأولاد يجب ان ويُقبلوا فقط إذا بلغوا ذلك الرشد أو يمكن تعميدهم وفق رغبة ذويهم ؟

ويبدو أن هناك ما يجعلنا نظن أن مسألة المعمودية كانت مطروحة في العصر الرسولي وكانت تثار من وقت إلى آخر بصورة ماسـة .ولكن بلغت حدتها في زمن المناظرات البلاجيوسية . وبنتيجة هذه المناظـرات ثبتت ممارسة معمودية الأطفال . ولكن المسألة لم تطرح جانبـاً بصـورة نهائية . وفي الأزمنة الحديثة ظهرت بصدد هذه المسألة تيارات متشيعة . ومنذ زمن يسير طرحت مجدداً قضية معمودية الأطفال وبقوة عظيمة في العالم البروتستنتي وأثارت مناقشة حارة لم تنتهِ بعد . وأن ظهور هذه المسألة لا يبدو طارئاً . إنه متعلق بظـروف حياتنـا فإن عدداً ضخماً من

الأطفال المتعمدين ليسوا بعد أعضاء عاملين في الكنيسة . في أحوال كهذه تقوم مسألة ما إذا كانت مثل هذه المعمودية توافق الغرض الذي وضعت من أجله .

معمودية الأطفال في العصر الرسولي

ليس لدينا من العصر الرسولي معطيات إيجابية تجعلنا نؤكد الصورة التي حلت فيها قضية معمودية الأطفال في الكنيسة الأولى . أن الشهادات التي لدينا لا تخولنا الحق في أن نؤكد أن معمودية الأطفال كانت تُكمل في العصر الرسولي أو لا تكمل . لقد ذكرت في أسفار العهد الجديد معمودية بعض العائلات : عماد بطرس لكرنيليوس (اعمال : الإصحاح العاشر) ،معمودية ليديا « وأهل بيتها » (أعمال ١٦ : ١٥)، معمودية السجان و « ذويه كافة » (أعمال ١٦ : ٣٣) ،معمودية كريسبوس رئيس المجمع « وكل أهل بيته » (أعمال ١٨ : ٨)، ومعمودية بيت أستيفاناس (١ كورنثوس ١ : ١٦).ومن العسير أن نذهب إلى ان هذه البيوت المعمدة كلها كانت خالية من الصغار. كذلك لا نستطيع الجزم بأنهم كانوا موجودين. فلو كنا عارفين ان الرسل عمدوا أولاداً لقلنا بتأكيد أن الصغار ، في حال وجودهم ، عُمدوا ولكن من كون بيوت كورنيليوس وليديا والسجان تعمدت لا نستطيع إطلاقاً أن نستنتج أن الرسل عمدوا أولاداً .

معمودية الأطفال في العصور الأولى

أما في العصر اللاحق للعصر الرسولي فممارسة معمودية الصغار مشهود لها كثيراً .فإن أوريجانس يشهد بأن « الكنيسة تقلدت من الرسل أن تمنح المعمودية أيضاً للأطفال» (في الرسالة الى الرومانيين، ٥ : ٩) .

ونعلم أن الأطفال في القرن الثاني عُمدوا شرقاً وغرباً. بذا يشهد أيريناوس (ضد الهرطقات ٢ ،٣٣، ٢:٢)، وترتليانوس (في المعمودية، ١٨). وفي القرن الثالث، في كنيسة رومية، كانت معمودية الأطفال ظاهرة مألوفة. وفي «التقليد الرسولي» إشارة الى أنه ينبغي تعميد الأطفال قبل البالغين. وقد كان يؤتى بالأولاد الى المعمودية في سن مبكرة جداً. ويتضح هذا مما أشار إليه هيبوليتوس الروماني بأن الوالدين او الأقارب يستطيعون أن يعطوا جواباً أثنا إتمام المعمودية (التقليد الرسولي ٢١ : ٤). وإذا أتاح «التقليد الرسولي» مجالاً للشك في السن التي فيها يؤتى بالأولاد الى المعمودية ففي أيام قبريانوس القرطاجي كانوا يقولون بأنه لا يجوز إرجاء المعمودية إلى ما بعد اليوم الثامن (الرسالة الـ ٦٤). في القرن الرابع لم يتغير الموقف من معمودية الأطفال. وكما يتضح من شهادة يوحنا الذهبي الفم (الموعظة ١١ ، ١٧ : ٢٨)، وأمبروسيوس (في ابراهيم ٢ ،٨١)، كانت معمودية الأطفال نظاماً شائعاً. وأن كان من تباين في الآراء فإنها متعلقة حصراً بالسن التي يؤتى فيها بالأطفال إلى المعمودية. فكان بعضهم يأتي بالأولاد الى المعمودية مباشرة بعد ولادتهم وكان البعض الآخر يقولون بل تؤخر إلى حين . وهكذا قال ترتليانوس بأن الأصح إتمام معمودية الأولاد في سن يقدرون فيها أن يفهموا ما يتمم عليهم: «لماذا نعرض العرابين دون حاجة ماسة إلى خطر، فإنهم يستطيعون أن يموتوا دون إيفاء نذرهم. .» (في المعمودية ١٨). أما غريغوريوس النزينزي فإنه يوصي بتأخير المعمودية الى سن الثالثة. (الموعظة ٤٠ ، ٢٨). وفي القرن الخامس ثبتت المناظرات البلاجيوسية نظام معمودية الأطفال. «إنه من الحماقة أن نعلم ان الأولاد يستطيعون أن يرثوا الحياة الأبدية دون المعمودية»، هكذا عبر البابا أينوكنديوس الأول عن نتيجة هذه المناظرات.

وفي الغرب ثبت رأي قبريانوس القرطاجي بمجمعه في أن المعمودية يمكن أن تكمل مباشرة بعد الولادة . أما في الشرق ففي القرن التاسع كانوا أيضاً يذهبون الى أنها تكمل في اليوم الأربعين . ثم زال الفرق بين العرف الغربي والعرف الشرقي تدريجياً .ولكن ثبت فرق آخر . ففي الشرق رافق معمودية الأطفال والأولاد إتمام سر مسحة الميرون وبعده يعلن الطفل مستحقاً للإشتراك بسر الشكر « الفائق القداسة والكمال» . أما في الغرب ففي القرون الوسطى فصل التثبيت عن المعمودية وأخذ الأسقف يكمله على الأولاد في سن الحادية عشرة الى الثانية عشرة وكانت المناولة الأولى تتبعه . وهكذا ففي الكنيسة الأرثوذكسية يتم قبول الأطفال في الكنيسة قبولاً كاملاً وأما في الغرب فسر المعمودية وحده يمنح لهم .

الأساس التاريخي واللاهوتي لمعمودية الأطفال

وإن كانت معمودية الأطفال نظاماً شائعاً في القرن الثاني فمن الطبيعي الظن أنه لم ينشأ في العصر اللاحق للرسل ولكنه كان تكميلاً لنظام العصر الرسولي ، فنحن نعود هكذا ثانية الى هذا السؤال: هل كان الرسل يتممون معمودية الأطفال أم لا ؟ وإذا كنا بدون أدلة تشير إلى ذلك في أسفار العهد الجديد فهل ينبغي أن نزهد بحل مسألة جوهرية

كهذه ؟ أن خلاء الأدلة الواحدة في أسفار العهد الجديد طبيعي بالكلية لأن العدد العديد من المتعمدين كانوا من البالغين . أن مسألـة تعميد الأولاد يمكن ان تطرح فقط في الجيل المسيحي الثاني ولكن عندما طرحت في ذاك الزمن كان التقليد الكنسي في هذا الموضوع متراكماً . من خلاء الأدلة المباشرة عن معمودية الأطفال في العهد الجديد ينبغي أن نخـرج بالتعليم عن المعمودية من جهة وبنظام معمودية الدخلاء عنـد اليهـود ونظام الختان من جهة أخرى . وبكلمة أخرى المسألة في هل يتوافق نظام معمودية الأطفال مع التعليم عن سر المعمودية وهل ينسجـم مع نظـام الختان وقبول الدخلاء ؟

« إنا جميعنا اعتمدنا بروح واحد لجسد واحد يهوداً كنا أم يونانيين عبيداً أم أحراراً وجميعنا سقينا روحاً واحـداً » (١ كور ١٢ : ١٣) . إن الدخول في الكنيسة لهو الدخول في جسد المسيح ، وأعضاءه صرنا في المعمودية . هذا الدخول يجب ان يسبقه الإيمان والتوبة أو التوبة والإيمان وعليهما يبنى الإختيار الروحي لمن يرغب في الدخول الى الكنيسة . ومع هذا لا الإيمان وحـده ولا التوبـة ولا الإختيار الحـر قادر أن يجعـل من الراغب في الإنضمام إلى الكنيسة عضواً في جسد المسيح . إن الكنيسة لا تسجل الراغبين في الدخول إليها إن وجدت فيهم الإيمان والتوبة ولكنها تكمل سر المعمودية عليهم الإنضمام الى الكنيسة يكمله الـروح الـذي يرسله الله في سر المعمودية . الكنيسة هي مكان فعل الروح ولذا تجري المعمودية في الكنيسة وهي التي تجريها بالإستقلال عن المعتمد ولو بناء على إختياره الحر . المعمودية هي جواب الكنيسة عن إيمان الراغـب في الدخول إليها ولكن المعمودية نفسها تقتضي أن يتبعها إيمان المعتمد جواباً منه عن معموديته . الدخول في الكنيسة ممكن فقط بالإيمان بابـن اللـه

الذي أحب المعتمد وأسلم نفسه لأجله . الإيمان السابق للمعمودية يفرض الإيمان اللاحق انفتاحاً كاملاً له .

الحياة في الكنيسة تبتدىء بوقت المعمودية بواسطة الإشتراك في سر الشكر . بدون هذا الإشتراك تظل المعمودية غير محققة . وبدورها الحياة في الكنيسة غير ممكنة بدون المعمودية .

هكذا نصل إلى العبارة « الإيمان ـ المعمودية ـ الإيمان » وتبدو هذه العبارة إلزامية إطلاقاً لكل الداخلين في الكنيسة . ان الشطر الأول والشطر الثالث من هذه العبارة يتعلقان بالإنسان أما الشطر الثاني وهو الرئيسي فلا يتعلق به بل يكمله الروح القدس بالكنيسة ، « لأننا جميعنا اعتمدنا بروح واحد في جسد واحد . . .» .الإيمان السابق يفتح إمكانية تكميل المعمودية أما الإيمان اللاحق فهو الشرط لإمكانية الإشتراك في الإجتماع الشكري .

« المسيحيون لا يولدون ولكنهم يصيرون»، هذه العبارة لترتليانوس كأكثر عباراته ليست صحيحة تماماً . لم تكن صحيحة في عصره وهي بالكلية غير صحيحة للعصر اللاحق . ففي زمان ترتليانوس كان القسم الأكبر من المعتمدين بالغين . إنهم لم يولدوا مسيحيين كما كانت الحال عند اليهود بل صاروا مسيحيين . فالإنتساب لليهودية برأي ترتليانوس يحصل عليه القوم بالولادة الطبيعية أما الإنتساب الى الكنيسة فيكتسب بالمعمودية : الناس يصيرون مسيحيين . إن هذا التضاد بين المسيحية واليهودية مبني على سوء فهم أشبه بمأساة كما تبين المناظرات المعاصرة المتعلقة بمعمودية الأطفال .

إن الولادة الطبيعية من والدين يهوديين تعين إنتساب الأولاد إلى شعب العهد القديم المختار إلا أن الولادة الطبيعية وحدها لم تكن

بكافية للذكور لتجعلهم أعضاء في الشعب الذي أقام الله معه عهداً . فكان ختم الختان وحده يجعل المولود من أبوين يهوديين عضواً حقيقياً في شعب الله . وفي اليهودية كان الختان ينظر إليه كولادة جديدة ترافق الولادة القديمة . وان معنى الختان كعلامة إنتساب للشعب المختار ينطلق من هذا أن الوثنيين كانوا قادرين أن يصبحوا أعضاء في شعب الله عن طريق الختان . وكان يتم عليهم على أساس إيمانهم وحرية إختيارهم . « وقد أخذ (أي إبراهيم) علامة الختان ختماً لبر الإيمان الذي كان في الغرلة ليكون أباً لجميع الذين يؤمنون وهم في الغرلة كي يحسب لهم أيضاً البر » (رومية ٤ : ١١). ولا بد هنا أن نلاحظ أن ختان الأمميين كان يرافق «غسل التطهير» الذي كان يجري للرجال وللنساء . وأثناء ختن الدخلاء كان صبيانهم يختنون. وأما «غسل التطهير» فكان يجري للبالغين والأولاد المولودين قبل ختانة الأب . أما أولاد الدخلاء المولودون بعد الختانة فما كانوا خاضعين « لغسل التطهير » .

أن عنصر الولادة الطبيعية لم يكن له معنى في العصر الرسولي للدخول في الكنيسة . فكان الأمم واليهود يتنصرون « بختم » سر المعمودية . فكما كان الختان كانت المعمودية ختم الإنتساب إلى شعب الله . إن المقارنة بين المعمودية والختان ظاهرة عند بولس الرسول : « وبه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح » (كولوسي ٢ : ١١). بقوة هذه المقارنة استبدل الختان المصنوع بيد البشر بختان غير مصنوع بيد . فبان الختان غير منسجم مع سر المعمودية لأن الختان في الكنيسة يكون نكراناً للجلجلة وقيامة المسيح أي يكون نكراناً للكنيسة نفسها وتثبيتاً للعهد القديم الذي قام الجديد

مقامه . لقد أعوز الأمم واليهود « غسل التطهير » ليصبحوا بفعل الروح القدس أعضاء في جسد المسيح . عليهم أن يولدوا من فوق ، من الروح القدس لينتسبوا للدهر الجديد . أن المعمودية ولادة روحية وبدونها لا حياة في الكنيسة . ولذا فبهذا المعنى وبالرغم من ترتيليانوس المسيحيون كافة يولدون لأنهم يصيرون مسيحيين بالولادة الجديدة .

الولادة الطبيعية من أبوين مسيحيين دعوة إلى العماد

كان لا بد لعنصر الولادة الطبيعية ان يدخل في حيز الوجود في الجيل المسيحي الثاني فيما يتعلق بمعمودية الأولاد المولودين من أبوين مسيحيين . إن النظام المسيحي آنئذ كان يوجهه نظام الرسل الأول عندما شرعوا يعمدون العَيل . إن حالات التعميد لعائلات كاملة كما هي موصوفة في سفر الأعمال ما كانت نادرة . فإن لم تكن لدينا معطيات تشير إلى ما صنعه الرسل في أمر كهذا إلا أنه يحق لنا ان نذهب الى انهم اتبعوا النهج اليهودي في الختان ومعمودية الدخلاء . إن المقارنة بين المعمودية والختان أوحت الى الرسل وصحبهم أن يكملوا في آن واحد معمودية البالغين ومعمودية أولادهم . أجل إن هذا فرضية ولكنها مرجحة على الأكثر . وإنا لواجدون في بولس الرسول ما يثبتها : « أن الرجل غير المؤمن مقدس في المرأة والمرأة غير المؤمنة مقدسة في الرجل وإلا فأولادكم نجسون . وأما الآن فهم مقدسون » (aghia) (١ كورنثوس ٧ : ١٤) . فمن كلام بولس الرسول يتضح ان لعنصر الولادة الطبيعية علاقة مباشرة بالإنتساب الى الكنيسة ولفظة « أجيوس » التي يضعها بولس الرسول للأولاد من أب مؤمن أو أم مؤمنة تعني أنهم ينتسبون لشعب الله . هل هذا الإنتساب يمكن أن يتكون لمجرد الولادة

من أب مؤمن أو أم مؤمنة ؟ إن قبولنا لهذه الفرضية يعني أن بولس الرسول كان يذهب إلى عدم ضرورة تكميل المعمودية على أولاد مولودين من والدين منتمين الى الكنيسة . إذا نظرنا إلى تعليم بولس الرسول عن المعمودية فإننا لا نستطيع أن نرجح هذه النظرية . وفضلا عن ذلك فقد رأينا أن مجرد ولادة الأولاد في العهد القديم من أبوين يهوديين لم يجعلهم أعضاء في شعب الله بدون « ختم » الختان . فلم يعد لدينا مناص إلا أن نقول أن ولادة الأولاد من والديْن مؤمنين (الأب أو الأم) كان يفتح لهم أبواب المعمودية : إنهم مقدسون فإذاً قد اعتمدوا .

أن اللاهوت العقائدي المعاصر يؤكد أن معمودية الاطفال تكمل بناء على ايمان الوالدين والعرابين: «أما ما يختص بالأطفال فهم غير قادرين أن يكون عندهم إيمان وتوبة ولا ان يشهدوا لهما قبل المعمودية فإنهم يتعمدون بناء على إيمان والديهم وعرابيهم الذين يتلون عوضاً عنهم دستور الإيمان ورفض الشيطان وكل أعماله متعهدين أمام الكنيسة بتنشئة الأولاد في الإيمان وحسن العبادة إذا ما بلغوا السن» (المتروبوليت مكاريوس، اللاهوت العقائدي الارثوذكسي، الجزء الثاني). إن هذا التأكيد يمكن أن يكون صحيحاً أي موافقاً لما كان في العصر الرسولي أو يكون غير صحيح. فإذا اتخذ معناه أن إيمان العرابين يقوم مقام إيمان الأطفال فإنه يناقض كل ما في الكنيسة. ان الإيمان لموهبة شخصية ولذلك ففقدان الإيمان عند شخص ما لا يمكن أن يقوم مقامه إيمان شخص آخر حتى ولا إيمان الوالدين. ان فكرة كهذه ظهرت في القرون الوسطى في الشرق ولا سيما في الغرب. كانوا يحسبون للتائب ليس فقط أعماله الصالحة ومآثره التقية ولكن أعمال الآخرين الصالحة ومآثر تقواهم . أما في الزمان الرسولي والكنيسة القديمة فلا نرى أثراً لفكرة القيام مقام إنسان آخر. لا يهمني هنا أن أبحث كيف نشأت هذه الفكرة في اللاهوت الأرثوذكسي بل المهم أن نلاحظ أن هذه الفكرة شاء أصحابها

ان يحافظوا على عبارة لا تمس : الإيمان ـ المعمودية ـ الإيمان . لأن الأولاد والأطفال ليس عندهم ذلك الإيمان الذي يسبق المعمودية عند البالغين. وبالواقع ان فكرة إستبدال إيمان الأولاد بإيمان والديهم لا يخلص العبارة. فلا إيمان شخصي عند الأولاد والأطفال ولا يمكن أن يكون. الإيمان الشخصي يسبق المعمودية. وعلى أساسه تقرر الكنيسة قبول الإنسان في المعمودية. وفي وقت المعمودية لا يمثل المعتمد أي دور عملي لأن سر المعمودية يتممه الروح القدس في الكنيسة.

ومع هذا فإن إيمان الوالدين هو حقيقة شرط إمكانية تكميل معمودية الأولاد . في العبارة « الإيمان ـ المعمودية ـ الإيمان » الإيمان السابق عند المعتمد يقوم مقامه عند الولد كونه إبناً لوالدين مؤمنين . الكنيسة تنتمي إلى الدهر الآتي ولكنها قائمة في الدهر الحاضر . والولادة الطبيعية عنصر طبيعي متعلق بالدهر الحاضر ولكن من أجل العائشين في الكنيسة فإنها عنصر كنسي . الولادة الطبيعية تجر إليها الولادة الروحية للدهر الآتي . وإن كان الأمر غير ذلك فهذا يعني أن إنتساب الكنيسة الى الدهر الآتي لا ينعكس البتة في حياة المؤمن في الدهر الحاضر . إن الدخول في الكنيسة ليس له علاقة فقط بالداخل إليها بل بذريته . هذا يتفق مع الفكرة اليهودية القائلة ان الخلف في السلف والسلف في الخلف . إن الختان الذي أكمله موسى كانت له علاقة ليس فقط بمن تم فيهم بل في ذريتهم أيضاً . وبفعل ذلك صار إبراهيم « أباً لأمم كثيرة » (رومية : ٤ : ١٧) . الولادة من أبوين مسيحيين شهادة تعطى للكنيسة إن الله يدعو أولاد هذين الأبوين الى الكنيسة . ولذلك لا نستطيع أن نقول أن معمودية الأطفال تخرق حرية إرادتهم لأن الإرادة الحرة غير موجودة إطلاقاً عندهم ونحن لا نقول أن الولادة الطبيعية تخرق

الإرادة الحرة عندهم . ومن هنا تنبثق نتيجة أساسية تتعلق بمعمودية الأطفال والأولاد . إنها تكمل فقط لأولاد الأشخاص القائمين في الكنيسة لأن قيام الوالدين السابق في الكنيسة يمكن أن يقوم مقام إيمان الطفل المعتمد . ففي حالة معمودية الأطفال المولودين لأبوين غير مسيحيين ليس من إيمان سابق لأن إيمان العرابين لا يستطيع أن يملأ فراغ الإيمان عند الأولاد .

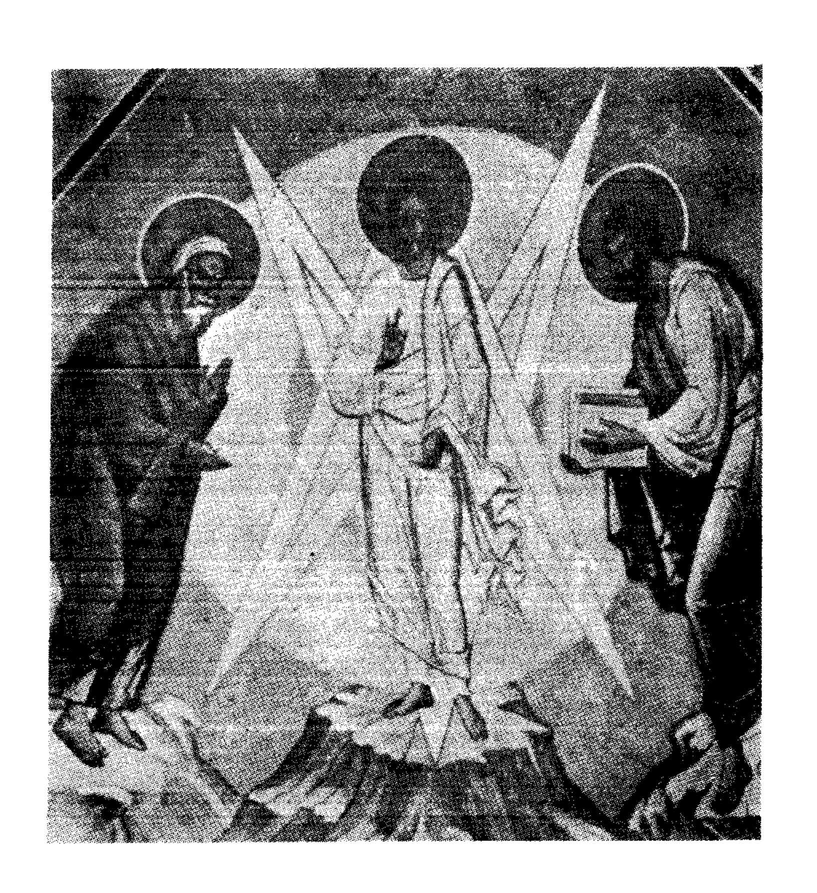
المولود لأبوين مسيحيين يدخل إلى العالم والله يدعوه إلى الكنيسة . بالمعمودية المكملة في الكنيسة يصبح عضواً في شعب الله . أن حياته العاملة في الكنيسة تتعلق بإيمانه اللاحق . وهذا هو جواب من تعمد في الطفولة عن نداء الله . وبآن واحد هذا الإيمان هو جوابه للكنيسة التي عمدته على أساس نداء الله إليه . وهذا الجواب يمكن أن يكون إيجابياً وسلبياً . ولكن في هذه الحالة وتلك يظل عضواً في الكنيسة . وكما يستحيل محو الولادة الطبيعية هكذا يستحيل محو الولادة الروحية . وبقوة ولادته الروحية يعترف أنه مقيم في الدهر الحاضر وأنه ينتمي بآن واحد إلى الدهر الآتي . على المعتمد نفسه أن يحقق إنتسابه الى الكنيسة وأن مسؤولية هذا التحقيق ملقاة ليس فقط عليه ولكن على الكنيسة التي على أساس إيمان والديه كملت معموديته ، ثم تقع هذه المسؤولية على والديه .



الفصل العاشر

المجيء الثاني والحياة الأبدية

« . . . وأيضاً يأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات ، الذي لا فناء لملكه . . . وأترجى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي » .



تمهيـــد

عندمـا يفـكر المرء بآخـر الأزمنـة ، تراوده فوراً مشكلـة مصـيره الشخصي ، ويطرح نفسَه السؤال : ماذا سيحدث بي بعد الموت ؟ هذا التساؤل ناتج عن جعل الإنسان نفسه محوراً للعالم . غير أن الإعلان الإلهي والتقليد الشريف يعلّمان أن « الأنا » ليست محور العالـم ، وأن محور العالم هو ذاك الذي قال : « أنا الألف والياء ، المصدر والغاية » . لذلك فالسؤال الصحيح الذي يجب أن يطرح هو : ماذا سيحدث عند مجيء المسيح الثاني ؟

الكنيسة تعيش على انتظار هذا المجيء إذ حينئذ فقط يصير المسيح « الكل في الكل » وتتم عملية الخلاص وافتقاد الله للبشر .

في هذا الفصـل سنبحـث كل جوانـب هذا السر محاولـين ،قدر المستطاع ، الولوج في أعماقه .

١ ـ المجيء الثاني للمسيح

أ ـ يسوع نفسه ، أثناء بشرته على الأرض ، أعلن عن مجيئه الثاني فقال : « تظهر في ذلك الحين علامة إبن الإنسان في السماء في كل عزة وجلال . فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت الى جهات الرياح الأربع ليجمعوا مختاريه من أقصى السموات الى أقصاها » (متى ٢٤ : ٣٠ ـ ٣١ ، مر ١٣ : ٢٦ ـ ٢٧ ، لو ٢١ : ٢٧) .

وقد ذكّرنا بولس الرسول بأقوال السيد هذه في أول رسالة كتبها من كورنثوس إلى أهل تسالونيكي (٤ : ١٥ ـ ١٦) ، فقال : « ونقول لكم ما قاله الرب ، وهو أننا نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الرب لن نتقدم الراقدين ، لأن الرب نفسه سينزل من السماء عند الهتاف ونداء رئيس الملائكة وصوت بوق الله . . . ».

ب ـ الأحداث التي تشير إلى المجيء الثاني

لم يعلن يسوع موعد مجيئه الثاني ، لا بل أكد على أن ذلك الموعد لا يعرفه أحد سوى الله ، ولكنه أشار إلى أحداث تسبق ذلك الموعد ، منها :

ـ دمار الهيكل ومدينة أورشليم (متى ٢٤ : ٢ ، لو ٢١ : ٢٠ ـ ٢٤).

ـ ظهور الأنبياء الكذبة (متى ٢٤ : ٥ ، مر ١٣ : ٦، لو ٢١ : ٨).

ـ الحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية (متى ٢٤:٦ ـ ٨، لو ٢١ : ٨ ـ ١١ ، مر ١٣ : ٧ ـ ٨) .

ـ إضطهاد المسيحيين من أجل المسيح (متى ٢٤ : ٩ ـ ١٠ ، مر ١٣ : ٩ ، لو ٢١ : ١٤ ـ ١٩).

ـ فقدان المحبة والايمان وطغيان الإثم (متى ٢٤ : ١٢ ، لو ١٨:٨ ، ٢ تيمو ٣ : ١ ـ ٥).

ـ إنتشار الإنجيل في كل العالم (متى ٢٤ : ١٤ ، ٢٨ : ١٩ ـ ٢٠).

ـ ظهور المسيح الدجّال (متى ٢٤ : ١٥ ـ ١٦ ، ١ تيموء ٤ : ١ ـ ٢،٢ تسا ٢ : ١ ـ ١،١٠ يو ٢ : ١٨ و٢٢ ، ١يو ٤ : ٢،٣، ٢ يو ٧) .

جـ ـ اليقظة والسهر

العديد من الأحداث التي ذكرنا حصل بالفعل ، ومنها ما يحصل الآن . وهذا ما يحدو بالمؤمن أن يأخذ القضية بكثير من الجدية وأن يعتبر ما حصل ويحصل إشارات لاقتراب موعد الملكوت ، وأن يستعد لذلك . كيف يستعد ؟ بالسهر . هكذا أراد يسوع : « إسهروا لأنكم لا تعرفون أي يوم يجيء ربكم ، واعلموا أن رب البيت ، لو عرف في أية ساعة من الليل يجيء اللص ، لسهر وما تركه يَنْقُبُ بيته ، فكونوا أنتم أيضاً على استعداد لأن إبن الإنسان يجيء في ساعة لا تنتظرونها » (متى ٢٤ : ٤٢ ـ ٤٤ ، ٢ بط ٣ : ١٠) .

وما مثل العذارى العاقلات (متى ٢٥ : ١ ـ ١٣) إلا ليعلمنا يسوع بكل وضوح ضرورة السهر المستمر واليقظة الدائمة في كل حياة روحية تَنْهدُ إلى الأصالة . وأكّد على ذلك في مثل الخادم الأمين الذي عاد سيده فوجده ساهراً . . . كل منا مدعو لأن يكون إحدى العذارى العاقلات أو ذلك الخادم الأمين . فبدون حياة روحية « واعية » تفتش عن المسيح في كل مواضع سكناه وتسعى إلى العيش باستمرار في ذكرى الله ، وتعي أننا موجودون دوماً في حضرة الله تعالى ، لا توجد أية حياة مسيحية حقيقية .

د ـ صلاة يسوع

يقول بولس الرسول: « صلوا بلا انقطاع » (١ تسا ٥ : ١٧) ، وكأنه بذلك يدلنا على الطريق القويم لاستجابة طلب السيد :

« إسهروا » . والتقليد الأرثوذكسي يربط بين اليقظة والصلاة المستديمة . هذا التقليد ، الذي لا يزال حياً في عالمنا اليوم ، يدعو إلى تلاوة مستمرة لما يسمى بصلاة يسوع في شكلها التالي : « يا يسوع إبن الله الحي إرحمني أنا الخاطىء » .

هذه الصلاة يمكن أن يمارسها المؤمن في كل مكان . وبإشراف أب روحي ذي خبرة تنقلب الصلاة من حركات في الشفاه الى صلاة قلبية يرددها القلب دون إنقطاع وأثناء أي عمل يقوم به الإنسان .

ونرى في كتاب « سائح روسي على دروب الرب » كيف أن أبسط الناس يمكنهم التدرب على هذه الصلاة والدخول في حضرة الله فيزداد شوقهم إلى لقياه ويترقبون بفرح مجيئه الثاني : « تعال أيها الرب يسوع » (رؤ٢٢ : ٢٠) .

٢ ـ نهاية العالم « والأرض الجديدة »

يعلمنا الكتاب المقدس ، في عهديه القديم والجديد ، أن للعالم بداية ونهاية . وهاك بعض النصوص الأكثر أهمية المتعلقة بذلك .

أ ـ في العهد القديم

« في البدء أسّسْتَ الأرض ، والسموات هي صنع يديك . هي تزول وأنت تبقى وكلها تبلى كالثوب وتطويها كالرداء فتتغير ، وأنت أنت وسِنوك لن تفنى » (مز ١٠٢ : ٢٥ ـ ٢٨) .

« إرفعوا إلى السموات عيونكم وانظروا إلى الأرض من تحت . إن السموات كالدخان تضمحل والأرض كالثوب تبلى وسكانها يموتون

كذلك . أما خلاصي فيكون إلى الأبد وبرّي لا يُسقط » (أشعياء ٥١ : ٦).

« رُضّت الأرض رضاً ، حطمت الأرض حطماً ، زعزعت الأرض زعزعة ، مادت كما يميد السكران ، وتدلدلت كأرجوحة النائم ، ثَقُلت عليها معصيتها فسقطت ولا تعود تقوم . وفي ذلك اليوم يفتقد الرب جند العلاء في العلاء ، وملوك الأرض على الأرض فَيُجمعون كما يُجمَع الأسارى في الجب ويغلق عليهم في السجن وبعد أيام كثيرة يُفتَقَدون فيخجل القمر وتخزى الشمس إذ يملك رب الجنود في جبل صهيون وفي أورشليم » (أشعياء ٢٤ : ١٩ ـ ٢٣).

« من وجهه تزلزلت الأرض وارتعدت السموات واضمحلت الشمس ومنعت الكواكب ضياءها » (يوئيل ٢ : ١٠ ، ٣ : ١٥).

ب ـ في العهد الجديد

« . . . تظلم الشمس والقمر لا يعطي ضوءه ، والكواكب تتساقط من السماء ، وقوات السماء تتزعزع » (متى ٢٤ : ٢٩ ، مر ١٣ : ٢٤ ـ ٢٧ ، لو ٢١ : ٢٥ ـ ٢٨).

«أما السموات والأرض التي هي الآن . . . محفوظة للنار الى يوم الدين وهلاك القوم المنافقين . . . وسيأتي يوم الرب كاللص فيه تزول السموات بِدَوِيّ قاصف وتنحل العناصر متقدة وتحترق الأرض وما فيها » (٢ بط ٣ : ٧ و ١٠).

« ورأيت عرشاً عظيماً أبيض والجالس عليه الذي هربت السماء والأرض من وجهه ولم يوجد لهما موضع . ورأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى زالتا والبحر لم يكن من بعد » (رؤ ٢٠ : ١١ ، ٢١ : ١).

جـ - «الأرض الجديدة»

كل النصوص التي ذكرنا تعطينا صورة رهيبة لنهاية العالم . وأما الحروب والكوارث الطبيعية ، وإمكانات التدمير الحديثة ، من أسلحة نووية إلى أسلحة كيماوية ، فبإمكانها تقريب الصورة عن تلك النهاية وجعل تصورها سهلاً علينا .

ولكن علينا أن ننظر إلى الحدث بعيني الإيمان لا بالعين المجردة ، لا سيما وأنه لا بد من زوال العالم القديم ليحل عالم جديد دشنه المسيح في مجيئه الأول وسيكمله في مجيئه الثاني .

إن يوم نهاية العالم سيكون رهيباً «للأشرار» (٢ بط ٣ : ٧ - ١٢) ، ولكنه للمؤمنين يوم مجد. هذا اليوم هو المنتظر لأن فيه «يسلم المسيح الملك إلى الله الآب بعد أن يبيد كل رئاسة وكل سلطة وكل قوة» (١ كو ١٥ : ٢٤) . وفيه يتحقق العالم الجديد الذي تنبأ عنه أشعياء، إذ قال: «هاءنذا خالق سموات جديدة وأرضاً جديدة فلا تذكر الأولى ولا تخطر في بال» (أشعياء ٦٥ : ١٧) . ويقول لنا بطرس الرسول بشأن هذا اليوم في رسالته الثانية : «ولكننا ننتظر كما وعد الله ، سموات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها العدل» (٣ : ١٣) . وأما يوحنا فيذكر في رؤياه : «ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة» (٢١ : ١)، ويروي لنا قول السيد: «هاءنذا أصنع كل شيء جديداً» (٢١ : ٥) .

إذاً آخر الأزمنة ليس مدعاة للخوف، فهو النهار الذي يلي الظلمة . ونحن بالمعمودية دخلنا العالم الجديد الآتي : « وإذا كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة . زال القديم وها هو الجديد » (٢كور ٥ : ١٧) ، وولُدنا ثانية لله وأصبحنا خليقة جديدة . وكما يقول الرسول بولس : « لأنكم متم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله ، فمتى ظهر المسيح الذي هو حياتنا تظهرون أنتم أيضاً معه في

مجده » (كولو ٣ : ٤٣) .

وكما سنرى فيما بعد، عند مجيء يسوع الثاني، يقوم الموتى بأجسادهم للحياة الأبدية.

٣ - المـوت

ما هو الموت وبالتالي من هم الأموات؟ هذا هو سؤال أساسي جداً في حياتنا ولا بد من طرحه الآن. الجواب المباشر يعطينا إياه المزمور ١٠٤ : «تصرف وجهك فيضطربون، تنزع أرواحهم فيفنون وإلى ترابهم يرجعون، ترسل روحك فيحيون وتجدد وجه الأرض» (٢٩ - ٣٠).

الحياة هبة من الله . وكما رأينا في الفصل الثالث الخاص بخلق الإنسان وسقوطه ، فالموت ضد طبيعة الإنسان الأصلية.« فإن الله خلق الإنسان خالداً وصنعه على صورة ذاته » (حكمة ٢ : ٢٣) ، وكذلك « ليس الموت من صنع الله ولا يسره هلاك الأحياء » (حكمة ١ : ١٣) .

فالموت إذاً نتيجة الخطيئة (رو ٦ : ٢٣ و٥ : ١٢) دخل العالم بواسطة الإنسان يوم لبى دعوة الشيطان « الذي لديه قدرة الموت » (عبر ٢ : ١٤) من أجل الإبتعاد عن مصدر الحياة .

والآن حري بنا أن نطرح سؤالا ثانياً : ما هو مصيرنا بعد الموت ودفن الجسد على رجاء القيامة العامة ؟

لنمعن النظر جيداً بالنصوص الكتابية لعلنا نلقي بعض النور على هذه المشكلة .

أ - في المزامير وعند الأنبياء

الموت ، في المزامير وعند الأنبياء ، يوصف بأنه « أرض سكوت » ، « عدم ذكر الله » ، « أرض النسيان »،« التراب » ،

« الحفرة » ، « الجب » وكذلك « الهاوية » :

«لأنه ليس في الموت ذكرك وفي الهاوية من يحمدك » (مز ٦ : ٦).

« ما الفائدة من دمي إذا نزلت الى **الحفرة**، هل يحمدك التراب؟ » (مز ٣٠ : ١٠).

«أفلعلك للأموات تصنع العجائب، أم الأخيلة تقوم فتمجدك ؟ وهل يحدّث في القبر برحمتك أو بحقك في الهلاك . وهل تعرف في الظلمة عجائبك وبرّك في **أرض النسيان**» (مز ٨٨ : ١٠).

« ليس الأموات يسبحون الرب ولا من ينحدر الى **أرض السكوت**» (مز ١١٥ : ١٧) .

«الهاوية لا تحمدك والموت لا يسبحك ولا يرجو الهابطون إلى الجب إمانتك» (أشعياء ٣٨ : ١٨) .

معظم هذه النصوص تُظهر الموت وكأنه مكان الهلاك، مكان السكوت والنسيان، وبالتالي وكأن الاموات «ينامون». بيد ان بعض النصوص تلقي على هذا النوم بصيصاً من الأمل كالمزمور الذي استشهد به بطرس الرسول في سفر الأعمال (٢ : ٢٦ ـ ٢٨) . ونجد ذلك ايضاً في سفر أشعياء (٢٦ : ١٩) وسفر أيوب (١٩ : ٢٥)، وبصورة خاصة في سفر حزقيال (٣٧ : ٩ ـ ١٤) وسفر دانيال (١٢ : ٢)، حيث يبرز نوع من المقارنة بين «نوم» الموت و «صحو» القيامة المرتقبة : «وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون إلى الحياة الأبدية، وكثيرون آخرون إلى العار للإزدراء الأبدي» .

ب ـ موت الأبرار في سفر الحكمة

في أسفار العهد القديم المتأخرة التي كتبت باليونانية في مصر خلال

الـ ١٥٠ سنة السابقة لميلاد المسيح،وخاصة في سفريّ الحكمة والمكابيين الثاني ، يبرز مظهر جديد لما سيحدث بعد الموت . فيدخل سفر الحكمة في التفاصيل إذ يبدأ مرحلة التفريق بين نوعين من الأموات ، ويؤكد أن الأبرار منهم لا يموتون إلا « ظاهرياً» .ولأن حياتهم هي في يد الله فإنهم يعيشون إلى الأبد .

« أما الصديق فإنه وإن تعجله الموت يستقر في الراحة » (حكمة ٤ : ٧) .

« أما نفوس الصديقين فهي بيد الله ، فلا يمسها العذاب وفي ظن الجهال أنهم ماتوا وقد عوقبوا في عيون الناس . فرجاؤهم مملوء خلوداً . وبعد تأديب يسير لهم ثواب عظيم ، لأن الله امتحنهم فوجدهم أهلاً له . فهم في وقت إفتقادهم يتلألأون ويسعون سعي الشرار بين القصب ويدينون الأمم ويتسلطون على الشعوب ويملك إلههم الى الأبد. المتوكلون عليه سيفهمون الحق والأبناء في المحبة سيلازمونه لأن النعمة والرحمة لمختاريه» (حكمة ٣: ١ ـ ٩). ويضيف: «لأن رجاء المنافق كغبار تذهب به الريح وكسرب رقيق تطارده الزوبعة وكدخان تبيده الريح وكذكر ضيف نزل يوماً ثم ارتحل. أما الصديقون فسيحيون إلى الأبد، وعند الرب ثوابهم ولهم عناية من لدن العلي» (حكمة ٥ : ١٥ ـ ١٦).

ج ـ الحياة الأبدية في العهد الجديد

هذا الرجاء بالحياة الأبدية ، الذي بدأ بالظهور في العهد القديم ، توطد وغدا أكيداً عند مجيء السيد الذي هو أيضاً حياة العالم . في إنجيل يوحنا (١٠ :٢٧ ـ ٢٨) ، يقول يسوع مستخدماً عبارة « يد الله » الكتابية : « خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها . وهي تتبعني . أعطيها الحياة الأبدية ولا يخطفها أحد من يدي» .ويؤكد قيامة

المؤمنين حين يقول : « وهذا ما يريده أبي : أن كل من رأى الإبن وامن به نال الحياة الأبدية ، وأنا أقيمه في اليوم الأخير » (يو ٦ : ٤٠).« من آمن بي فله الحياة الأبدية » (يو ٦ : ٤٧).« الحق الحق أقول لكم : من عمل بكلامي لا يرى الموت أبداً » (يو ٨ : ٥١) . ويلفتنا بشكل خاص قوله : « أنا هو القيامة والحياة . من آمن بي يحيا وإن مات . وكل من يحيا مؤمنا بي لا يموت أبداً » (يو ١١ : ٢٥ - ٢٦).

هذه النصوص كلها تؤكد ما يلي :

- أن حياة الإنسان تستمر بعد الموت بقدر ما هي مرتبطة بالله . لذلك يقول لنا السيد في إنجيل متى (١٠ :٢٨) : « لا تخافوا الذين يقتلون الجسد ولا يقدرون أن يقتلوا النفس ، بل خافوا الذين يقتلون الجسد والنفس معاً في جهنم ».

- الموت يحدث من جراء غياب الله . وحيث يوجد الله لا يوجد الموت. لذلك فالنفس العطشى إلى الله والتي تسعى دائماً الى العيش في حضرته لا تموت لأن توقها إلى الله يحفظها حية.

- الذي يعيش على هذه الأرض في المسيح يستمر على هذه الحياة بعد موته . هذا ما يؤكده بقوة بولس الرسول إذ يقول : « ونحن نعرف أنه إذا تهدمت خيمتنا الأرضية التي نحن فيها ، فلنا في السماء بيت أبدي من بناء الله غير مصنوع بالأيدي . وكم نتأوه حنيناً إلى أن نلبس فوقها بيتنا السماوي، لأننا متى لبسناه لا نكون عراة. وما دمنا في هذه الخيمة الأرضية فنحن نئن تحت أثقالنا لا لأننا نريد ان نتعرى من جسدنا الأرضي بل لأننا نريد أن نلبس فوقه جسمنا السماوي حتى تبتلع الحياة ما هو زائل فينا . والله هو الذي أعدنا لهذا المصير ومنحنا عربون الروح ، لذلك لا نزال واثقين كل الثقة ، عارفين أننا ما دمنا نقيم في هذا الجسد ، نحن مغتربون عن الرب، لأننا نهتدي بإيماننا لا بما نراه .

فنحن إذا واثقون ونفضل أن نغترب عن هذا الجسد لنقيم مع الرب » (٢ كو ٥ : ١ - ٨) . وجاء في (فيليبي ١ : ٢٠ - ٢٣) : « الحياة عندي هي المسيح والموت ربح . . . أرغب في أن أترك هذه الحياة لأكون مع المسيح . . . » .

- المسيح هو الحياة وواهبها . فالذي يعيش في المسيح و « حياته مستترة مع المسيح في الله » (كولوسي ٣ : ٣) ، هذا يكون « ذكره مؤبداً » ، لأن روح الله يحمله ويحفظه من الموت : « متى ظهر المسيح الذي هو حياتنا سنظهر نحن أيضاً معه في مجده » (كولوسي ٣ : ٤) .

د - ماذا عن الذين لم يعرفوا يسوع أو لم يقبلوه ؟

يجيب بطرس الرسول قائلا : « انطلق المسيح بهذا الروح يبشر الأرواح السجينة ، التي تمردت فيما مضى ، حين تمهل صبر الله أيام بنى نوح الفلك » (١ بطرس ٣ : ١٩ - ٢٠) .

إن الذين « تمردوا » على السيد والذين سوف يتمردون عليه هم ، بعد الموت « أرواح سجينة » ، ويسكنون « الهاوية » « مكان الهلاك » و « أرض النسيان » . هذا ما تكلمت عنه المزامير وأشعياء النبي . وفي مَثَل لعازر يشير يسوع نفسه وبعبارات رمزية الى وضع هؤلاء المتمردين الحزين . فيقول بأن الغني قد مات ودفن ، وبينما هو في « الجحيم يقاسي العذاب » ، رفع عينيه ورأى من بعيد إبراهيم ولعازر في أحضانه ، فصرخ قائلاً : « إرحمني يا أبتِ إبرهيم وأرسل لعازر ليبل طرف أصبعه في الماء ويبرد لساني ، لأني أتعذب كثيراً في هذا اللهيب » (لو ١٦ : ٢٣ - ٢٤) . ثم يضيف السيد أنه يوجد « هوة عظيمة » بين « الجحيم » و « أرض الأحياء » أو « أحضان إبراهيم » ، « لا يقدر أحد أن يجتازها » (لو ١٦ : ٢٦) .

ولكننا نعلم أن السيد نفسه قال ان : « ما هو غير مستطاع عند الناس هو مستطاع عند الله » (لو ١٨ : ٢٧) . ونعلم أن المسيح ـ الله المتجسد ـ لم ينـزل من «السماء» إلى الأرض فقط بل نزل أيضاً إلى الجحيم » وإلى الهاوية (رو ١٠ : ٧) لكي يتفقد الإنسان وهو في أقصى درجات تعاسته ، ويكسر « القيود الدهرية » ويحرر الذين يتجاوبون مع محبته .

إذاً بالقيامة تفقّد المسيح الذين هم في الجحيم لأنه «وطىء الموت بالموت ووهب الحياة للذين في القبور» . وكل من يلقي بمصيره بين يدي المسيح («أذكرني يا رب متى أتيت في ملكوتك») يدخل في لحظة مماته مع السيد إلى الفردوس : «أقول لك : اليوم ستكون معي في الفردوس» . والفردوس هذا هو «البيت الأبدي غير المصنوع بيد بشرية ، والذي هو في السموات » (٢ كو ٥ : ١١) . وهناك يبقى بانتظار فرح القيامة .

هـ ـ وننهي هذا الفصل عن الموت بذكر الصلوات التي تدعونا الكنيسة إلى تلاوتها في سحر يوم الأحد (اللحن الثالث) . وهذه القطعة توجز لنا ببلاغة تعليم الكنيسة عن غلبة السيد النهائية على الموت :

«لقد قام المسيح من بين الأموات، الذي هو مقدمة الراقدين وبكر الخليقة ومبدع كل المبروءات . وقد جدد بذاته طبيعة جنسنا المنفسدة . فلست تتسلط فيما بعد أيها الموت لأن سيد الكل قد أبطل قوتك وحلها» .

٤ ـ قيامة الموتى والحياة الأبدية

هل سيقوم الأموات بأجسادهم ؟ وهل القيامة هذه حقيقة واقعية أم هي ضرب من الخيال والوهم عفا الزمان على القول بها ؟

باديء ذي بدء نورد بعض النصوص الكتابية التي تلقي ضوءا على موضوعنا هذا . وسنجدها تدعم فكرة القيامة الفعلية للأموات . وتجب الملاحظة في هذا المجال أن آراءنا الشخصية وتأويلاتنا لا قيمة حقيقية لها ، فالقيمة كل القيمة لما أعلنه الله عن هذا السر . والروح القدس هو دون سائر الأرواح قائدنا إلى الحقيقة . والكتاب المقدس يؤكد على ذلك ويحذرنا من محاولة الاتصال بالأرواح كائنة ما كانت : « لا تلتفتوا إلى الجن ولا تطلبوا التوابع فتتنجسوا بهم » (لا ١٩ : ٣١) . نجد أيضاً في (تثنية ١٨ : ٩ - ١٢) : « لا تتعلم أن تفعل مثل رجس الأمم . لا يوجد فيك مَن . . . يعرف عرافة ولا عائف . . . ولا سامر ولا من يرقي رقية ولا من يسأل جانا أو تابعة ولا من يستشير الموتى ، لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب » .

أ ـ في العهد القديم

ـ عندما أعلن بطرس الرسول قيامة المسيح (أعمال ٢ : ٢٦ - ٢٨) استشهد بنص المزمور (١٦ : ٩ - ١١) فقال : « لذلك فرح قلبي وابتهجت روحي . جسدي أيضاً يسكن مطمئناً ، لأنك لن تترك نفسي في الهاوية ولن تدع تقيّك يرى فساداً . تعرفني سبل الحياة وستملأني فرحاً مع وجهك وفي يمينك نِعم إلى الأبد » .

بطرس إذاً يترجى القيامة ، قيامة الأجساد بالفعل ، وليس نوعاً من قيامة الأرواح فقط ، كما كانت تعلّم بعض المدارس الفلسفية .

ـ أشعياء سبق وتكلم عن الرجاء نفسه (٢٦ : ١٩)فقال : « ستحيا أمواتكم وتقوم الجثث . إستيقظوا وترنموا يا سكان التراب لأن نَدَاكَ ندى النور والأرض تُسقط الجبابرة » ،وكأنه بذلك يشير إلى ولادة ثانية وخَلْق جديد .

ـ وفي سفر أيوب نجد الإيمان نفسه بالقيامة بالجسد إذ يؤكد أنه سوف يرى الله بأعين الجسد: «أني لعالم أن فادي حيّ وسيقوم آخراً على التراب . وبعد ذلك تُلَبّس هذه الأعضاء بجلدي ، ومن جسدي أعاين الله ، الذي أنا أعاينه بنفسي وعيناي تريانه لا غيري » (أيوب ١٩ : ٢٥ ـ ٢٧) .

ـ وهنا لا بد لنا من إثبات نبوءة حزقيال التي تتلى في خدمة صلاة السحر للسبت العظيم المقدس وهي ما يسمى بجناز المسيح وتقام عادة مساء يوم الجمعةِ العظيمة. هذه النبوءة تعطي صورة واضحة ومؤثرة لقيامة الأجساد : « فأخرجني الرب بالرّوح ووضعني في وسط البقعة وهي ممتلئة عظاماً ، وأمرّني عليها من حولها ، فإذا هي كثيرة جداً على وجه البقعة ، وإذا بها يابسة جداً فقال لي : يا ابن البشر أتُرى تحيا هذه العظام ؟ فقلت أيها السيد الرب أنت تعلم ، فقال لي تنبأ على هذه العظام وقل لها : أيتها العظام اليابسة إسمعي كلمة الرب . هكذا قال السيد الرب لهذه العظام : هاءنذا أُدخل فيك روحاً فتحيين ، أجعل عليك عصباً وأنشىء عليك لحماً وأبسط عليك جلداً وأجعل فيك روحا فتحيين وتعلمين أني أنا الرب . فتنبأت كما أُمِرت . فكان صوت عند تنبؤي ، وإذا بزلزال فتقاربت العظام كل عظم إلى عظمه . ورأيت فإذا بالعصب واللحم قد نشأا عليها وبُسِط الجلد عليها من فوق . ولم يكن بها روح ، فقال لي تنبأ نحو الروح . تنبأ يا ابن البشر وقل للروح هكذا قال السيد الرب : هلم أيها الروح من الرياح الأربع وهبّ في هؤلاء المقتولين فيحيوا . فتنبأت كما أمرني الرب فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أرجلهم جيشاً عظيماً جداً . فقال لي يا ابن البشر هذه العظام هي آل إسرائيل بأجمعهم . ها هم قائلون قد يبست عظامنا وهلك رجاؤنا وانقطعنا لذلك تنبأ وقل لهم هكذا قال السيد الرب : هاءنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وأجعل روحي فيكم

فتحيون وأريحكم في أرضكم ، فتعلمون أني أنا الرب تكلمت وفعلت يقول الرب»(حزقيال ٣٧ : ١ - ١٤).

ب - في العهد الجديد

ولنأت الآن إلى العهدالجديد .نجد أن شهادة بطرس التي ذكرناها تعتمد أيضاً كلام يسوع نفسه إذ أكد رجاء القيامة فقال : « الحق أقول لكم ، ستأتي ساعة - وهي الآن حاضرة - يسمع فيها الأموات صوت إبن الله وكل من يسمعه يحيا . وكما أن الآب هو في ذاته مصدر الحياة كذلك أعطى الإبن أن يكون مصدر الحياة وأعطاه أن يدين أيضاً لأنه ابن الانسان . لا تتعجبوا من هذا . ستأتي ساعة يسمع فيها صوته جميع الذين في القبور ، فيخرج منها الذين عملوا الصالحات إلى الحياة والذين عملوا السيئات إلى الهلاك» (يو ٥ : ٢٥ - ٢٩) .

هذا هو النص الإنجيلي الذي يقرأ في صلاة الجناز . وأما نص الرسالة فهو للقديس بولس (١ تسا ٤ : ١٣ - ١٨) :« ولا نريد أيها الأخوة أن تجهلوا مصير الراقدين لئلا تحزنوا كسائر الذين لا رجاء لهم . فإن كنا نؤمن بأن يسوع مات ثم قام ، فكذلك نؤمن بأن الذين رقدوا في يسوع سينقلهم الله إليه مع يسوع . ونقول لكم ما قاله الرب ، وهو أننا نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الرب لن نتقدم الذين رقدوا ، لأن الرب نفسه سينزل من السماء عند الهتاف ونداء رئيس الملائكة وصوت بوق الله ، فيقوم أولاً الذين ماتوا في المسيح ، ثم نُرفع معهم في السحاب نحن الأحياء الباقين لملاقاة الرب في الفضاء ، فنكون مع الرب دائماً . فَلْيُعزِّ بعضكم بعضاً بهذا الكلام ».

كل النصوص التي ذكرنا ، الواضحة والمتوافقة فيما بينها ، تبين أن الاعلان الإلهي تكلم عن قيامة للموتى في أجسادهم وقد علق على ذلك القديس إيريناوس ، أسقف ليون السنة ١٧٠ ، مجيباً عن تساؤلات

المشككين : « إن لم يخلص المسيح الجسد بالقيامة فذلك يعني أنه لم يخلص الإنسان أبداً . فهل رأى أحد إنساناً بدون جسد ؟ . . . » .

التمييز بين روح الإنسان وجسده تمييز مصطنع . والله افتقد الإنسان كما هو روحا وجسدا . ومن أجل هذا الإنسان تجسد المسيح وأخذ جسداً ، ثم مات وقام وجلس مع الطبيعة الانسانية التي تبنى إلى يمين الآب داعياً إليه الذين آمنوا به ، والذين يسلّمون أمورهم وحياتهم للروح القدس ليسكن في هياكل أجسادهم ويحوّلها الى آنية صالحة لاقتبال الحياة الأبدية. والحياة الأبدية هي «أن يعرفوك أيها الآب القدوس» . وتعطى لمن يؤمن بالآب ويتقبل الروح(يو٦ :٤٠و٤٧ ، ٨ : ٥١ ، ١١ : ٢٥ ـ ٢٦) . وبهذا الصدد يقول بولس الرسول : « وإذا كان المسيح فيكم وأجسادكم ستموت بسبب الخطيئة ، فالروح حياة لكم لأن الله برركم » (رو ٨ : ١٠).وكذلك : « متى لبس هذا المخلوق الفاسد ما لا يفسد ، ولبس هذا المخلوق الفاني ما لا يفنى ، تمّ قول الكتاب : الموت ابتلعه النصر ، فأين غلبتك يا موت ؟ وأين يا موت شوكتك ؟ وشوكة الموت هي الخطيئة ، وقوة الخطيئة هي الشريعة . فالحمد لله الذي منحنا النصر بربنا يسوع المسيح » (١كور١٥:٥٤ ـ ٥٧).

والآن ، لا بد من طرح السؤال: هل يتمكن الانسان منذ الآن ـ أي في حياته الأرضية ـ أن ينعم بسكنى الله فيه وأن يذوق حلاوة عِشرة الله ؟

للإجابة عن هذا السؤال رأينا أن ننطلق من سرد حادثة واقعية حصلت للقديس الروسي سيرافيم ساروفسكي (١٧٥٩ ـ ١٨٣٣) مع صديق له باسم موتوفيلوف، ثم نتبعها بدراسة أعدّها قدس الأب كاليستوس وير الانكليزي والاستاذ في جامعة أكسفورد وهو من اصل انكليكاني اهتدى إلى الأرثوذكسية. وكان المثلث الرحمات البطريرك

الياس الرابع قد نقل دراسته هذه إلى العربية ، ونشرت سابقاً في مجلة النور الارثوذكسية .

٥ ـ تجلـي الجسد

أ ـ الحوار مع موتوفيلوف

في إحدى ليالي الشتاء كان القديس سيرافيم ونقولا موتوفيلوف يتحدثان في الغابة . كانا يتكلمان عن هدف الحياة المسيحية الحقيقية . قال سيرافيم جازماً : «انه امتلاك الروح القدس» ، فسأل موتوفيلوف : «وكيف يمكن أن أتأكد أني في الروح القدس؟» .

وقد جرى عندئذ بينهما الحوار التالي كما جاء على لسان موتوفيلوف :

« عندئذ شد سيرافيم كتفي بيديه وقال : يا بني ! كلانا في هذه اللحظة في روح الله . لماذا لا تتطلع الى وجهي ؟

ـ لا أستطيع . عيناك تلمعان بأشعة كأشعة البرق الخاطف ووجهك يوج بنور أقوى من نور الشمس . تؤلمني عيناي إذا حدقتا في عينيك .

ـ لا تخف ! في هذه اللحظة بالذات يغمرك شعاع كالذي يغمرني . إنك مثلي الآن . أنك ممتلىء أيضاً من روح الله .

ثم أدار رأسه وقرّبه من أذني وتمتم فيها كلمات فيها نعومة السحر : أشكر الرب الإله على صلاحه معنا . إن صلاحه لا نهاية له. لكن لماذا لا تنظر إلي ؟ حَدّق ! لا تَخَف فالله معنا .

بعد هذه الكلمات ، ارتمت أنظاري فوق وجهه . شعرت أن

خشية عظيمة قد تملكتني. تصوّروا وجهاً، تصوّروا الشمس، تصوّروا قلب الشمس، تصوّروا الأشعة الخاطفة، تجدون أنفسكم أمام هذا الإنسان .تصوروا هذا الوجه وهو يخاطبكم. أنك ترى حركات شفتيه وتلحظ تعابيرعينيه المتتابعة كأنها الموج ،وتشعر بأن هناك من يشد كتفيك بيديه. إلا أنك، لن ترى، لا يديه، ولا جسمه. أنك لا ترى إلا نوراً يكتنفك ويمتد بعيداً عنك ويغمر بضيائه طبقات الثلوج المبسوطة فوق أشجار الغابة، فينعكس ضياء على الرشوحات الثلجية المتساقطة باستمرار ».

الحوار يستمر . يسأل سيرافيم موتوفيلوف عن الشعور الذي يعانيه في داخله ، فيجيب موتوفيلوف ، ويعلق أن حالة الذهول كانت بعد بعيدة عنهما . كلاهما كانا بعد على ارتباط بالعالم الخارجي . ما فتىء موتوفيلوف يشعر بوجود الثلج ويشعر بالغاب ، وحديثهما كان مترابطاً . حتى هذه اللحظة كان يلفهما نور يخطف الأبصار . ماذا حصل لهما ؟.

ب ـ مغزى الحادثة

« نور يخطف الأبصار» .إن لاهوت الكنيسة الأرثوذكسية الصوفي أوضح أن الضياء الذي ينبعث من وجه سيرافيم وموتوفيلوف ما هو إلا قوى الله غير المخلوقة . النور الذي يلفهما هو النور الإلهي نفسه الذي غمر السيد لما تجلى على جبل ثابور . « في عينيك خطف البرق، وفي وجهك ضياء أين منه ضياء الشمس» . كلمات موتوفيلوف هذه تحمل الى ذاكرتنا الآية الإنجيلية : « وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وأصعدهم إلى جبل عال وتجلى أمامهم فشع وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور » (متى ١٧ : ١-٢) . كما تجلى المسيح فوق جبل ثابور كذلك تجلى عبد المسيح سيرافيم في غاب ساروف . سيرافيم وموتوفيلوف تجليا من مجد إلى مجد حسب تعبير الرسول:« أما نحن جميعنا

فننظر بوجه مكشوف كما في مراة مجد الرب فنتجلى الى تلك الصورة بعينها » (كور ٣ : ٧، ١٨)

إن «الهادئين» (hésychastes) - (وهم اتباع مدرسة روحية واسعة الانتشار في الشرق المسيحي تشدد على الصلاة المستديمة كأداة للعيش الدائم في حضرة الله) - وخاصة القديسين سمعان اللاهوتي الحديث (٩١٧ - ١٠٢٢) وغريغوريوس بالماس (١٢٩٦ - ١٣٥٩) يكررون الكلام عن نور إلهي واقعي ويعتبرونه ذروة وقمة الحياة في الصلاة. لا توجد في حالة سيرافيم رؤيا منظورة بأعين الروح الداخلية . أنه نور طبيعي يُنظر بعيني الجسد خارجياً.

أيمكن أن تعتبر حالة سيرافيم شيئاً عارضاً فريداً يمكن تنحيته ووضعه جانباً ؟ أيمكن أن يكون حدثا وحدثا غير عادي خارقاً وعجيباً ؟ هذا النوع من التفسير يحمل كثيراً من الأخطار ويعتبر مغامرة . يروى عن قديس روسي آخر سرجيوس رادونيج (١٣١٤ - ١٣٩٢) «أن العطر كان يفوح من جسده بعد موته وان النور كان يغمر وجهه وأن وجهه لم يكن يشبه وجه الأموات بل وجه الأحياء، وقد برهنت الحياة المائجة فوق وجهه على عالم نفسه النقي». مثل هذه الأمثلة تنقلنا دائماً إلى حقيقة التجلي كحدث وقع في الزمان والمكان: «وصارت ثيابه بيضاء كالثلج»،

عودة الى الوراء ، عودة إلى آباء الصحراء، نجد أن هناك حالات كثيرة مشابهة . في كتاب اقوال الرهبان وصف لموت الأنبا سيسويس . يقول الكتاب : « عندما كان تلامذته يحيطون به ، وهو على فراش الموت ، كان وجهه يشع كالشمس وكان الضياء يزداد ألقاً ويغمر جسده حتى فارق الحياة ، إذاك صار النور برقاً خاطفاً وامتلأ البيت من رائحة الطيب». يذكر الكتاب أيضاً أن «الأنبا بامغو قد تمجد بمجد جعل الذين كانوا يحيطون به يرتعدون خوفاً ولا يجسرون أن يحدقوا إليه . وكما أخذ موسى صورة آدم بمجده عندما تمجد وجهه كذلك فقد

شعّ الأنبا بامغو بأشعة براقة وصار كأنه ملك على عرشه » .

في بعض الأحيان يتكلم كتاب الأقوال عن النار أكثر مما يتكلم عن النور . اقترب أحد تلامذة البار أرسانيوس الكبير منه بصورة عفوية فوجده قائماً يصلي وقد ظهر له الشيخ كأنه وسط نار . يروى مثل هذا عن الأنبا يوسف في بامغو «ووقف الشيخ ورفع يديه إلى السماء فصارت أنامله العشر كمشاعل فقال له : إذا أردت فصر كلك كالنار » . .إن فكرة التجلي مع أنها غير واضحة هنا ويكتنفها شيء من الغموض إلا أن حقيقتها تبقى قائمة. في بعض الأحيان تظهر القوى الإلهية غير المخلوقة بشكل ألسنة نارية كما في يوم الخمسين وبشكل نور كما حصل على جبل ثابور أو في طريق دمشق مع الرسول بولس . ان تكلمنا عن النار او النور فالحقيقة هي هي لا تتغير.

لم يحصر هذا التمجيد الجسدي في الكنيسة الأرثوذكسية . لقد عرفته الكنيسة الغربية قديماً وفي حالات كثيرة مماثلة . إنه نتيجة لحرارة الشركة مع الله ، لحرارة الصلاة العميقة لله . هذا النوع من الصلاة الحارة يعطي إشعاعاً للجسد فائق الطبيعة ويكون سبيلاً الى التجلي الجسدي . نرى مثل هذا التجلي الجسدي في حياة القديسة تيراسيا أفيلا والقديسة كاترينا بولونيا وكاترينا جنوا . عندما ذهب رفاق البار بان فان رويزبريك للبحث عنه في الغابة « رأوا شجرة بكاملها وسط شعلة من نور » وكان البار جالساً عند جذورها .

كما أن جراحات القديس فرنسيس الأسيزي فوق جبل المبارنو هي امتداد لصليب المسيح في أحد أعضاء جسده السري(«وأتم ما ينقص من شدائد المسيح في جسمي » (كولوسي ١ : ٢٤) ،كذلك تمجيد القديس سيرافيم والقديسين الأخرين هو امتداد لتجلي المسيح(« فنتجلى الى تلك الصورة بعينها ») .

ما هو المعنى اللاهوتي لهذا التمجيد الجسدي الذي ظهر في قديسين من الشرق والغرب؟ وراء هذه الأمثلة توجد نقطتان لهما معنى أساسي .

أولا : التجلي في كلتا الحالتين ، حالة تجلي الرب وحالة تجلي قديسيه ، يؤكد أهمية الجسد الإنساني في اللاهوت المسيحي . عندما تجلى المسيح على جبل ثابور ظهر مجده في جسده وعن طريق هذا الجسد . رأى التلاميذ بأعينهم الجسدية « أن ملء اللاهوت كله حلّ فيه جسدياً » (كولوسي ٢ : ٩) .كما أن مجد المسيح لم يكن داخليا فقط بل ماديا وجسديا كذلك كان مجد قديسيه . أن تجليهم يؤكد أن تقديس الأنسان - تأله كما يقول الأباء - ليس أمراً يستهدف الروح فقط بل أمراً يشمل الجسد. «الجسد يتأله مع الروح وعلى قدر إشتراكه بالتأله» (مكسيموس المعترف).ويقول القديس ترتيليانوس. الجسد هو محور الخلاص».

ثانيا : التجلي في كلتا الحالتين، في تجلي المسيح وفي تجلي قديسيه، حدث أخروي. أنه سبق مذاق وعربون الحضور الثاني . وتمجيد جسد القديسين يرمز بطريقة حية إلى منزلة المسيحي ويشير كيف ان المسيحي هو في « العالم » « وأنه ليس من العالم » وأنه قائم في نقطة الفصل بين الجيل الحاضر والمستقبل ويعيش في الجيلين معاً . الأزمنة الأخيرة ليست حدثاً إستقبالياً فقط . لقد ابتدأت بالفعل .

لندرس هاتين النقطتين درساً مفصلاً ونبحث أولا عن النتائج الأنسانية النابعة من سر التجلي .

ج - الجسد واسطة لتمجيد الله

إن بلاديوس (٣٦٣ - ٤٣٠) ، في رحلته الأولى الى مصر عاش مع

شيخ ناسك اسمه دوروثيوس وكان هذا ينقل الحجارة طول النهار تحت اشعة الشمس المحرقة، لبناء القلالي. احتج بلاديوس على عمل الشيخ وقال له: «ما هذا الذي تفعله طول النهار تحت أشعة الشمس الكاوية وانت في هذه السن؟ انك تقتل نفسك». فأجابه دوروثيوس ساخراً: «يا بني يجب ان اقتل هذا الجسد قبل أن يقتلني». هذا القول يتعارض تماما مع قول بيمين أحد أباء الصحراء: «نحن لم نتعلم قتل الجسد بل قتل الأهواء».

وراء هذين القولين الموجزين توجد، بعد التدقيق، طريقتان مختلفتان في النظرة إلى الأنسان. الطريقة الأولى طريقة أفلاطونية أكثر مما هي مسيحية، (وأن كان لها تاريخ طويل في تاريخ اللاهوت المسيحي). والثانية مسيحية حقيقية ترتكز على الكتاب المقدس. وراء هاتين الطريقتين المختلفتين في النظرة إلى الانسان نظرتان مختلفتان عن الخليقة. النظرة الأفلاطونية عن الخليقة تقول بأزلية المادة. ليست المادة شيئاً خلقه الله من العدم بل شيئاً سبق وأن كان موجوداً، ومع أن الله يستطيع ان يعطي للمادة شكلاً وترتيباً إلا أنها تبقى في نهاية المطاف شيئاً خارج الله، مبدأ مستقلاً عن الله. أما الكتاب المقدس فلا يقبل بأية فكرة تقول بمبدئين. المادة حسب التفكير الكتابي ليست مستقلة عن الله ولا مساوية له في البدء، أنها ككل الكائنات الهيولية خلقة من خلقته اذ «صنع الله السماء والأرض ورأى الله أن كل ما صنع حسن».

مقابل هاتين الفكرتين عن الخليقة نجد نظرتين مختلفتين في علم الانسان (الأنتروبولوجيا). ينظر أفلاطون (ومثله أكثر الفلاسفة اليونانيين) إلى الانسان بنظرة ثنائية ويعالجه على هذا الأساس. يعتبر النفس إلهية أما الجسد فينظر إليه كسجن وكنبع للمآثم. الإنسان عقل سجين في جسد ترابي يخفق إلى الحرية. الجسد قبر. وهدف الفيلسوف هو أن يبقى بعيداً عن كل ما هو مادي. هناك من ينظر إلى الجسد نظرة

معتدلة فيعتبرونه وشاحاً لا بد للإنسان إلا وأن ينعتق منه (فيثاغورس). وهناك من ينظر إليه نظرة صارمة قاسية:« إنك يا نفس فقيرة تحملين جثة » (مرقس أوريليوس).

إن الكتاب المقدس يدعو الى نظرة الى الانسان تقوم على الوحدانية لا الثنائية كما هو الحال في الفلسفة اليونانية. ليس الانسان سجيناً في الجسد انه وحدة جسد وروح. انه كل روحي جسدي. قال أفلاطون «الروح هي الإنسان». أما الكنيسة فترد قائلة الروح ليست كل الانسان. روحي ليست أنا. عندما خلق الله، عندما خلق الثالوث الأقدس الإنسان على صورته خلق كياناً كاملاً،خلق الروح والجسد معاً. وعندما أتى الله إلى الأرض ليخلص الانسان لم يأخذ نفساً بشرية فقط بل جسداً بشرياً أيضاً لأن إرادته كانت ، وهي، تخليص كل الإنسان، جسده وروحه.

في الواقع ان الجسد كما نعرفه ثقل. انه شيء يسبب لنا التعب والشقاء وعذاب الولادة . انه كما نعرفه فعلاً نبع لكل الأهواء الخاطئة وهذه كلها نتيجة للسقطة . بعد السقطة لم يبقَ الجسد البشري على حالته الطبيعية بل صار إلى حالة مضادة للطبيعة . لا شك أن الجسد والروح سينفصلان وهذا الإنفصال انفصال موقت ما دام المسيحيون يترجون قيامة الجسد وفي القيامة سيعود الاتحاد مرة أخرى . ليس الجسد قبراً ولا سجناً بل قسم جوهري من الإنسان .

ان الجسد في نظر الرسول بولس ليس عدوا تجب محاربته وسحقه بل سبيلاً يمكن الإنسان أن يمجد به خالقه.« أن جسدكم هو هيكل الروح القدس الذي فيكم » (١ كور ٦ : ١٩):« أسألكم أيها الأخوة بمراحم الله أن تقربوا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادة منكم عقلية » (روميه ١٢ : ١) القديس مكسيموس المعترف يعلّم نفس

التعليم على أساس فكرة التأله: «بالطبيعة يبقى الإنسان كلا في الجسد والروح وبالنعمة يصير إلها في الجسد والروح». وكذلك القديس غريغوريوس بالماس: «النفس الفرحة روحياً والعاملة في الجسد تنقل بهجتها الى الجسد فيصير روحياً وهكذا لا تتعطل اللذة المنقولة من الروح الى الجسد باتصالها مع الجسد بل تحوله الى روح. وبطرحه الرغبات الجسدية الخبيثة لا يجرف الروح بل يتصرف كأنه روح من الأنسان الكل». يتضح أن بالماس كتابي بكليته في نظرته الأنتروبولوجية.

الإرتباط الجوهري بين النفس والجسد، خلاصهما المشترك وتأليههما هي افكار واضحة جدا عند القديس إيريناوس: «بيديّ الله أي بالإبن والروح القدس خُلق الإنسان على شبه الله. أقول الإنسان كله لا قسماً منه فقط خُلق على صورة الله. النفس والجسد معاً يشكلان الإنسان بقسميه، لا الإنسان بحد ذاته. لأن الإنسان ككل هو مزج ووحدة النفس (التي تعطى روح الآب) بالجسد (الذي يتكون على صورة الله».

ان صورة الله، حسب قول إيرناوس، ليس شيئاً ينحصر بالعقل بل شيئاً يتناول الجسد الانساني. يعالج هذه الناحية يوستينوس الفيلسوف في بحثه عن القيامة فيقول:

«من الواضح إذاً أن الانسان المخلوق على صورة الله هو جسدي. أليس القول: إن لا قيمة للجسد المخلوق على صورة الله ولا شرف له، قول غير صحيح ومشين؟ فهل الإنسان روحاً فقط؟ كلا! إنها روح الانسان. أيمكن أن يكون الانسان جسدا فقط؟ كلا أنه جسد الانسان. الإنسان هو وحدة من الاثنين. لو أُخذ الإنسان بقسمه الواحد دون الآخر لكان إنسانا حيادياً».

في عبارته « نثبت إستناداً إلى طبيعة الإنسان الكتابية أن الإنسان سمي إنسانا لا لأنه ذو نفس فقط أو جسد فقط بل لأنه وحدة من النفس والجسد ومن الناحيتين خلق على صورة الله ومثاله »،يتفق غريغوريوس بالماس مع يوستينوس .

بدلا من أن يستغل الكتبة المسيحيون النتائج التي يكتسبها الجسد والمادة من خلقة الإنسان على صورة اللـه وقعـوا في نوع من الملائـكية واعتبروا الجسد كعائق ومانع ، كشيء لا علاقـة له بالحياة الـروحية ، كشيء خارجـي عن طبيعـة الإنسـان الحقيقية وأوحــوا أن هدف حياة الإنسان هو أن يتحرر من ربط المادة وأن يحيا حياة روح بدون جسد .

هذه النظرة لا تأخذ بعين الإعتبار الفرق الجوهري بين البشر والملائكة . خلق الله الملائكة أرواحا خالصة أما الانسان فقد أعطاه جسداً تماماً كما أعطاه روحاً وهذان يشكلان وحدة جوهرية . خلق الله الإنسان بجسد ومن الكبرياء والجنون الفاضح أن يحاول الإنسان أن يخلع عنه جسده ويصبح ملاكاً.كما يقول باسكال: «ليس الانسان ملاكاً ولا حيواناً. من يريد أن يكون الملاك يكون الحيوان ».لا يجوز أن يتجاهل الانسان ، ولا أن يحاول ان يتجاوز الطبيعـة المادية بل عليه أن يفتخـر بجسـده وأن يستعمله كأشرف هدية من الله . يعتقد الكثيرون أن الانسان هو دون الملاك لأنه يملك جسداً . الملاك لا يملك الا روحاً والإنسان يملك روحاً وجسداً معاً . يقول غريغوريوس بالماس ان الانسان هو فوق الملاك لأنه يملك جسداً، . ان الطبيعة البشرية كمركَّبـة تملك إمكانـات اكبـر من الطبيعة الملائكية. الإنسان حد وسط بين المادي واللامادي، انه يشترك في العالمين لذلك يشكل جسراً ونقطة تماس لكل الخليقة الالهية.

كل هذا وأمور أخرى كثيرة تقوم وراء سر التجلي ، ووراء إتساع هذا السر في أعضاء الكنيسة . يقول أسقف فاستكوت: «ان التجلي هو

مقياس إمكانات الإنسان ، هو كشف قدرة الحياة الأرضية الروحية في أسمى أشكالها الخارجية . أن تجلي المسيح وتجلي قديسيه يبرهن لنا عن مقياس إمكانات الإنسان ويظهر لنا الجسد الإنساني كما خلقه الله في البدء وما هو مؤهل ليصبحه بنعمته وإرادتنا . التجلي يكشف روحانية طبيعتنا المادية الخاطئة ، نرى الجسد الإنساني في حالته النهائية عندما يصبح روحاً . التجلي يكشف بصورة جدّ حية ان الروحي لا يساوي « الغير المادي » .لا النفس فقط بل الجسد أيضاً مؤهل ليتشح وشاح الروح القدس . ان تجلي الأجساد مظهر مدرَك فقط ضمن إطار انتروبولوجيا تقبل بإمكانات الجسد الإنساني الروحية وترفض بقوة كل شكل من أشكال الثنائية الأفلاطونية . التجلي يعطي الحق للناسك (بيمين) ضد دوروثيوس ويبرهن ان اللاهوتي المسيحي هو مادي بالضرورة .

قلنا أننا نرى في التجلي الجسد البشري كما خلقه الله في البدء . مجد يسوع المسيح فوق جبل ثابور ليس مجداً أُخرويا فحسب بل حدثاً يشير إلى طبيعة الإنسان في البدء قبل أن تدمرها السقطة .

أخذ بامغو صورة مجد آدم كما يقول كتاب أقوال النساك . ماذا تعني هذه العبارة ؟ تعني بكل تأكيد أن بامغو قد عاد فامتلك حالة آدم في الفردوس . هكذا تجلى جسده وصار كجسد آدم قبل السقطة مشعاً وممجداً . الكتب الطقسية تحوي مثل هذا التعليم وفي عيد تجلي ربنا وإلهنا في ٦ اب نرتل : «اليوم تجلى في طور ثابور على التلاميذ وأظهر في ذاته جمال عنصر الصورة الأولى باتخاذه الجوهر البشري» .

وأيضاً: «أيها المسيح المخلص لقد جعلت طبيعة آدم المظلمة تزهو بتجليك معيداً عنصرها الى مجد وبهاء لاهوتك» .

أن تجلي جسد يسوع المجيد على جبل ثابور يكشف « جمال الصورة الإلهية » ويظهر لنا كيف كانت طبيعتنا الإنسانية لو لم تتلوث

بخطيئة آدم ويوضح لنا ما تستطيعه وما يجب أن تصيره طبيعتنا البشرية .

في حياة القديسين الذين لم يتمجدوا جسدياً كما تمجد سيرافيم يمكننا أن نلحظ بطريقة معدلة التعليم نفسه عن الجسد البشري . سنعرض بعض الأمثلة من المتوحدين القدامى . بين النساك القدماء في الصحراء قد نجد ثنائية خاطئة بسبب صرامة الحياة الفائقة القياس وقد نصادف في أكثر الأحيان المعكوس . عندما خرج القديس أنطونيوس (٢٥١ ـ ٣٥٦) من برجه الصحراوي حيث عاش سجيناً مدة عشرين سنة (كما ذكر القديس اثناسيوس) تعجب الناس عندما رأوا جسده على حاله ،« ما أرهقته الصيامات ولا هدته صراعاته مع الشياطين ولم يترهل من قلة التمارين الرياضية . كان منتصب القامة كمسير بالمنطق وكعائش حسب الطبيعة » .لا أثر لأي ثنائية هنا . كان أنطونيوس في حالة طبيعية . أنه « في حياة حسب الطبيعة » .لم تغير جسده الحياة الصارمة . يظهر أن الناسك الذي ينشد الحياة التي قبل الخطيئة يستهدفها نفساً وجسداً . في كتابه « حياة انطونيوس » يبرز اثناسيوس الكبير حفاظ الناسك أنطونيوس على جسده بصورة تثير الإنتباه : « ومع أنه عاش مئة وخمس سنين فقد بقي محافظاً على نظره وأسنانه كاملة وبقيت يداه ورجلاه قويتين » .

هناك في مصر رعية كاملة من النساك معروفة عندنا ، كانت أجساد متوحديها في حالة صحية جيدة كالقديس أنطونيوس و«لم يمرض أحد منهم قبل موته . عندما كانت تحضرهم ساعة المنية كان المتوحد منهم يستعد ويخبر أخوته ثم يضطجع وينام نومته الأخيرة» . لم يكن مرض قبل السقطة . هذا ما يحدث أيضاً في بعض الأحيان مع أولئك الذين حصلوا بقداستهم على الحالة الفردوسية . إنهم يتحررون من الأمراض . إن الانعتاق من المرض الذي وُهِبه بانغو « الذي قبل صورة مجد آدم » ومات

وهو يحيك سلة ليس خلواً من المعنى . لم يمرض قبل موته ولم يشعر بأي ألـم في أعضائـه . يكتـب يوحنـا السلمـي (٥٧٩ ـ ٦٤٩) عن هذا الموضوع في سلمه المشهور ويشرح في آخر الدرجة الثلاثين من السلم موضوع التجلي . يتكلم عن تجلي الجسد فيقول : « عندما يبتهج القلب بمحبة الله يبتهج وجهه ويشرق . إذاً عندما يندمج الإنسان كليا بالمحبة الالهية يكتسب الوجه نقاوة ونوراً ويصبح مرآة مشعة تعبّر عن الأنـوار الداخلية القائمة في أعماق النفس . بهذا البهاء شعّ موسى ولمع لونه». ثم يتابع قائلاً : « أولئك الذين يصلون الى عمل المحبـة الملائـكي كثـيراً ما يسهون عن تذوق لذة الطعام. اني اعتقـد ان الـذين حازوا على هذه المحبة الإلهية شابهـوا الملائـكة فكأنهـم خالـدون لا تمـرض أجسامهـم بسهولة ، وصارت غير فانية وخالدة نقتها لهب المحبة الإلهية النقية» .

يمكن للجسد الإنساني حتى في الحياة الحاضرة وفي حالات معيّنة ان يحقق ضمن حدود معيّنة عدم الفساد الذي كان لآدم قبل السقطـة والذي هو نصيب كل الأبرار بعد قيامة الجسد . هذا يساعدنـا لنفهـم كيف تبقى أجساد القديسين غير فانية بعد الموت في بعض الأحيان .

د ـ مجد القيامة الأخير

إذا كان الإنسـان المخلـوق على صورة اللـه هـو وحـدة نفس وجسد ، إذا كان الجسد يشترك مع النفس بالتأله فلماذا لا نصادف في حياة الكثيرين من القديسين لا عدم فساد الجسد ولا التمجيد الخارجي ؟ ألم يكن التمجيد الجسدي في حالة القـديس سـيرافيم وحياة قديسـين آخرين تمجيد لحظات ؟ ما هو تفسير ذلك ؟ إن تجلي ربنا وإلهنا يجيبنا على هذا السؤال . مرة ومرة واحدة أثناء حياة المسيح على الأرض ظهر المسيح

لتلاميذه متجلياً بالنور الإلهي وللحظة . هذا لا يعني أن طبيعة الـرب البشرية قبلت شيئاً لم يكن فيها من قبل ثم فقدته . بالعكس لم يكن المجد الذي شع في يسوع على جبل ثابور مجداً فوق العادة بل شيئاً كان يملكه دائماً إلا أنه بحركة إخلاء ذات إرادية أخفى هذا المجد لظـروف أخرى . في حضوره الثاني سيأتي الرب بمجد وقـوة والبشر سينظـرون جسده كما هو في الواقع بكل جماله وعظمته .وهذا ما سيحدث أيضاً مع قديسيه.ما داموا على الأرض فإن مجدهم الحقيقي يبقى دائماً وعلى وجه التقريب سرياً ويظهر جسدياً في حالات قليلة ونادرة . ولكن عندما يقوم الأموات في اليوم الأخير سيظهر القديسون كما هم في الواقع ممجدين جسدياً وروحياً .

التجلي إذاً هو حقيقة أخروية ، أي رجاء مجيء المسيح الثاني ، عندما يظهر أيضاً بمجده كما ظهر في ثابور ويرمز إلى قيامة الموتى ، عندما يخترق النور الإلهي ذاته الذي شع في جسد يسوع فوق جبل ثابور أجساد القديسين الناهضين من القبر . المسيح في تجليه كما يقول أنسلموس قد برهن عن مجده ومجّد خاصتـه أو كما يقـول غريغـوريوس ذيالوغوس: « أيعلن بالتجلي غير مجد القيامة الأخيرة ؟ أن مجد ثابور هو عربون ووعد وظهور مجد الفردوس ».

في مواعظ مكاريوس (في بداية القرن الخامس) يجـري الـكلام بصورة مفصلة عن تجلي الإنسان العتيد بعد قيامةالجسد :« يتمجد جسد الإنسان على قدر ما يكون مالكاً للروح القدس . ما يخزنه الإنسان في أعماق نفسه سينكشف وسيظهر خارج الجسـد وسيأتـي يوم القيامـة. وبقوة شمس العدل ، يخرج من الداخل الى الخارج مجد روح القدس ويغمر أجساد القديسين الذين اختبأ مجدهم داخل نفوسهم . ما فيهم الآن يخرج خارج الجسد فتتمجد إذاك أجسامهم بالنور الذي لا يدرك والذي كان فيهم بقوة الروح ».

بعد القيامة ستلمع أجساد القديسين بالنور كما يقول الكتاب . هذا البهاء مدين لمجد الروح الذي سينسكب في الجسد :و يجعله شفافاً . الجسد يقبل أن يكشف البهاء الذي هو داخل النفس روحياً وغير مادي . سيرُى مجد الروح في الجسد المتجلي كما ترى تماماً لون الأشياء وسط الأوعية الزجاجية .

هذا ما يحاول ان يفعله المصوّر الكنسي ويمثله سرياً . يحاول ان يبرز جسد القيامة المتجلي المشع بنور الروح القدس .

هـ ـ بدء جيل المستقبل

إن ما يسميه القديس توما الأكويني « إنسكاب الروح في الجسد » ليس شيئاً معداً فقط للمستقبل . يتمتع البعض (كما رأينا) بمجد جسدي من الآن (حتى لو كان التمتع لحظة) .

إن حقيقة اليوم الأخير هي القيامة الشاملة وتجلي الجسد . ألا نعيش كمسيحيين دُفنّا وقمنا مع المسيح بالمعمودية في الجيل الآتي منذ الآن بدرجة ما ؟ أليس ملكوت الله حقيقة حاضرة وفي الوقت نفسه مستقبلة ؟ إن القيامة كما يؤكد الإنجيلي يوحنا في سرده لقيامة أليعاز شيء يشترك فيه المؤمن من الآن . أن مرثا عندما تقول « أنا أعرف أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير » تقصد القيامة في المستقبل . أما المسيح فيؤكد حقيقة القيامة الحاضرة بجوابه لها : «انا هو القيامةوالحياة. . .من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد»(يوحنا ١١ : ٢٤ ـ ٢٦) . تجلي القديس سيرافيم رمز واقعي لكلام المسيح . كل هذه الأمثلة عن التمجيد الجسدي وعن المذاق المسبق لقيامة الأموات الأخيرة تؤكد ان التعليم المسيحي عن الآخرة ليس شيئاً إستقباليا بل شيئاً محققاً من الآن وقد كُرِّس . « إذا كان الجسد يشترك آنذاك مع الروح بالخيرات السرية فإنه

الآن يشترك بخيرات الروح الذي يقطنه » كما يقول القديس غريغوريوس بالماس .

هذا هو المعنى اللاهوتي لحوار سيرافيم وموتوفيلوف. انه يعرض بوضوح الأهمية التي للجسد البشري في مخطط الله الخلاصي ، ويدعونا لتوجيه أنظارنا الى قيامتنا العتيدة وفي الوقت نفسه يرينا كيف يمكن ان نتمتع بالثمار الأولى ، ثمار القيامة هنا ومن الآن .

و ـ تجلي العالم

ليس الجسد الإنساني مدعواً ليتجلى ، ليصير « متشحاً للروح » وحسب ، بل الخليقة المادية كلها. عندما يبزغ اليوم الأخير لن ينسلخ الإنسان المعتق عن بقية الخليقة إذ أن الخليقة كلها ستخلص وستتمجد معه. يقول الانجيلي يوحنا: «رأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى قد زالتا» (رؤيا ٢١ : ١). ويقول الرسول بولس: «إن انتظار الخليقة يتوقع تجلي المجد في أبناء الله. ان الخليقة ستعتق هي أيضاً من عبودية الفساد إلى حرية مجد أبناء الله. ونحن نعلم أن الخليقة كلها تئن وتتمخض حتى الآن» (رومية ٨ : ١٩ ـ ٢٢). يمكن ان تؤوَّل هذه الفكرة عن خلاص العالم تأويلاً خاطئاً إلا أنها عندما تفسر تفسيراً صحيحاً تشكل عنصراً أساسياً من عناصر العقيدة الأرثوذكسية عن الأمور المتعلقة بالآخرة.

يستطيع الآن أن ينظر الإنسان الى الأيقونات المقدسة كثمار أولى لهذا الخلاص الجماعي الذي يشمل حتى المادة . فيها نرى بوضوح ما للخشب واللون كمادة من إمكانات التقديس والموهبة الروحية . الأيقونات هي كشوفات قوية للقوة الروحية التي يملكها الإنسان وبها يستطيع ان يخلص الخليقة بالجمال والفن . انه عربون الظفر العتيد

عندما يتوطد الخلاص الذي حمله المسيح لكل الخليقة لمحو نتائج السقطة . الأيقونة مثال مادي إيجابي أعيد وضعه في تناسقه وجماله الأولي يستعمل الآن كمتشح للروح القدس . الايقونة تؤلف قسماً من العالم المتجلي .

كما أن تجلي يسوع يرمز الى قيامة الجسد الأخيرة كذلك يشير مسبقاً الى تحول كل العالم . ان شخص السيد المسيح لم يتجلَ وحده فوق جبل ثابور بل ولباسه أيضاً . يقول ف . دي موريس: «ان حدث التجلي عاش خلال العصور وأنار جميع الأجيال . لقد حازت كل الوجوه ، بسبب ذلك النور وتلك الهيئة التي شعت بمجد الله ، بسبب تلك الأوشحة التي لمعت بيضاء كالثلج ،على هذا الاشعاع وكل الأشياء العامة تجلت . تجلي الرب يسوع يعني تجلي كل المخلوقات تجلياً كماله في المستقبل ومقدماته تقدم لنا من الآن ويمكن ان يتذوقها الإنسان.يكفي ان تكون له الأعين ليرى» .

يقول القديس إيريناوس في وصفه لليوم الأخير: « لا أقنوم ولا جوهر الخليقة يندثران بل حجم هذا العالم يعبر ، أي ما كان سبباً للمعصية وصار به الإنسان عتيقاً » . بعبور هذا الشكل وتجدد الإنسان وبنموه في عدم الفساد لا يستطيع أن يصير عتيقاً،« وتكون سماء جديدة وأرض جديدة ويبقى الإنسان في الجديد جديداً يحدث الله ويكلمه » .

يقول مخطوط عبراني : « أن أحد الملوك دخل بستانه ليخاطب البستاني فاختبأ البستاني فقال له الملك : لماذا تختبىء مني ألست مثلك ؟ هكذا سيسير الله مع الصديقين في الفردوس الأرضي وسيرونه وسيرتجفون منه وسيقول لهم آنذاك لا تخافوا أنا واحد منكم » . هذا هو التجلي الذي ننتظره .

٦ ـ الدينونة

أ ـ عدل الله وحكمه

الله طويل الأناة ومتحنن ومحب للبشر وهو بالمقدار نفسه عادل . وكما أن محبته للبشر وتحننه لا متناهيان كذلك عدله . ومع التأكيد على أن الله رحيم غفور يفتح صدره للذي يأتي إليه تائباً كالأبن الشاطر فيعفو عنه ويخلصه ، فهو كذلك ديان يدين بالقوة نفسها من لا يتوب ويرفض الخلاص . ولذا كان لا بد من الكلام عن العقاب الأبدي بعد أن تحدثنا عن الحياة الأبدية . ويذكرنا بذلك صاحب الرسالة الى العبرانيين (١٠ : ٣٠ ـ ٣١) حيث يقول : « فنحن نعرف الذي قال : لي الانتقام وأنا الذي يجازي » و « الرب سيدين شعبه ، فالويل لمن يقع في يد الله الحي » .

ب ـ المسيح هو الديان

لنتأمل ملياً في هذا النص الذي أعطانا يوحنا : « وأعطاه (اي الأبن) أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان. لا تتعجبوا من هذا. ستجيء ساعة يسمع فيها صوته جميع الذين في القبور ، فيخرج منها الذين عملوا الصالحات الى الحياة والذين عملوا السيئات إلى الهلاك.أنا لا أقدر أن أعمل شيئاً من عندي ، فكما أسمع من الآب أحكم ، وحكمي عادل لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني » (يو ٥ : ٢٧ ـ ٣٠).

ولنعد إلى ما أورده متى (٢٥ : ٣٤ ـ ٣٦) عن لسان السيد في يوم الدينونة:« ويقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت الذي أعد لكم منذ إنشاء العالم ، لأني جعت فأطعمتموني ، وعطشت فسقيتموني وكنت غريباً فآويتموني وعرياناً فكسوتموني

ومريضاً فزرتموني وسجيناً فجئتم إليّ . »

ج ـ شرط الدينونة

نخلص مما سبق إلى ما يلي :

ـ الحاكم سيكون المسيح نفسه .

ـ هذا الحاكم الديان يحبنا ومات من أجلنا : « ولما كنا ضعفاء مات المسيح من أجل الخاطئين . . . وقلما يموت أحد من أجل إنسان بار . . . ولكن الله برهن عن محبته لنا بأن المسيح مات من أجلنا ونحن بعد خاطئون » (رو ٥ : ٦ ـ ٨).

ـ هذا الحاكم نفسه قال على لسان نبيّه : « لا أريد موت الخاطىء إلى أن يرجع ويحيا » (حز ٣٣ : ١١).وقد أكد بولس هذا القول : « يريد أن يخلص الجميع وإلى معرفة الحق أن يُقبلوا » (١ تيمو ٢ :٤). وذكّرنا به بطرس الرسول : « الرب لا يؤخر إتمام وعده . . . ولكنه يصبر عليكم لأنه لا يريد أن يهلك واحد منكم بل أن يتوب الجميع»(٢بط ٣ : ٩).

ـ وكما أن هذا الحاكم محب ورحيم فهو عادل .

ـ وسوف يعاملنا السيد حسب أعمالنا ونياتنا في آن « لأن العمل بإحكام الشريعة لا يبرر أحداً عند الله لأن الشريعة لمعرفة الخطيئة» (رو ٣ : ٢٠) ،إذ قال :«لا تدينوا فلا تدانوا .لا تحكموا على أحد فلا يُحكم عليكم . أغفروا يُغفر لكم» (لو ٦ : ٣٦ ـ ٣٧) .

ـ وبالتالي سيكون حسابنا عسيراً ومرتبطاً إرتباطاً وثيقاً بمواقف داخليه تنم عن محبة وعطاء يتجليان في علاقتنا بالمرضى والغرباء

والسجناء والمعذبين في الأرض لأن في هؤلاء يسكن السيد . وهكذا فالمحك ، في النهاية ، سيكون مقدار محبتنا وتكريس ذواتنا لخدمته وخدمة الذين خُلقوا على صورته ومثاله : « نحن نعرف أننا انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب أخوتنا . . . من لا يحب بقي في الموت » (١ يو ٣ : ١٤) .

ـ ها هو الطريق الذي يجب أن نسلكه لنحظى بالحياة الأبدية . وقد أصبح واضحاً كل الوضوح . فما علينا الا أن نَعْبُرَ من البغضاء الى المحبة لأن عبوراً كهذا يجعلنا نعبر من الموت الى الله أي الحياة . وهكذا نستبق ، بشكل من الأشكال ، الدينونة . وكما يقول الذهبي الفم « السماء على الأرض نجدها في الأفخارستيا وفي محبة القريب » .

ـ المعرفة والايمان وليدا المحبة : « كل محب مولود من الله ويعرف الله . من لا يحب لا يعرف الله . لأن الله محبة والله أظهر محبته لنا بأن أرسل ابنه الوحيد الى العالم لنحيا به» (١ يو ٤ : ٧ ـ ٩) .

ـ الله محبة ، فمن لا يحب لا شركة له مع الله ، وبالتالي لا صلة له بالحياة التي هي من لدن الله . ومآله الموت والزوال . ومصيره جهنم حيث « لا يوجد الله » ولا يسمع له صوت . أوليس العذاب الأبدي هو أن يعرف الخاطىء انه سيحيا الى الأبد بعيداً عن حضرة الله ، لا يسمع صوته ولا ينعم بالملكوت الذي « أعده الله منذ انشاء العالم » (متى ٣٥ : ٣٤) ؟

٧ ـ الصلاة من أجل الأموات

آ ـ صلاة البار وشركة القديسين

يوصينا يعقوب الرسول فيقول : « ليصلِّ بعضكم لأجل بعض لتنالوا الشفاء » (٥ : ١٦) . وفي كتاب المكابيين نجد أن صلاة البار

تقتدر على الصفح عن الخاطىء حتى بعد وفاته : « لأنه لو لم يكن مترجياً قيامة الذين سقطوا لكانت صلاته من أجل الموتى باطلاً وعبثاً . ولاعتباره ان الذين رقدوا بالتقوى قد ادخر لهم ثواب جميل وهو رأي مُقَدَّس تَقَوِيّ . ولهذا قدَّم الكفارة عن الموتى ليُحَلُّوا من الخطيئة » (٢ مكابيين ١٢ : ٤٤-٤٦) .

أما يوحنا الانجيلي فيعكس الآية ويقول لنا بأن الأموات كذلك قادرون على الصلاة من أجل الأحياء (رؤ ٥ : ٨ ، ٨:٣) ويشبه « صلوات القديسين » أمام عرش الحمل « بكؤوس من ذهب مملوءة بالبخور » .

فالموت إذاً لا يفصم عرى وحدة جسد المسيح . والأحياء في هذا العالم والذين انتقلوا على رجاء القيامة هم دائماً جسد واحد . وهذا ما نسميه بـ : « شركة القديسين » .

هذه الشركة التي سبق وتحدثنا عنها في الفصل الثامن تتجلى على أفضل وجه في حياة الكنيسة الليتورجية . فالكنيسة جمعاء تصلي وليس الأحياء فقط . لأن الأموات الموجودين معنا في الكنيسة والذين تمثلهم ايقونات القديسين الموضوعة في الكنيسة هم ايضاً يشاركوننا التسبيح . وشيء آخر هام جداً يحصل في القداس الإلهي إذ ان الكاهن يذكر الأحياء ويضع قطعاً من خبز التقدمة على الصينية ثم يذكر الأموات ويضع على الصينية نفسها قطعاً من خبز التقدمة وبعدئذٍ يضع ما تجمع على الصينية في الكأس فيغدو الأحياء والأموات جسداً واحداً بالمسيح . لذلك فالمكان الوحيد الذي يلتقي فيه الأحياء والأموات بكل معنى الكلمة هو الكنيسة وبالتحديد في الكأس المقدس أي في المسيح يسوع . لذا فنحن مدعوون الى أن نحمل امواتنا في صلواتنا الى الرب وهم ايضاً يشتركون معنا في التسبيح فيتمجد اسم الرب فيهم وفينا وينمو الجسد الذي يجمعنا والذي هو الكنيسة جسد المسيح.

ب ـ حول صلاة الجناز

عظة لغبطة البطريرك الانطاكي
اغناطيوس الرابع

(عندما كان مطراناً للاذقية)

باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين .

يبدو لي ، ايها الأحباء ، انه من المهم ان يعرف الشعب متى نصلي بالفعل من اجل موتانا . اعتقد ان الكثيرين في هذه الكنيسة المقدسة ، والعديد من شعبنا يظن أن الصلاة من أجل المائتين ، هي هذه الصلاة التي نقوم بها في آخر القداس .

أيها الأحباء ، نحن لم نأت الى هذه الكنيسة من أجل هذه الصلاة (صلاة الجناز) . نحن نأتي الى الكنيسة حتى نواجه أمواتنا . وهذه الصلاة التي نصليها في آخر القداس الإلهي ، هي صلاة يمكن أن تقام في البيت ، في أي مكان ولمرات عديدة . هي صلاة اعتيادية جداً جداً . هي مجرد ذكر ليس أكثر . الواقع ، ايها الأحباء ، اننا نواجه امواتنا هنا ونصلي من اجلهم ومعهم ، ونقيم واياهم القداس الإلهي . وهذه هي النقطة الهامة ، نقيم القداس الإلهي حتى نكون وإياهم في الخدمة الإلهية . انهم يُذكرون ليس في آخر الصلاة ، ولكنهم يذكرون عندما نقول : « اذكر يا رب اولاً « أبانا » و . . . » . وبعدئذنحن نذكر هذه الأسماء على المائدة الإلهية ، بعد أن يكون الرب قد حضر بيننا خبزاً وخمراً متحولين الى جسده ودمه .

إذاً من الطبيعي جداً ان تتحول افكارنا ليس الى ذكرى فارغة ، ولكن الى حضور كلي ، الى حضور يكاد ان يكون ملموساً كحضور المسيح بيننا ، كحضور المسيح جسداً وروحاً ، جسداً ودماً ، جسداً ونفساً . عندما يكون المسيح حاضراً معنا بالذات ، فالأموات عندما

يوضعون على هذه الصينية المباركة ، فهم حاضرون تماماً كالأحياء . وعندما تنزل النعمة الإلهية على الجسد الكريم ، على الحمل الكريم وعلى الدم المكرم ، عندئذٍ يصبحون أحياء تماماً كما ان المسيح هو حي.

أيها الأحباء ، أتمنى أن نتوجه روحياً الى ذلك الظرف بالذات في صلواتنا. لذلك فالذين يأتون الى الكنيسة ، المقدِّسون من أجل امواتهم . والذين لا يحضرون القداس الإلهي بل هذه الصلاة القصيرة ، لا يكونون قد قاموا بواجباتهم نحو أمواتهم . الذي يقوم بواجبه نحو ميته ، هو الذي يأتي لكي يراه ، لكي يصلي واياه ، ولكي يتناول واياه جسد الرب ودمه الكريمين ايضاً .

أطلب إليكم أولاً أن نأتي في بدء القداس لأن القداس هو الصلاة من اجل الراقدين وليس هذه الصلاة . ثانياً ان نتناول نحن وموتانا لنشاركهم الحياة بالرب يسوع . هذه هي تعزيتنا الفعلية ايها الأحباء .

أما التعزية الخارجية ، من زيارة الى البيت ، وتقدمة التعازي كالمعتاد ، فهذه لم تعد واردة عند كل الناس . الناس في العالم لم يعودوا يتحملون المضايقة في بيوتهم الصغيرة ، او الاقتطاع من أوقاتهم الضيقة ، وأكثر من ذلك فقد لا تحتمل نفوسهم التعبة أن تثار قضية الحزن فيها مرات عديدة . الناس لم يعودوا يتحملون العادات التي نحن نعيشها اليوم . لذا كانت التعزية في معظم الأحيان في الكنيسة او عند مدخلها . ويذهب المحزون بعدها الى بيته ليشعر انه حر هنالك ، إذا شاء البكاء ففي بيته يبكي ، وإذا شاء الصلاة ففي بيته يصلِي أيضاً .

هذا ما احببت اعلانه ، واني ، في كل الأحوال ، اتمنى لكل واحد يفقد عزيزاً عليه ، ان تكون له التعزية القلبية ، التعزية العميقة التي بالرب يسوع . والتعزية التي بالرب يسوع تقوم في قلب كل مؤمن .

٨ ـ رقاد سيدتنا والدة الاله

تحدثنا في الفصل الخامس عن والدة الإله ونعود اليها الآن لأنها تعطي أفضل صورة عن الانتقال من الموت الى الحياة . ورقادها ـ أو بالحري انتقالها ـ هو الرمز الحي لما يمكن أن تكون عليه نهاية حياتنا على الأرض : « الحق الحق أقول لكم : من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله الحياة الأبدية ولا يحضر الدينونة لأنه انتقل من الموت الى الحياة» (يو ٥ : ٢٤) .

رقاد والدة الله لم يرد ذكره في الكتاب المقدس ولكن التقليد الكنسي نقل الينا هذا الحدث . والكنيسة تعيّد له في الخامس عشر من شهر آب .

ماذا نتعلم من ايقونة العيد والصلوات والابتهالات التي نرفعها في خدمة العيد ؟

أ ـ في الايقونة ، نرى مريم على فراش الموت يحيط بها الرسل ، وقد جمعهم الروح من اقطار المسكونة . ونشاهد كذلك أساقفة الكنيسة والملائكة ينحنون امامها . وفي منتصف الايقونة نرى السيد حاملاً على ذراعيه طفلاً يمثل روح والدته . وهكذا ببساطة وعمق تعلمنا الأيقونة ان مريم التي حملت السيد طفلاً هي مولودة الآن في السماء ومحمولة على يدي ابنها وسيدها . وان الذي وهبته طبيعتها الانسانية ليولد على الأرض قد تقبلت نعمته بدورها لتولد في السماء . وهكذا يكون في رقاد العذراء قد تحقق مجد الدهر الآتي، وحقق الانسان الغاية الأخيرة التي من أجلها خُلق أعني التأله . في المسيح تجسَّد الإله والعذراء في انتقالها تألهت وحققت، لأول مرة ، غاية التجسد الإلهي التي عبَّر عنها الآباء بقولهم : «صار ابن الله انساناً لكي يتأله الانسان» .

ب - « في ميلادك حفظت البتولية وصنتها ، وفي رقادك ما اهملت العالم وتركته يا والدة الإله لأنك انتقلت الى الحياة بما أنك أم الحياة. فبشفاعاتك خلصي من الموت نفوسنا » .

هذه الطروبارية تعلمنا ان العذراء انتقلت من الموت الى الحياة ، وانها حظيت بالحياة الأبدية دون أن تخضع للدينونة . (يو ٥ : ٢٤) لأنه لا يمكن أن تبقى والدة الإله في الفساد . وفي الخامس عشر من آب ، ذكرى وفاة العذراء، نقيم خدمة تشبه الى حد ما خدمة الفصح لأن تعيدنا لانتقال العذراء هو ايضاً تعييد لقيامتها واتحادها بابنها متخطية يوم الدينونة والقيامة العامة.

« إن والدة الإله التي لا تغفل في الشفاعات والرجاء غير المردود في النجدات ، لم يضبطها قبر ولا موت لكن بما أنها أم الحياة نقلها الى الحياة الذي حل في مستودعها الدائم البتولية » . (قنداق في السحرية) .

« إن الملائكة لما شاهدوا رقاد البتول الكلية النقاوة اندهشوا كيف ترتقي من الأرض الى العلى » (الأودية التاسعة) .

ج - ما حصل لمريم ليس بالصدفة ولكنه داخل في تصميم الله الخلاصي لكل منا . إذ بعد الدينونة ، أي في آخر الأزمنة ، سنقف أحياء بأجسادنا امام وجه الله كما يقول بولس الرسول : « هذه هي الحال في قيامة الأموات : يدفن الجسم بفساد ويقوم بغير فساد ، يدفن بلا كرامة ويقوم بمجد ، يدفن بضعف ويقوم بقوة . يدفن جسماً بشرياً ويقوم جسماً روحانياً . وإذا كان هنالك جسم بشري فهنالك ايضاً جسم روحاني » (١ كو ١٥ : ٤٢-٤٤) .

وهذه هي الغاية الأخيرة للدينونة : أن تدخلنا في الحياة الأبدية مع

الله كما دخلتها العذراء وأن نلج ملكوت السموات أو أورشليم السماوية كما يسميه الكتاب ، هذا العالم الكلي الجدة الذي وعدنا الله به والذي هو في « صيرورة » منذ الآن وفي الوقت نفسه«آت » . وسيتحقق كلياً عندما يصير الله « الكل في الكل » (١ كو ١٥ : ٢٨) .



مراجع

تاريخ كنسي وقوانين

- تاريخ كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى (ثلاثة اجزاء) — للدكتور اسد رستم
- نحن وروميه والفاتيكان — للدكتور اسد رستم
- قوانين المجامع المسكونية والمحلية — للأب جان كوربون
- كنيسة المشرق العربي — ترجمة البطريرك اغناطيوس الرابع

آباء الكنيسة

- الآباء الرسوليون — ترجمة البطريرك الياس الرابع
- الحياة في المسيح لنقولا كابازيلاس — ترجمة البطريرك الياس الرابع
- آباء الكنيسة جزئين — للدكتور اسد رستم
- السلم الى الله ليوحنا السلمي — ترجمة رهبنة دير الحرف
- رسائل المنفى ونصوص اخرى — للذهبي الفم ترجمة الأسقف استفانس حداد

ليتو رجيا وطقوس

- مدخل الى القداس الإلهي — لكوسبتي بندلي
- الصوم — للمطران جورج خضر
- زمن الصوم (معرب من الفرنسية) — للأب ليف جيلله
- مائدة الرب لنيقولاي أثناسييف — ترجمة المطران اسبيريدون خوري
- ذبيحة التسبيح — لفريدا حداد
- السنة الطقسية (بالفرنسية) جزئين — للأب ليف جيلله
- حول الليتورجيا (بالفرنسية) — للأب ليف جيلله
- من أجل فهم الليتورجيا وعيشها — لرهبنة دير الحرف

كتاب مقدس وتأملات انجيلية ومواعظ

ـ القصد الاهي	لسوزان دي ديوتريتش
تعريب البطريرك اغناطيوس الرابع	ورهبنة دير الحرف
ـ كتاب المزامير	ترجمة عرمان
ـ مدخل الى الكتاب المقدس	لرهبنة دير الحرف
ـ الكتاب المقدس في الكنيسة	ترجمة الأب ابراهيم سروج
ـ كلمات انجيلية	للمطران جورج خضر
ـ أؤمن	للبطريرك اغناطيوس الرابع
ـ فتح كلامك ينير	للبطريرك اغناطيوس الرابع
ـ ثماني كلمات في الرعاية	للمطران جورج خضر
ـ أعطني هذا الغريب	لفريداحداد
ـ صيرّوا الأرض سماء	لفريدا حداد
ـ الإنجيل في الحياة (بالفرنسية)	لكوستي بندلي
ـ الكنيسة والنقد الكتابي الحديث	لكيزيتش ترجمة الأب ميشال نجم

روحانيـات

ـ أصول الحياة الروحية	لرهبنة دير الحرف
ـ مدرسة الصلاة للمطران انطوني بلوم	ترجمة هاشم الحسيني
ـ الراهب سلوان والحرب اللامنظورة	
ـ أبانا (بالفرنسية)	للأب ليف جيلله
ـ كن كاهناً لي (بالفرنسية)	للأب ليف جيلله
ـ سر عطية الدموع في الشرق المسيحي	ترجمة رهبنة دير الحرف
ـ سائح روسي على دروب الرب	ترجمة انطوان جرجي

الايمان والعقيدة ومحاورة الفكر المعاصر

ـ ألوهة المسيح	لكوستي.بندلي
ـ السبل الى الله	لكوستي بندلي
ـ إله الإلحاد المعاصر	لكوستي بندلي

ـ الله والتطور	لكوستي بندلي
ـ تأملات في تجسد الكلمة	للمطران جورج خضر
ـ هل الدين أفيون للشعوب	للمطران جورج خضر
ـ القيامة والانسان المعاصر (بالفرنسية)	للبطريرك اغناطيوس الرابع
ـ حديث الأحد	للمطران جورج خضر
ـ انطاكية الجديدة	للمطران جورج خضر
ـ يهوه أم يسوع	اسبيرو جبور
ـ مجالس الرعايا والنهضة	لكوستي بندلي
ـ في الكهنوت	رهبنة دير الحرف
ـ المغالطات اللاهوتية لدى شهود يهوه	اسبيرو جبور

الكنيسة والقضايا الانسانية

ـ الطائفية (رأي مسيحي)	لكوستي بندلي
ـ الكنيسة والعالم	مجموعة مؤلفين
ـ فلسطين المستعادة	للمطران جورج خضر
ـ الجنس ومعناه الانساني	لكوستي بندلي
ـ مع تساؤلات الشباب	لكوستي بندلي
ـ الكرازة والحوار بين المسيحية والاسلام	للأب يواكيم مبارك
ـ مواقف الآباء ومشاكل البنين	لكوستي بندلي
ـ مجموعة «نحن واولادنا»	لكوستي بندلي

تعليم ديني

ـ التعليم القويم (ثلاثة أجزاء)	للبطريرك أغناطيوس الرابع
ـ الخلاصة الشهية في العقائد الأرثوذكسية	(معرب)
ـ على طريق الرب	كتاب التلميذ
ـ على طريق الرب	كتاب المسؤول
ـ نحن نعيش في عالم الله	
ـ نحن في بيت الرب	

- معاً الى الله كتاب التلميذ لسلمى فياض
- معاً الى الله كتاب المسؤول
- التوجيهات الروحية (٣ أجزاء)

ملاحظة :

تطلب هذه الكتب من منشورات النور : ص.ب ١١٢٩٦٦ بيروت وبيوت حركة الشبيبة الأرثوذكسية ومن السيد جورج اروادي تلفون ٦٢٢٢٩٣ و٦٠٠١٦٨ طرابلس .

تم طبع هذا الكتاب في كانون الثاني ١٩٨٢ في مطبعة النور تلفون ٢٨٦٩٨٩
عين الرمانة ولحساب منشورات النور ص.ب. ١١٢٩٦٦ بيروت ـ لبنان